شهيد الأمة
وشاهدها

اسم الكتاب: .... شهيد الأُمّة و شاهدها / القسم الثاني

المؤلّف: .... الشيخ محمد رضا النعماني

إعداد و تحقيق: .... لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ﵁

الناشر: .... مركز الأبحاث و الدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر ﵁

الطبعة: .... الاولى

المطبعة: .... شريعت ـ قم

تاريخ الطبع: .... ١٤٢٢ ﻫ

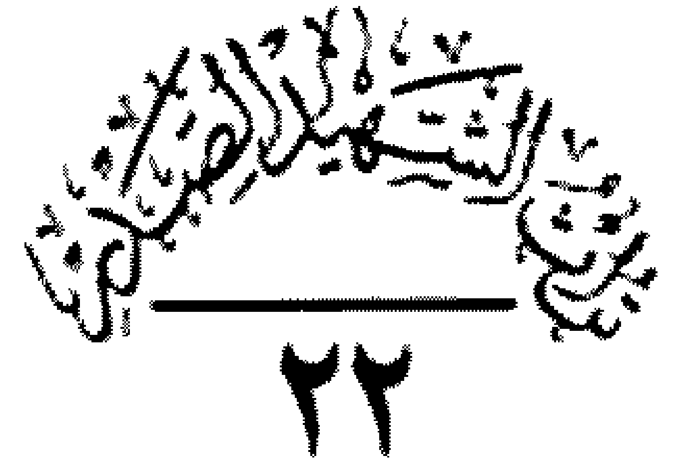
الكميّة: .... ٣٠٠٠ نسخة

رقم شابك الدورة: .... ISBN : 964 - 5860 - 22 - 9

رقم شابك هذا الجزء: .... ISBN : 964 - 5860 - 21 - 0



بسم الله الرحمن الرحيم



شهيد الأمة وشاهدها

دراسة وثائقية لحياة وجهاد الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر ﵀

القسم الثاني
حياته السياسية والجهادية

تأليف
الشيخ محمد رضا النعماني

المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ﵀

القسم الثاني:

حياته السياسيّة والجهاديّة

- استراتيجيّته السياسيّة والجهاديّة.
- الصراع بين السيّد الشهيد والسلطة الحاكمة.
- المواقف المعادية له من قِبَل السلطة.
- مواقفه الجهاديّة والقياديّة.
- المفاوضات الأخيرة والاستشهاد.

حياته السياسيّة والجهاديّة

١

استراتيجيّته السياسيّة و الجهاديّة

- رأيه في إقامة الحكومة الإسلاميّة.
- القيمومة على العمل الإسلامي.
- رأيه في العمل الحزبي.
- رأيه في العمل العسكري.

مقدّمة

للسيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) رؤيته واستراتيجيّته الخاصّة عن العمل السياسي والجهادي وتميّزه في محتوىٰ و أُسلوب الطرح، ورغم أنّ الأجـواء السياسيّة والإرهابيّة في العراق لم تكن تسمح له بتدوين كلّ التفاصيل عن هذه المواضيع الحساسّة والخطيرة بالشكل الذي كنّا نأمله ونتوقعه منه، إلّا أنّنا ولحسن الحظ يمكننا أن نستكشف الملامح العامّة والأُطر الرئيسيّة لكلّ تلك المواضيع من خلال ما كتبه في (أُطروحة المرجعيّة الموضوعيّة) ومن سلسلة (الإسلام يقود الحياة) ومن بياناته التي خاطب بها الشعب العراقي عام ١٩٧٩م وهو في الحجز، ومن بياناته بمناسبة انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، ومن خلال الرسائل التي أشار في بعضها إلى ذلك، ومن شهادات بعض طلّابه.

ومن الواضح أنّ للظروف الاجتماعيّة أو السياسيّة دخلاً في بناء هيكليّة الرؤىٰ والأُطروحات فقد يتبنّىٰ استراتيجيّة معيّنة في فترة ما ويتخلّىٰ عنها في فترة أُخرىٰ، والعكس صحيح كذلك. والذي نريد أن نتحدّث عنه هو الجوانب الثابتة لا المتغيّرة من استراتيجيّته السياسيّة والجهاديّة وهي أُمور في غاية الأهميّة وتحتاج إلى جهود كبيرة لعدد من المتخصّصين وأهل الخبرة لدراستها وبلورتها واستكشاف تفاصيلها وان كان ذلك قد يقتضي في بعض الأحيان أن نستعرض مراحل فكرة أو أُطروحة من مراحلها الأُولىٰ وحتىٰ نهاية المطاف كما هو الحال في مسألة (نظرية الحكم في الإسلام).

ولنستعرض ذلك من خلال النقاط التالية:

رأيه فى إقامة الحكومة الإسلاميّة

أوّلاً: رؤيته عن إقامة حكومة إسلاميّة في عصر الغيبة.

كان السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) يعتقد بأهميّة وضرورة إقامة حكومة إسلاميّة رشيدة في عصر الغيبة، تحكم بما أنزل الله عز وجل، وتعكس جوانب الإسلام المشرقة، وتؤكّد قدرته علىٰ بناء حياة نموذجيّة للبشريّة، وتبرهن بهديها وخصائصها على أنّ الإسلام هو النظام الوحيد القادر على تلبية كلّ حاجات الإنسان بما يضمن له سعادة الدنيا والآخرة.

يقول السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) في رسالة له بهذا الخصوص [1]:

«وفي هذا المجال نودّ أن نؤكّد الحقائق التالية:

الحقيقة الأُولى: أنّ تطبيق الإسلام فريضة واجبة، وأنّ إعادة الإسلام إلى كلّ مجالات الحياة، وإقامة النهضة الحقيقيّة للأُمّة على أساسه شرط ضروريّ في استعادتها لمجدها وكرامتها وإصالتها وتغلّبها على ما تواجه من مشاكل التخلّف والتمزّق والضياع، والمسلمون جميعاً يؤمنون بهذه الحقيقة وفي مقدّمتهم الشيعة الإماميّة الذين كانوا أبداً في طليعة من حمل مشعل الإسلام وضحّىٰ في سبيله، ولم يسقط الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام صريعاً في المحراب إلّا في سبيل الإسلام وتطبيقه، ولم يخرّ سيّد الشهداء الإمام الحسين صريعاً على أرض كربلاء الطاهرة إلّا في سبيل الإسلام ومن أجل تطبيقه...»

وعلى هذا الضوء نرىٰ أنّ مسألة تطبيق الإسلام في الحياة من الثوابت التي لاينبغي النقاش فيها في فكر السيّد الشهيد الصدر. ولم تكن هذه الرؤية إفرازاً

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٧٠).

لنجاح الثورة الإسلاميّة في إيران ذلك أنّ كتابة هذا النصّ كان قبل انتصار الثورة في إيران بعدّة سنوات، وهو في الفترة التي أعلنت فيها باكستان عن نيّتها لتطبيق الشريعة الإسلاميّة.

ويرىٰ (رضوان الله عليه) أنّ تطبيق الإسلام له متطلّبات أساسيّة، ومن أهمّ هذه المتطلّبات وجود اجتهاد متحرّك يستطيع أن يستنبط حلولاً من الكتاب والسنة تلبّي متطلّبات الحياة العصريّة وتعالج مشاكل الإنسان المعاصر.

ويجب ان لا يُقتصر في هذا المجال على تجارب لفقهاء تفصلنا عنهم عدّة قرون مارسوا الاجتهاد وفق متطلّبات ذلك الزمان لتفرض اليوم على مجتمعنا المعاصر لابل على المجتهد اليوم ـ إذا كان على رأس القيادة ـ أن لا يقتصر فقط على ما استنبطه وتوصّل إليه لأنّ الآراء الفقهيّة لا يمكن أن تشكّل الأساس المطلق للحياة الإسلاميّة على مرّ الزمن، وأنّه لابدّ من إعادة النظر في الموروث الفقهي وإعادة صياغته اعتماداً على المصادر الأُولىٰ للإسلام بما ينسجم مع متطلّبات الحياة العصريّة ومستجدّاتها، لا أن نعتمد علىٰ استنباطات فقهيّة لفقهاء تفصلنا عنهم مئات السنين أوجدت حالة من عدم التناغم بين واقع الحياة والموروث الفقهي.

وإنّ على وليّ الأمر أن ينتقي من آراء الفقهاء الآخرين ما هو أقرب إلى روح الإسلام، وما هو أنفع وأصلح للمسلمين.

يقول (رضوان الله عليه) بهذا الشأن ضمن الرسالة المشار إليها:

«الحقيقة الثانية: أنّ تطبيق الإسلام علىٰ مجتمع معاصر يتطلّب اجتهاداً حيّاً متحرّكاً واعياً قادراً على الاتصال المباشر بمصادر الإسلام الأُولى من الكتاب الكريم والسنّة الشريفة، واستمداد المنهج الكامل للحياة منهما، على الرغم من البعد الزمني، وتجدّد المشاكل، وتراكم التعقيدات خلال ثلاثة عشر قرناً من

الزمن، ولايمكن عملياً الاقتصار على حدود التجربة المحدودة التي مارسها فقهاء معيّنون في مرحلة تاريخيّة سابقة تفصلها عنّا قرون عديدة من الزمن، فإنّ المطلق هو الشريعة، وأمّا الاجتهاد فهو محدود بحدود مايعيشه المجتهد من حاجات مجتمعه ومشاكل مرحلته. ومهما كان المجتهد غنيّاً في فقهه فإنّ آراءه لايمكن أن تشكّل الأساس المطلق للحياة الإسلاميّة على مرّ الزمن، وهذا يعني أنّنا بحاجة إلى اجتهاد حيّ متحرّك، بل إلى ألوان من هذا الاجتهاد، وعلى وليّ الأمر دائماً أن ينتقي من آراء المجتهدين الذين يمثّلون الإسلام والشريعة بحقّ ما هو أقرب إلى روح الإسلام ومصالح الأمّة وأكثر انسجاماً مع ظروف توعيتها ونهضتها...»

ويرىٰ الامام الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) ان الفقه الإسلامي الإمامي هو القادر على إثراء الدولة الإسلاميّة بكلّ ما هو لازم لاستمرار مسيرتها وتلبية متطلّباتها وذلك لأنّ الفقه الإمامي لازال حيّاً متحرّكاً بسبب مواصلة علماء الشيعة لحركة الاجتهاد إلىٰ يومنا هذا، وهذه الخصيصة اعطت الفقه الإمامي القدرة على الاستجابة لتقديم الحلول المناسبة لمشاكل الإنسان المعاصر، خلافاً للمذاهب الفقهيّة الأُخرىٰ التي أغلقت باب الاجتهاد منذ قرون وتخلّفت في قدرتها على مواكبة متطلّبات الحياة يقول (رضوان الله عليه) بهذا الصدد في نفس تلك الرسالة:

«الحقيقة الثالثة: أنّ الفقه الإسلامي الإمامي هو المدرسة الوحيدة في الفقه الإسلامي العظيم التي واصلت حركتها العلميّة واجتهادها المتحرّك ومارست صيغها الفقهيّة والاجتهاديّة على مرّ الزمن ولازال الاجتهاد والمجتهدون فيها قادرين على استنباط الحلول المناسبة لمشاكل الحياة من الشريعة كما تدلّ على ذلك مؤلّفاتهم في الاقتصاد الإسلامي، وفي مختلف جوانب الحياة. وهذا يحتّم على أولياء الأُمور أن يأخذوا هذا الواقع بعين الاعتبار، ويترفعوا عن الحدود المذهبيّة الضيّقة، وليجعلوا من هذا الفقه الحي أساساً من أُسس التطبيق

الإسلامي الحديث»

وعن نفس الموضوع يرىٰ (رضوان الله عليه) ضرورة الرجوع إلى العلماء الفقهاء في العراق وإيران، وبما أنّ الرسالة التي نستند إليها في بحثنا هذا رسالة جوابيّة لرسالة كانت قد وصلته من باكستان تحدّثت عن تطبيق الشريعة الإسلاميّة هناك فإنّه أكّد بأن لا يُقتصر في هذا المجال على علماء مصر والسعوديّة والسبب في ذلك هو أنّ الفقه السني كما ذكرنا أوقف حركة الاجتهاد وأصبح غير قادر على تقديم حلول مناسبة للمشاكل الحياتيّة المعاصرة كالمشاكل الاقتصاديّة التي تتجدّد يوماً بعد يوم، وفي مجال التطبيق يمكن أن تحصل فجوات كبيرة ومفارقات كثيرة توحي بأنّ الشريعة الإسلاميّة غير قادرة على الاستجابة لمتطلّبات حاجات الإنسانيّة الفعليّة والمستقبليّة لو اقتصرنا على فتاوىٰ لمجتهدين مارسوا عمليّة الاستنباط قبل مئات السنين، فهو يستند في موقفه من ضرورة الرجوع إلى علماء النجف وإيران إلى مبرّرات موضوعيّة وليس إلى رؤية مذهبيّة أو طائفيّة، إذ أنّ حركة الاجتهاد لدىٰ الشيعة لم تتوقّف أبداً، وهذا ما أتاح له القدرة على معالجة كلّ القضايا الحياتيّة المعاصرة. يقول (رضوان الله عليه):

«والذي أراد أن تهتمّوا بنشر هذه الفكرة وهي أن يهتمّ علماء الشيعة ومجلّاتها وجمعيّاتها بتحبيذ تطبيق الشريعة وجعلها دستوراً، مع المطالبة الأكيدة من أولياء الأُمور بأن يُرجع في مهمّة تطبيق الدستور على الشريعة إلى علماء الشيعة في العراق وإيران، ولا يقتصر على علماء مصر والسعوديّة وأمثالهما. وفي هذا المجال يوضّح أنّ فتح باب الاجتهاد لدىٰ علماء الشيعة يجعل منهم قادرين على استنباط الدستور بالرجوع إلى الكتاب والسنة وبروح مستوعبة للعصر، وقد قدّموا الأدلّة التي اعترف بها العالم الإسلامي كلّه على

سعة اجتهادهم وقيمومتهم الفكريّة...»[١]

أما على الصعيد العملي فإنّ السيّد الشهيد الصدر ﷺ قام بمبادرات حيويّة في مقدّمتها كتبه القيّمة (اقتصادنا) و(فلسفتنا) و(البنك اللاربوي) وغيرها، هذه الكتب التي تعتبر مقدّمة ضروريّة في إطار إيجاد قناعة لدىٰ المسلمين بأنّ الإسلام كان ولايزال قادراً على مواكبة الحياة بكلّ تفاصيلها المتجدّدة.

ولم يقتصر في كتاب (اقتصادنا) الجزء الثاني في محاولته اكتشاف المذهب الاقتصادي في الاسلام على فقه الشيعة الإماميّة فقط، بل اعتمد كذلك على آراء وفتاوىٰ المذاهب الإسلاميّة الأُخرىٰ انطلاقاً من رؤيته ﷺ بأنّ الإسلام كيان واحد والشريعة واحدة رغم تعدّد الاجتهادات في فهم النصّ أو الاجتهاد فيه، فقد نقل عن الماوردي في الأحكام السلطانيّة عن الإمام مالك، وعن البخاري وسنن أبي داود، وكتاب الأُم للشافعي، وتكملة شرح القدير، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، ونقل آراء أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهم من علماء المذاهب الإسلاميّة وكتبهم. ثم توّج كلّ ذلك بما كتبه في أواخر عمره الشريف بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران بسلسلة قيمة باسم (الإسلام يقود الحياة) لإعطاء القواعد الشعبيّة رؤية مبسّطة وواضحة عن هذا الموضوع.

نظام الحكم في الإسلام:

أما ما هو شكل نظام الحكم في الإسلام، وهل يقوم على أساس نظام الشورىٰ استناداً إلى قوله تعالىٰ «وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكّل على الله»[٢] أو على أساس فكرة (ولاية الفقيه المطلقة)، أو فكرة المزج المنسجم

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٧١).
٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

بين الولاية والشورىٰ؟

والذي نقطع به أنّ السيّد الشهيد الصدر تبنّىٰ فكرة ولاية الفقيه المطلقة كما سنرىٰ ذلك، ولكنّه في كتاباته المتأخّرة، أي في سلسلة (الإسلام يقود الحياة) أعطى رأياً آخر فرّق فيه بين الولاية قبل قيام الحكومة الإسلاميّة، وفي ما بعد قيامها، وحدد دور الولي الفقيه في المرحلتين ودور الأُمّة كذلك. وسنأتي على توضيح ذلك فيما يأتي.

هذا وقد كتب (رضوان الله عليه) على ما نقل المرحوم الشهيد السيّد مهدي الحكيم ﷺ عن الدولة الإسلاميّة وتفاصيل موسّعة عن أُسسها في بداية تأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة في أواخر عام ١٩٥٨م=١٣٧٨هـ ولعلّ هذا هو نفس الذي اشار اليه سماحة السيّد محمد باقر الحكيم (حفظه الله) وكان رأيه الفقهي آنذاك عن شكل نظام الحكم أنّه يقوم على أساس الشورىٰ، وأصبحت كتاباته تدرس في حلقات الحزب ولم تنشر أفكاره لأنّه عدل فيما بعد إلى فكرة ولاية الفقيه التي استند في مدركها الفقهي إلى التوقيع المشهور (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنّهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله) [١]الذي صحّح سنده من خلال نظريّة التعويض في السند[٢].

وعن الاستراتيجيّة السياسيّة ونظام الحكم عند السيّد الشهيد الصدر، ومراحل اختمار الرأي الفقهي عنده وهل هو نظام الشورىٰ، او ولاية الفقيه كتب سماحة آية الله السيّد محمد باقر الحكيم بحثاً مهمّاً عن هذا الموضوع، وتعتبر كتابته وثائقيّة وهامّة لسببين، الأوّل أنّه عاصر تلك المرحلة وعايشها معايشة

١ ـ وسائل الشيعة، ج١، ص١٠١، ح٩.

٢ ـ راجع مجلة قضايا إسلامية العدد الثالث. سنة ١٤١٧هـ الصفحة ٢٤٦ ـ ٢٥٧.

تامّة، وثانيا كونه أحد العناصر المساهمة في العمل مع السيّد الشهيد الصدر ﷺ فهو أعرف بمعظم التفاصيل الدقيقة التي لم أعشها ولم أعرفها، نقتطف مما كتبه ما يمسّ موضوعنا قال:

«عندما نريد أن نتناول النظريّة السياسيّة عند الشهيد الصدر، لابدّ أن نفهم منذ البداية المراد من مصطلح (النظريّة السياسيّة) ونقصد به: نظام العمل السياسي، أو الإطار العامّ للتحرّك السياسيّ في المجتمع الإسلامي لممارسة عمليّة التغيير والهداية ضمن الخطوط الثابتة والضوابط والمقاييس العامّة، والاخلاق الإسلاميّة التي جاءت بهما الشريعة والقرآن الكريم.

ونسبة (النظريّة السياسيّة) إلى الشهيد الصدر نقصد منه ما كان يفهمه الشهيد الصدر في تصوّر هذا النظام والإطار العامّ للتحرّك من الإسلام والشريعة الإسلاميّة.

ويمكن أن نتعرّف على معالم وجهة نظره في هذه النظريّة السياسيّة من خلال مراجعتها الإجماليّة للأعمال الفكريّة، والنشاطات السياسية التي قام بها أو ساهم فيها الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ وأقواله وتصريحاته وبعض محاضراته، وهي كثيرة. ولكن يمكن أن نشير بشكل إجمالي إلى مجموعةٍ منها:

١ ـ على مستوىٰ الأعمال الفكريّة:

ويمكن أن نذكر مادوّنه الشهيد الصدر في الكراس الصغير الذي تناول فيه أُطروحة المرجعيّة الموضوعيّة، أو ما كتبه من شرح أُسس الدولة الإسلاميّة. وكذلك ما دوّنه في بعض رسائله الخاصّة حول دلالة آية الشورىٰ على أساس الحكم الإسلامي. وكذلك ما دوّنه في بعض الكرّاسات التي كتبها في أواخر حياته تحت عنوان (الإسلام يقود الحياة) وكرّاس (دستور الجمهوريّة الإسلاميّة) و(خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء)...

٢ ـ على مستوىٰ الأعمال والنشاطات:

فيمكن أن نذكر منها مساهمته في تأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة في

أواخر صيف ١٣٧٨هـ = ١٩٥٨م مساهمته في تأسيس وإسناد جماعة العلماء، إسناده لمرجعيّة آية الله العظمىٰ المغفور له السيّد الحكيم، ومشاركته في مجمل الأعمال السياسيّة التي كان يتصدّىٰ لها، رعايته للحركة الإسلاميّة في العـراق بشكل عامّ، تأسيسه شورىٰ المرجعيّة...»[1]

ومضىٰ في توضيح النظريّة السياسيّة عند الإمام الشهيد الصدر فكتب ما يلي:

«أعتقد أنّ البحث لابدّ من أن يأخذ مسارين من أجل توضيح الفكرة كما أشرت في البداية.

أحدهما: المسار النظري الذي يمكن معرفته من خلال تتبّع ومراقبة الحركة والمواقف السياسيّة للشهيد الصدر.

والآخر: المسار العملي الذي يمكن معرفته من خلال تتبّع ومراقبة الحركة والمواقف السياسيّة للشهيد الصدر.

ومن خلال المقارنة والموازنة بينهما تصبح الفكرة أكثر وضوحاً، ويمكن أن نجد التفسير لبعض المواقف والأفكار التـي قـد تـبدو ـ أحـياناً ـ أنّـها غـير منسجمة أو متناسقة.

وقد كتبت هذه الأوراق اعتماداً على الذاكرة، والمشاهدات التـي عشـتها طيلة الفترة السابقة، وأرجو منه تعالىٰ ان يتقبّل ذلك...

النظريّة السياسيّة على المستوىٰ النظري

نظريّة الشورىٰ والحزب

لقد بدأ الشهيد الصدر تصوّره للنظريّة السياسيّة انطلاقاً مـن عـدّة نـقاط فقهيّة وعمليّة:

الأُولى: أنّ الشهيد لم يتم لديه دليل واضح على صيغة الحكم الإسلامي

١ ـ مجلة قضايا إسلاميّة العدد الثالث ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

بشكل خاصّ حيث كتب ـ في بداية تكوين التصوّر السياسي ـ رسالة ناقش فيها جميع الأدلّة التي يذكرها الفقهاء على الصيغة الخاصّة للحكم الإسلامي، سواء روايات ولاية الفقيه المطلقة، أو دليل الحسبة، الذي كان يراه دليلاً قاصراً عن الوفاء بجميع متطلّبات الحكم الإسلامي. وأتذكّر بهذا الصدد أنّه بعد أن دوّن هذه الرسالة قمت بطرحها على بعض الفقهاء المعروفين في النجف الأشرف ـ آية الله الشيخ حسين الحلي ـ حيث أُعجب بها، وإن لم يكن يتّفق مع الشهيد الصدر في نتائجها.

الثانية: الاستفادة من آية الشورىٰ «وأمرهم شورىٰ بينهم»[1] للدلالة على إمكان إقامة الحكم الإسلامي علىٰ قاعدة الشورىٰ، لأنّ الحكم يمثّل أمراً مهمّاً من أُمور المسلمين، ولا يمكن تجاهله في مجتمعهم، والتجاهل يؤدّي إلى تهديد أصل الدين، إضافة إلى سيطرة الكفّار وعقائدهم علىٰ المجتمع الإسلامي.

ولابدّ من الالتزام بحكم الأكثريّة، لأنّ الإجماع في الأُمور الاجتماعيّة أمر نادر، وهذا يعني أنّ إقامة الحكم على أساس الشورىٰ يرجع إلى الأكثريّة، وإلّا تعطّلت آية الشورى، ولم يكن لها مدلول عملي.

الثالثة: أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الإسلام والدين من أهمّ الواجبات الإسلاميّة. ولمّا لم تكن هناك طريقة محدّدة، وإطار سياسي عامّ مشخص لهذه الدعوة فيمكن انتهاج كلّ أُسلوب مؤثّر في هذا المجال، ويعطي للمسلمين القوّة والقدرة على تحقيق هذا الهدف، أو القيام بهذا الواجب الإسلامي، وحينئذٍ يمكن طرح أُسلوب التنظيم الحزبي كأفضل طريقة توصّل إليها الإنسان في التحرك السياسي، حيث انها الطريقة المتبعة والمعروفة الآن في المجتمع الإنساني (الحضارة الغربيّة والشرقيّة) والتي أثبتت جدواها وتأثيرها من خلال التجربة، كما أنّ هذه الطريقة هي التي يمكن أن تواجه

١ ـ الشورى، الآية ٣٨.

الأُسلوب الجذاب في المجتمع الإنساني الذي اعتمدته الإيديولوجيات والنظريّات الحديثة الوضعيّة.

الرابعة: أنّ للفقهاء في النظريّة الإسلامية وفي التاريخ الإسلامي دوراً متميّزاً، وذلك في مجال استنباط الأحكام الشرعيّة، وفي القضاء الإسلامي، كما أنّ الأُمّة ارتبطت بالفقهاء عمليّاً وواقعيّاً بحيث أصبحت تقدّسهم وتنقاد لهم. وهذه حقيقة عقائديّة وتاريخيّة لا يمكن تجاهلها في العمل السياسي ولا يمكن التفكيك عمليّاً بين هذا الواقع العقائدي والتحرّك السياسيّ، حتّىٰ لو انتهينا إلى التفكيك بين المرجعيّة في الفتوىٰ والقيادة السياسيّة على المستوىٰ النظري.

وعند التركيب بين هذه المفردات الأربع نجد أنّه يمكن تأسيس الحزب الإسلامي الذي يتبنّىٰ الدعوة إلى الإسلام، وتنظيم جماعة المسلمين، ويدعو إلى إقامة الحكم الإسلامي على أساس الشورىٰ والديمقراطيّة العدديّة ضمن الضوابط الإسلاميّة العامّة. ويكون للفقهاء في هذا الحزب والحكم الإسلامي دور المتخصّصين في القضايا الإسلاميّة النظريّة التي يمكن الرجوع إليهم فيها، شأنهم في ذلك شأن ذوي الاختصاص الآخرين في مختلف القضايا العلميّة.

وتتمّ إدارة البلاد من المتخصّصين في الأُمور السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والماليّة... تحت إشراف الفقهاء الذين لابدّ لهم من أن يمارسوا تخصّصهم من أجل ضمان سلامة المسيرة الإسلاميّة في هذه المجالات، من دون أن يكون لهم دور خاصّ لما هم فقهاء في القيادة والإدارة الإسلاميّة على المستوىٰ النظري.

ولكن من الناحية العمليّة والواقعيّة يمكن الاستفادة من الطاقات الهائلة التي يملكها المراجع والحوزة العلميّة، والإمكانات الكبيرة في التبليغ والتوعية، وعلاقة التقديس من الأُمة لهولاء الفقهاء، ويتم ذلك عن طريق تحويل الواجهة القياديّة في الأُمة إلى العلماء، وعن طريق المزاوجة والتلفيق بين التنظيم الخاص والجماعة الواعية في الحوزة والمرجعيّة الرشيدة، بحيث يتحوّل الحزب

إلى قيادة واقعيّة تنظّم حركة الأُمّة، والمرجعيّة إلى قيادة واجهيّة تمنح الفكر الإسلامي الأصيل، والقدسيّة للتحرّك الإسلامي في أوساط الأمّة، كما أنّها توظّف أكبر الطاقات لخدمة هذا العمل الإسلامي.

وهذه النتائج التي توصل إليها آية الله العظمىٰ الشهيد الصدر تعني بطبيعة الحال مشروعيّة العمل الحزبي من اختيار الأُمّة له، بدلالة آية الشورىٰ، بحيث تكون الأُمّة لها القيمومة والنظارة، والاختيار بشأن العمل الحزبي من ناحية.

كما أنّه يمكن لها أن تختار تعدّد الاحزاب والتشكيلات السياسيّة، أو اختيار أيّ منهج آخر للعمل تراه مناسباً لحركتها وتطلّعاتها وأهدافها، حيث إنّ هذا التصوّر للنظريّة يعني أنّ الشارع المقدس لم يعيّن أُسلوب العمل السياسي ومنهجه، وإنّما تركه للإنسان. ويفترض أنّ منهج العمل الحزبي هو أفضل أُسلوب توصّل إليه الإنسان في العصر الحديث، فعندما يتوصّل الإنسان في ضمن ظروف معيّنة، أو من خلال دراسة التاريخ الإنساني إلى أُسلوب ومنهج أفضل فلابدّ من أن يكون ذلك المنهج هو المختار...

وفي تطوّر آخر أصاب الشهيد الصدر الشكّ في دلالة آية الشورىٰ على الحكم الإسلامي من خلال شبهة كنت قد أثرتها حول آية الشورىٰ في بداية تكوّن النظريّة، ولكنّه أجاب عنها ثم بدا له صحّتها بعد ذلك. وقد دوّن هذه الملاحظات ضمن مجموعة من المراسلات [١].

١ ـ يذكر سماحة السيّد الحكيم هذا المقطع من تلك المراسلات ويعود تاريخه الى محرم ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م تقول الرسالة:

(وقعت منذ أسبوعين أو قريب من ذلك مشكلة وذلك أثناء مراجعتي أسس الأحكام الشرعيّة وبعدها. وحاصل المشكلة التوقّف في آية (وأمرهم شورىٰ بينهم) التي هي أهمّ تلك الأُسس، وبدونها لايمكن العمل في سبيل تلك الأُسس مطلقاً، كما كنت أكرّر ذلك في النجف مراراً. ومنشأ التوقّف وجهان أو وجوه أهمّها أنّي لم استطع أن أجيب على الاعتراض الذي اعترضته أنت على الاستدلال بالآية، وإن كنت أجبت عنه في حينه، ولكنّ الجواب يبدو لي الآن خطأً.

وإذا تمّ الإشكال فإنّ الموقف الشرعي لنا سوف يتغيّر بصورة أساسيّة، وإنّ لحظات ←

وهذا الشكّ في دلالة آية الشورىٰ انتهىٰ به إلى الشك في صحّة العمل الحزبي، الذي لا معنىٰ له ـ في نظر الشهيد الصدر آنذاك ـ إلّا إذا كان يتضمّن الدعوة إلى قيام الحكم الإسلامي، فإذا لم تكن النظريّة حول قيام الحكم الإسلامي واضحة فكيف يمكن إيجاد تنظيم يسعىٰ إلى هذا الهدف دون أن يكون الهدف نفسه واضح المعالم.

وعلى هذا الأساس انسحب الشهيد الصدر من تنظيم حزب الدعوة الإسلاميّة، بعد أن كان يمارس فيه دور القيادة الفكريّة.

ولكنّه كان في الوقت نفسه يشعر بضرورة العمل السياسي الإسلامي، ولذا بقي يؤيد التحرك السياسي الخاص بمستوى من المستويات، وسمح للحزب أن يستند في شرعيّته إلىٰ فتوىٰ بعض الفقهاء أمثال الشيخ مرتضىٰ آل ياسين أو غيره.

كما أنّه نقل جهوده بشكل عام إلى العمل المرجعي من خلال مرجعيّة الإمام الحكيم، ومن خلال التوجه الأساس لبناء الحوزة العلميّة الواعية، وتربية الطلبة والمبلّغين، وتنظيم هذه الحوزة الذي تجسّد أحد مفرداته بتبنّي (مدرسة العلوم الإسلاميّة) في النجف الأشرف.

وبعد فترة من الزمن توصّل الشهيد الصدر إلى توثيق التوقيع المعروف عن الإمام الحجّة ـ عجّل الله فرجه الشريف ـ (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا فإنّهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله) من خلال نظريّة التعويض الرجاليّة.

ــــ تمرّ عليّ في هذه الأثناء وأنا أشعر بمدىٰ ضرورة ظهور الفرج وقيام المهدي المنتظر صلوات الله عليه، ولازلت أتوسّل إلى الله ـ تعالى ـ أن يعرّفني على حقيقة الموضوع، ويوفّقني إلى حلّ الإشكال، ولكنّي من جهة أخرىٰ أخشى وأخاف كلّ الخوف من أن تكون رغبتي النفسيّة في دفع الإشكال وتصحيح مدّعياتنا الأوّليّة هي التي تدفعني إلى محاولة ذلك.

وعلى أيّ حال فإنّ حالتي النفسيّة لأجل هذا مضطربة وقلقة غاية القلق. وما الاعتصام الّا بالله...) قضايا اسلامية العدد الثالث ص ٢٥٦.

كما أنّه استفاد من التوقيع المذكور للدلالة على ولاية الفقيه، بعد أن كان الفقهاء يستفيدون منه للدلالة على صحّة وجواز تقليد المجتهد في الفتاوى الشرعيّة فقط، حيث كانوا يفسّرون الرجوع فيه بخصوص الرجوع إليهم بالفتوى. وأمّا الشهيد فيفهم منه الرجوع إليهم في قضايا الولاية أيضاً بقرينة (الحوادث الواقعة) وكان الالتزام بولاية الفقيه فقهيّاً يمثّل تطوّراً نوعيّاً في النظريّة السياسيّة للشهيد الصدر...»[١]

ولاية الفقيه:

وكما تقدّم قبل قليل فإنّ الإمام الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) توصّل إلى تصحيح التوقيع الشريف وعلى ضوءه قال بولاية الفقيه، ومن أهمّ الوثائق لإثبات ذلك:

أوّلاً: ما ذكره ﷺ في بحث الاجتهاد من كتاب (الفتاوى الواضحة). و نصّه: «المجتهد المطلق إذا توافرت فيه سائر الشروط الشرعيّة في مرجع التقليد ـ المتقدّمة في الفقرة ٤ ـ جاز للمكلّف أن يقلّده كما تقدّم، وكانت له الولاية الشرعيّة العامّة في شؤون المسلمين شريطة أن يكون كفوءاً لذلك من الناحية الدينيّة والواقعيّة معاً».

وما ذكره أيضاً في نفس المصدر من قوله ﷺ «وإذا أمر الحاكم الشرعي بشيء تقديراً منه للمصلحة العامّة وجب اتباعه على جميع المسلمين، ولا يعذر في مخالفته حتّى من يرى أنّ تلك المصلحة لا أهميّة لها».

وثانياً: ما ذكره ﷺ في تعليقته على كتاب (منهاج الصالحين) [٢] ونصّه:

١ ـ قضايا اسلامية العدد الثالث ص ٢٤٨ ـ ٢٥٣.

٢ ـ الجزء الاول، الطبعة الثانية، دار التعارف، الصفحة ١١.

«... وأمّا إذا كان الحكم على أساس ممارسة المجتهد لولايته العامّة في شؤون المسلمين فلايجوز نقضه حتّى مع العلم بالمخالفة، ولايجوز للعالم بالخطأ أن يجري على وفق علمه».

وثالثاً: الاستفتاء الذي بين أيدينا الآن فهو يعبّر بوضوح عن اقتناعه بالولاية العامّة للفقيه الجامع للشرائط، ولكنّه غير مشتمل ـ مع الأسف ـ على تاريخ الصدور.

ونصّه كما يلي:

«بسمه تعالى

سيّدنا المفدّىٰ. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته

١ ـ من هو أوّل فقيه مارس الولاية العامّة زمن الغيبة الكبرىٰ؟

٢ ـ هل هناك روايات أخرىٰ غير التوقيع الوارد من الإمام المهدي تستدلّون بها على ولاية الفقيه ما هي؟ وهل تستدلّون على الولاية العامّة للفقيه بأدلّة أُخرىٰ. ماهي؟

ابراهيم

بسمه تعالى

جـ ١:الممارسة الكاملة الشاملة للولاية العامّة في زمن الغيبة لم تتأتّ لأحدٍ من الفقهاء، كما أنّها لم تتح لأكثر الأئمة أنفسهم عليهم السلام وأمّا الممارسة في حدود ما يقع من قضايا وارتباطات وحاجات للقواعد الشعبيّة للأئمة من الشيعة المؤمنين بإمامتهم فقد عاشها كلّ الفقهاء منذ بداية عصر الغيبة. وأمّا تجسيد هذه الولاية العامّة في صيغة اجتماعيّة للمرجعيّة الدينيّة العامّة علىٰ نحو تشكّل محوراً دينيّاً له وكلاء في الأقطار المختلفة فمن المظنون أنّ بداية ذلك كانت على يد الشهيد الأوّل من علماء الاماميّة.

جـ ٢:هناك روايات أُخرىٰ عديدة غير أنّ ما نعتمد عليه هو التوقيع خاصّة في إثبات الولاية العامّة.

محمّد باقر الصدر» [١]

وهكذا يتبيّن أنّ الإمام الشهيد الصدر يؤمن بمبدأ ولاية الفقيه العامّة، وبنفس الوقت يرىٰ أنّ علىٰ الفقيه «أن ينتقي من آراء المجتهدين الذين يمثّلون الإسلام والشريعة بحق ما هو أقرب إلى روح الإسلام ومصالح الأُمّة وأكثر انسجاماً مع ظروف توعيتها ونهضتها» [٢] ويبتعد بذلك عن النزعة الفرديّة والاستئثار بالمنصب الفقهي والشرعي.

المزج بين الولاية العامّة والشورىٰ:

والتطوّر الآخر في مسألة الحكم هو ما ذهب إليه في سلسلة الإسلام يقود الحياة (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) حيث فصّل بين الولاية العامّة للفقيه قبل قيام الحكومة الإسلاميّة وما بعد قيامها، ففي الفرض الأوّل يرىٰ أنّ للفقيه الولاية العامّة، وفي الفرض الثاني أعطىٰ للفقيه دوره ومسؤوليّته كشهيد مع الاحتفاظ بحقّ الولاية كلّما دعت الحاجة إلى استعمالها، وأعطىٰ للأُمّة حقها في ممارسة دور الاستخلاف وممارسة الحكم، وتوضيح ذلك كما يلي:

يرىٰ السيّد الشهيد الصدر أنّ الأساس الإسلامي لخطي (الخلافة) و(الشهادة) يستند إلىٰ طائفتين من الآيات القرآنيّة. فخطّ الخلافة أساسه الآيات الكريمة التي منها قوله تعالى «وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٧٢).

٢ ـ راجع الوثيقة رقم (٧٠) وقد مضى ذكر مقاطع عديدة منها.

لكَ قال إنّي أعلم ما لاتعلمون ﴿ وعلّم آدم الأسماءَ كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴿ قالوا سبحانك لاعلم لنا إلّا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلمُ غيبَ السمٰوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» سورة البقرة الآية ٣٠، وكذلك الآية ٦٩ من الأعراف، والاية ٣٩ من فاطر، والآية ٢٦ من سورة ص، والآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

كما أنّ خطّ الشهادة يقوم على أساس مجموعة من الآيات الكريمة التي منها قوله تعالى:

«فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد وجئنا بكَ على هولاء شهيدا» سورة النساء الآية ٤١، وكذلك الآية ١٤٣ من سورة البقرة، والآية ١١٧ من سورة المائدة، والآية ٨٩ من سورة النحل وغير ذلك من الآيات.

وحين يتحدّث عن استخلاف آدم ﷺ يرىٰ أنّ ذلك ليس استخلافاً لشخص آدم ﷺ بل للجنس البشري كلّه لأنّ من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ـ وفقاً لمخاوف الملائكة ـ ليس آدم بالذات بل الآدميّة والإنسانيّة على امتدادها التاريخي.

ويرىٰ أنّ عمليّة الاستخلاف على الأرض تعني استخلاف الإنسان على كلّ ما للمستخلف سبحانه وتعالى من أشياء تعود إليه، والله هو رب الأرض وخيرات الأرض ورب الإنسان والحيوان وكل دابة تنتشر في أرجاء الكون الفسيح وهذا يعني أنّ خليفة الله في الأرض مستخلف على كلّ هذه الأشياء، ومن هنا كانت الخلافة في القرآن أساساً للحكم، وكان الحكم بين الناس متفرّعاً على جعل الخلافة.

وعمليّة الاستخلاف على الأرض تعني كذلك:

أوّلاً ـ انتماء الجماعة البشريّة إلى محور واحد وهو الله تعالى السيّد والمالك للكون وما فيه، ورفض كلّ سيادة لغيره.

ثانياً ـ إقامة العلاقات الاجتماعيّة على أساس العبوديّة المخلصة لله تعالىٰ

وثالثاً ـ تجسيد روح الأُخوّة العامّة في كلّ العلاقات الاجتماعيّة على أساس أنّ الله تعالى واحد ولاسيادة إلّا له، والناس جميعاً عباده ولذا فهم متساوون بالنسبة إليه، ولاتفاضل بينهم إلّا على أساس العمل الصالح.

ورابعاً ـ إنّ الخلافة استئمان، والأمانة تفترض المسؤوليّه والإحساس بالواجب، إذ بدون إدراك الكائن أنّه مسؤول لايمكن أن ينهض بأعباء الأمانة أو يُختار لممارسة دور الخلافة.

أمّا خطّ الشهادة فيعني التدخل الرّباني من أجل صيانة الإنسان الخليفة من الانحراف وتوجيهه نحو أهداف الخلافة الرشيدة.

ويصنّف السيّد الشهيد الصدر ﷺ الشهداء استناداً إلى قوله تعالى «إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء»[1] إلى ثلاثة أصناف وهم أوّلاً النبيّون، وثانياً الرّبانيّون الذين هم الأئمة ﷺ، وثالثاً المرجعيّة الدينيّة التي تعتبر امتداداً رشيداً للنبي والإمام.

ويلخّص دور الشهادة بعناصرها الثلاثة. أوّلاً: باستيعاب الرسالة والحفاظ عليها (بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء). وثانياً: بالإشراف على ممارسة الإنسان لدوره في الخلافة. وثالثاً: بالتدخّل لمقاومة الانحراف واتخاذ كلّ التدابير من أجل سلامة المسيرة. وعلى هذا الأساس يعتبر أنّ الشهيد (مرجع

١ ـ المائدة، الآية ٤٤.

فكري وتشريعي من الناحية الايديولوجيّة، ويشرف على سير الجماعة وانسجامه إيديولوجيّاً مع الرسالة الربانيّة التي يحملها، ومسؤول عن التدخّل لتعديل المسيرة أو إعادتها إلى طريقها الصحيح إذا واجه انحرافاً في مجال التطبيق).

ثم يستخلص من آيات الشهادة في القران الكريم الشروط التي يجب توفّرها في الشهيد بما يلي:

أوّلاً: العدالة، التي هي الوسطيّة والاعتدال في السلوك.

ثانياً: العلم واستيعاب الرسالة.

ثالثاً: الوعي على الواقع القائم.

رابعاً: الكفاءة والجدارة النفسيّة التي ترتبط بالحكمة والتعقل والصبر والشجاعة.

اما الفوارق الرئيسية بين الأصناف الثلاثة فهي:

أوّلاً ـ ان النبي يُختار من قبل الله عزّ وجلّ، والمعصوم مستودع للرسالة من قبل الله، أمّا المرجع فهو مقام يُكتسب بالعمل الجادّ المخلص لله تعالى من خلال ما يبذله شخص المرجع من جهدٍ ومعاناة واستيعاب للإسلام ومصادره، مع ورع عميق يروّض نفسه عليه ليصبح قوة تتحكّم في كلّ وجوده وسلوكه، بالإضافة إلى الوعي للواقع.

ثانياً ـ أنّ المرجع معيّن تعييناً نوعيّاً، أي أنّ المرجعيّة كخط قرار إلٰهيّ، والمرجعيّة كتجسيد في فرد معين قرار من الأُمّة.

ثالثاً ـ أنّ ارتباط الفرد بالنبي وأخذ الأحكام عنه يجعل منه مسلما للنبي، وارتباطه بالامام على هذا النحو يجعل منه مؤمنا بالإمام، وارتباطه بالمرجع يجعل منه مقلّداً للمرجع.

رابعاً ـ أنّ النبي والإمام يجب أن يكونا معصومين والمعصوم هو من يكون

مجسّداً للرسالة بقيمها وأحكامها، وغير ممارس لابعمد ولا بجهالة أو خطأ أي ممارسة جاهليّة. وأمّا المرجعيّة فهي عهد ربّاني إلى الخطّ كمواصفات لا إلى الشخص، ومن هذه المواصفات العدالة بدرجة عالية تقرب من العصمة، والعدالة هي الوسطية والاعتدال في السلوك.

هذه هي المعالم العامّة للخطين الربانيين خطّ الخلافة وخطّ الشهادة، وهذان الخطّان يندمجان في بعض مراحلهما ويتجسّدان في محور واحد يمثّل الخلافة والشهادة معاً وهو ما أوضحه في موضوع (مسار الخلافة الربّانيّة على الأرض) إذ أشار إلى قضيّة إعداد آدم عليه السلام للاستخلاف ودور الحضانة التي مرّ بها والتجربة التي عاشها مع الشجرة التي منع من الأكل منها وما يترتّب من آثار على الطاعة والمعصية ومنها هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، ثم اجتباءه واستخلافه في الأرض.

ثمّ يتحدّث عن مرحلة الفطرة من الخلافة ويرىٰ أنّ الجماعة البشريّة بدأت خلافتها على الأرض بوصفها أمّة واحدة ﴿وما كان الناس إلّا أُمّة واحدة فاختلفوا﴾[1] و﴿كان الناس أُمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾[2] وكان أساس البناء كلّه الإيمان بالله الواحد ورفض كلّ ألوان الشرك والطاغوت ووحدة الهدف والمصلحة والمسير. فكان الإنسان يمارس خطّ الخلافة، وكان خط الشهادة قائماً إلى جانب خطّ الخلافة كشهيد ورقيب وهادي.

ثم جاء دور الاختلاف ووقوع الاستغلال والتناقض في المصالح والتنافس

١ ـ يونس، الآية ١٩.
٢ ـ البقرة، الآية ٢١٣.

على السيطرة والتملك. واستعرض (رضوان الله عليه) أسباب وقوع الاختلاف، وعلى أساسه بدأت مرحلة ثورة الأنبياء لإعادة مجتمع التوحيد، هذه الثورة التي قامت على أساس استئصال المشاعر التي خلقتها ظروف الاستغلال واعتماد مشاعر تمثّل الإحساس بالقيم الموضوعيّة للعدل والحقّ والقسط والإيمان بعبوديّة الإنسان لله التي تحرّره من كلّ عبوديّة مع تربية للمحتوىٰ الداخلي للثائرين وإعداد روحي ونفسي عن طريق الوحي لأنّه القادر علىٰ أن يؤمّن التربية الثوريّة، والخلقيّة النفسيّة الصالحة التي تنشأ ثائرين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً.

ومن هنا دعا الأنبياء إلى جهادين: أحدهما: الجهاد الأكبر من أجل أن يكون المستضعفون أئمّة وينتصروا على شهواتهم، والآخر: الجهاد الأصغر من أجل إزالة المستغلين والظالمين عن مواقعهم.

ويرىٰ أنّ النبوّة ظاهرة ربانيّة تمثّل رسالة ثوريّة وعملاً تغييريّاً، وإعداداً ربّانيّاً للجماعة لكي تستأنف دورها الصالح.

وهنا يتسلّم النبي الخلافة العامّة ليحقّق للثورة أهدافها من ناحية وليبني القاعدة الثوريّة الصالحة لكي يمنّ الله عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين من ناحية أُخرىٰ فيندمج خطّ الشهادة وخط الخلافة في شخص النبي في هذه الحالة.

ويرىٰ أن في كلّ حالة يقدر للخطين أن يجتمعا في شخص واحد لابدّ من اشتراط العصمة في هذا المحور لأنّه سوف يكون هو الشهيد وهو المشهود عليه في وقت واحد.

ولكن هل يعني ذلك سلب الجماعة البشريّة دور الاستخلاف؟ ويجيب بأنّ خلافة الجماعة البشريّة ثابتة من الناحية المبدئيّة النظريّة، وإن كانت غير موجودة من الناحية الفعليّة لأنّ النبي المعصوم هو الذي يمارس هذا الدور، وهو المسؤول عن الارتقاء بالجماعة إلى دور الاستخلاف، ومع ذلك نجد أنّ الله سبحانه وتعالى

أوجب على النبي أن يشاور الجماعة ويشعرهم بمسؤوليّتهم في الخلافة. واعتبر (رضوان الله عليه) الحرص على البيعة للأنبياء وللرسول ﷺ وأوصيائه تأكيداً من الرسول على شخصيّة الأُمّة وإشعار لها بخلافتها العامّة، وبأنّها بالبيعة تحدّد مصيرها. ونجد مدىٰ إصرار الرسول على إشراك الأُمّة في أعباء الحكم ومسؤوليّات خلافة الله في الأرض حتّىٰ أنّه في جملة من الأحيان كان يأخذ بوجهة النظر الأكثر أنصاراً مع اقتناعه شخصيّاً بعدم صلاحيتها وذلك لسبب واحد وهو أن يُشعر الجماعة بدورها الإيجابي في التجربة والبناء.

ثم يتحدّث عن الوصاية على الثورة ممثلة في الإمام المعصوم، إذ يُفترض أن يمتدّ دور النبي في قائد رباني يمارس دوري الخلافة والشهادة معاً فالإمام كالنبي شهيد وخليفة لله في الأرض من أجل أن يواصل الحفاظ على الثورة وتحقيق أهدافها، وهو المؤتمن على الرسالة والثورة التي جاء بها الرسول، مؤكّداً على أنّ الإمامة ظاهرة ربانيّة ثابتة اتخذت شكلين: الشكل الأوّل: شكل النبوّة التابعة لرسالة النبي القائد، وهؤلاء أنبياء يوحىٰ إليهم، وهم أئمة بمعنىٰ أنّهم أوصياء على الرسالة وليسوا أصحاب رسالة. والشكل الآخر: هو الوصاية بدون نبوّة، وهذا الشكل الذي اتخذه رسول الله ﷺ بأمر من الله تعالى فعيّن أوصياءه الاثني عشر، ونصّ علىٰ وصيّه المباشر بعده علي بن أبي طالب عليه السلام.

وفي القسم الأخير من بحثه الرائع (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) وهو البحث المهم هنا يتحدّث عن المرجعيّة بوصفها المرحلة الثالثة من خطّ الشهادة وأشار فيه الى عدم تمكّن الأئمة من ممارسة دورهم المتمثل في الجمع بين دوري الخلافة والشهادة. وقد فرض هذا الواقع المرير ضمن تفصيلات لايتسع لها هذا البحث أن يقرّر الإمام الثاني عشر بأمر من الله تعالى التواري عن الانظار انتظاراً للحظة المناسبة التي تتهيّأ فيها الظروف الموضوعيّة للظهور وإنشاء مجتمع التوحيد

في العالم كلّه.

وتميّز في هذه المرحلة خطّ الشهادة عن خط الخلافة بعد أن كانا مندمجين في شخص النبي أو الإمام، وذلك لأنّ هذا الاندماج لا يصحّ إسلاميّاً إلّا في حالة وجود فرد المعصوم قادر على أن يمارس الخطين معاً، وحين تخلو الساحة من فرد معصوم فلا يمكن حصر الخطين في فرد واحد.

ويؤكّد على أنّ خطّ الشهادة يتحمّل مسؤوليّته المرجع علىٰ أساس أن المرجعيّة امتداد للنبوّة والإمامة علىٰ هذا الخط.

ولكن هل يمكن أن يجتمع الخطان في المرجع الشهيد؟ ويجيب (رضوان الله عليه) بانه ما دامت الأُمة محكومة للطاغوت ومقصيّة عن حقّها في الخلافة العامّة فهذا الخط يمارسه المرجع ويندمج الخطان حينئذٍ ـ الخلافة والشهادة ـ في شخص المرجع. وأما إذا حرّرت الأُمة نفسها فخطّ الخلافة ينتقل إليها، فهي التي تمارس القيادة السياسيّة والاجتماعيّة في الأُمّة بتطبيق أحكام الله وعلى أساس الركائز المتقدّمة للاستخلاف الرباني.

ويستند (رضوان الله عليه) في إعطاء الأُمّة هذا الحقّ في الإطار التشريعي إلىٰ القاعدتين القرآنيتين التاليتين:

«وأمرهم شورىٰ بينهم»[1]

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...»[2].

فإنّ النصّ الأوّل يعطي للأُمّة صلاحيّة ممارسة أُمورها عن طريق الشورىٰ

١ ـ الشورى، الآية ٣٨.
٢ ـ التوبة، الآية ٧١.

ما لم يرد نصّ خاصّ على خلاف ذلك، والنصّ الثاني يتحدّث عن الولاية، وأنّ كلّ مؤمن وليّ الآخرين. ويريد بالولاية تولي أُموره بقرينة تفريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه.

والنصّ ظاهر في سريان الولاية بين كلّ المؤمنين والمؤمنات بصورة متساوية.

وينتج عن ذلك الأخذ بمبدأ الشورىٰ وبرأي الأكثريّة عند الاختلاف.

وهكذا وزّع الإسلام في عصر الغيبة مسؤوليّات الخطّين بين المرجع والأُمّة، بين الاجتهاد الشرعي والشورىٰ الزمنيّة، فلم يشأ أن تمارس الأُمّة خلافتها بدون شهيد يضمن عدم انحرافها ويشرف على سلامة المسيرة ويحدّد لها معالم الطريق من الناحية الإسلاميّة، ولم يشأ من الناحية الأُخرىٰ أن يحصر الخطين معاً في فرد ما لم يكن هذا الفرد مطلقاً أي معصوماً.

وبالإمكان أن نستخلص من ذلك أنّ الإسلام يتّجه إلى توفير جوّ العصمة بالقدر الممكن دائماً، وحيث لا يوجد على الساحة فرد معصوم ـ بل مرجع شهيد ـ ولا أُمّة قد أنجزت ثوريّاً بصورة كاملة وأصبحت معصومة في رؤيتها النوعيّة ـ بل أُمّة لا تزال في أوّل الطريق ـ فلابدّ أن تشترك المرجعيّة والأُمّة في ممارسة الدور الاجتماعي الرباني بتوزيع خطي الخلافة والشهادة وفقاً لما تقدم.

ومن الضروري ان يلاحظ ان المرجع ليس شهيداً على الأُمّة فقط، بل هو جزء منها أيضاً، وهو عادة من أوعىٰ أفراد الأُمّة وأكثرها عطاءاً ونزاهة. وعلى هذا الأساس وبوصفه جزءاً من الأُمّة يحتلّ موقعاً من الخلافة العامّة للإنسان على الأرض، وله رأيه في المشاكل الزمنيّة لهذه الخلافة وأوضاعها السياسيّة بقدر ما له من وجود في الأُمّة وامتداد اجتماعي وسياسي في صفوفها.

وهكذا نعرف أنّ دور المرجع كشهيد على الأُمّة دور ربّاني لا يمكن التخلّي

عنه، ودوره في إطار الخلافة العامّة للإنسان على الأرض دور بشري اجتماعي يستمدّ قيمته وعمقه من مدىٰ وجود الشخص في الأُمّة وثقتها بقيادته الاجتماعيّة والسياسيّة[١].

وهذا البحث كان قد كتبه عام ١٩٧٩م الموافق ١٥ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ ومن المظنون أنّه يمثّل الرأي الأخير له في مسألة شكل نظام الحكم في الإسلام، ولمن يريد المزيد فعليه مراجعة كتابه الآخر (لمحة فقهيّة تمهيديّة عن مشروع دستور الجمهوريّة الاسلاميّة في إيران) فقد تناول الموضوع بوضوح وشفافيّة تامّة.

هذا باختصار أهمّ ما يتعلّق بموضوع إقامة حكومة إسلاميّة في عصر الغيبة وشكلها، ودور الفقيه والأُمّة فيها.

١ ـ خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء للإمام الشهيد الصدر، إمّا نصاً أو تلخيصاً.

القيمومة على العمل الإسلامي

ثانياً: رؤيته عن قيادة العمل الإسلامي والقيمومة عليه.

وكان السيّد الشهيد الصدر يعتقد أنّ القيمومة على العمل الإسلامي يجب أن تكون للمرجعيّة الواعية العارفة بالظروف و الأوضاع، المتحسّسة لهموم الأُمّة وآمالها وطموحاتها.

ولو تركنا جانباً ما كنا نسمعه من السيّد الشهيد الصدر حول هذا الموضوع فإنّ ما كتبه بقلمه الشريف في مناسبات متعدّدة ومنها أُطروحته عن (المرجعيّة الموضوعيّة الصالحة) وكذلك البيانات التي أصدرها بمناسبة انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران وغير ذلك يكفينا بما لايدع مجالاً للشكّ لإثبات هذا الموقف.

ففي بحث المرجعيّة الصالحة كتب تحت عنوان (أهداف المرجعيّة الصالحة) أنّ من أهداف المرجعيّة الصالحة:

«القيمومة على العمل الإسلامي، والإشراف على ما يعطيه العاملون في سبيل الإسلام وفي مختلف أنحاء العالم الإسلامي من مفاهيم، وتأييد ما هو حقّ منها وإسناده وتصحيح ما هو خطأ...»

ومن هذا النصّ نستكشف أنّ دور الفقيه لايقتصر علىٰ تحديد وتبيين الحكم الشرعي فقط بل يتعدّاه إلى إعطاء المفاهيم التي يقدّمها العاملون للعالم الإسلامي والتي تعني المواقف السياسيّة وغيرها. إضافة إلى ملء مناطق الفراغ التي لايوجد موقف شرعي محدّد يعطي رؤية واضحة عنها، والتي قد يؤدي عدم الوضوح فيها إلى مخالفة شرعيّة أو انحراف عن الأحكام الشرعيّة الأوّليّة، أو لأنّها تسبب أضراراً كبيرة للإسلام ومصالح المسلمين ومن هنا يأتي دور الفقيه لإسناد

الصحيح منها وتأييده وتصحيح الخاطئ وتعديله، إضافة إلى تشخيص الموضوعات في بعض الأحيان فيما تقتضيه الحاجة.

وفي نفس البحث كتب أيضاً:

«إعطاء مراكز العالميّة من المرجع إلى أدنىٰ مراتب العلماء الصفة القياديّة للأُمّة بتبنّي مصالحها والاهتمام بقضايا الناس ورعايتها، واحتضان العاملين في سبيل الإسلام...».

وفي البيان الذي وجّهه إلى الشعب الإيراني أكّد علىٰ هذه الحقيقة فقال:

«ومن تلك الحقائق الثابتة: أنّ الشعب الإيراني كان يحقّق نجاحه في نضاله بقدر التحامه مع قيادته الروحيّة ومرجعيّته الدينيّة الرشيدة التحاماً كاملاً...

وما من مرّة غفل فيها هذا الشعب المجاهد عن هذه الحقيقة، أو استُغفل بشأنها إلّا وواجه الضياع والتآمر. فالمرجعيّة الدينيّة الرشيدة والقيادة الروحيّة هي الحصن الواقي من كثير من ألوان الضياع والانحراف...».

وسيأتي قريباً بعض التفاصيل التي تتعلّق بهذا الموضوع. إن شاء الله.

رأيه في العمل الحزبي

ثالثاً: العمل الحزبي المنظّم.

ممّا لاشكّ فيه أنّ الظروف والأوضاع السياسيّة، في العراق تفرض انبثاق عمل سياسي وجهادي منظّم، يعمل لخدمة الإسلام وتثبيت أركانه ونشر أفكاره معتمداً على الأساليب العصريّة التي لاتتعارض مع الإسلام.

والعمل الحزبي أو التنظيمي ـ بمفهومه الإسلامي ـ من الأساليب الفعّالة التي تضمن اختزال الزمن، وتسارع الخطىٰ نحو الهدف الكبير المتمثّل بإقامة حكومة الإسلام الرشيدة، فمن خلاله تتوحّد المواقف تجاه مختلف الأُمور بين الجماعة المنظّمة مما يسهل الكثير من الصعاب، ويحد من كثير من المشاكل.

وعلى هذا الأساس كان الإمام الشهيد الصدر لايرىٰ بأساً بنهج هذا الأُسلوب على أن يكون الحزب، أو الأحزاب ـ في فرض تعدّدها ـ تحت قيمومة المرجعيّة، وأذرعاً لها، لا كياناً قياديّاً مستقلاً، وهذه الفكرة تبدو واضحة من خلال التدقيق في أُطروحة (المرجعيّة الصالحة).

وعن هذه الرؤية كتب سماحة السيّد محمد باقر الحكيم أن :

«العلاقة بين القيادة (المرجعيّة) والحركة الإسلاميّة (التنظيم الخاصّ) هي علاقة قيمومة من القيادة علىٰ الحركة الإسلاميّة مع إسناد ودعم لها، ضمن الدعم والإسناد لمجمل العمل الإسلامي في الساحة.

والحركة الإسلاميّة تمثّل مفردة في الساحة الإسلاميّة، شأنها شأن بقيّة المفردات المؤثّرة والمتحرّكة في الأُمّة التي لابدّ لهذه القيادة من أن تمارس تجاهها هذا الدور غاية الأمر أنّ هذه المفردة لها دور خاصّ وهو دور الكادر

الوسطي الذي له خبرة نسبيّة وتجربة. فهي حالة متطوّرة في حركة عموم الأُمّة باتجاه الإسلام وأهدافه وإقامة الحكم الإسلامي ولابدّ لها من أن تتحرّك ضمن الإطار العام الذي تتحرّك فيه المرجعيّة، وتكون تابعة لها، لتقوم بدور خاصّ أو مهمّة خاصّة حسب متطلّبات الظروف.

كما أنّ الحركة الإسلاميّة (التنظيم الخاصّ) لايجب أن يقتصر على صيغة واحدة تستوعب كلّ الأُمّة أو جلّها، بل يمكن أن تكون ضمن صيغ متعدّدة ومتكثّرة في وجودها وأهدافها المرحليّة أو المحدودة، لتصبّ جميعها في الهدف الأصيل والعامّ الذي تحمل همّه القيادة الإسلاميّة»[١]

تأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة:

للأمانة أقول: إنّني لم أسمع من السيّد الشهيد شيئاً يتعلّق بهذا الموضوع، ولعلّ السبب أنّ الفترة التي عشتها معه ـ وهي مرحلة المرجعيّة الفعليّة ـ قد تجاوزت تلك النشاطات، أو أنّه لم تكن هناك ضرورة تتطلّب ذكر تلك النشاطات، خاصّة أنّ السلطة كانت تحاول اجتثاث المرجعيّة الدينيّة من خلال توجيه الاتّهامات الحزبيّة إليها، فكان من الطبيعي أن يتجنّب (رضوان الله عليه) طرق هذا الموضوع بجذوره التاريخيّة وتفاصيله الدقيقة.

ولكن مع ذلك ـ وفي فترات مختلفة ـ شهدت صوراً من التعاون بين السيّد الشهيد وحزب الدعوة الإسلاميّة، سواء قبل الحجز أو خلاله، وسوف استعرض ذلك في طيّات هذا الموضوع مقتصراً على موقفه منه في تلك المرحلة فقط.

أمّا عن موضوع تأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة فإنّ سماحة آية الله السيّد كاظم الحائري كتب عن ذلك ما يلي:

١ ـ قضايا إسلامية العدد الثالث ص ٢٥٤.

«إنّ الأُستاذ الشهيد ﷺ مرّ بأدوار عديدة في عمله السياسي، والتطوّر المشهود في أساليب عمله يرجع إلى عدّة أسباب:

١ ـ أنّ العمل المتكامل في فترة طويلة نسبيّاً من الزمن بطبيعته يتطلّب المرحليّة والتطوّر والتغيير بمرور الزمن، بمعنى أنّ ما يصحّ من العمل في مرحلة منه قد لا يصحّ في المرحلة المسبقة، والعكس هنا ـ أيضاً ـ صحيح.

٢ ـ أنّ تبدّل العوامل الخارجيّة الذي قد لايكون من أوّل الأمر بالحسبان، يؤثّر ـ لامحالة ـ على طريقة العمل.

٣ ـ أنّ أصل النظريّة في أُسلوب العمل قد تنضج وتتكامل وتتطوّر في ذهن الإنسان بمرور الزمان، ممّا يؤثّر على أُسلوب العمل، ويؤدّي إلى تطويره.

إنّ أُستاذنا الشهيد ﷺ أسّس في أوائل شبابه حزباً إسلاميّاً باسم ـ حزب الدعوة الإسلاميّة ـ وكان هذا في وقته تقدّماً ملحوظاً في الوعي السياسي بالنسبة لمستوى الوعي المتعارف آنئذٍ في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، حتّى أنّ كثيراً من المتديّنين بالتديّن الجاف آنذاك كان يرمي من ينتمي إلى حزب الدعوة الإسلاميّة ـ فضلاً عمّن يؤسّس حزباً إسلاميّاً ـ بالانحراف عن خطّ الإسلام الصحيح، وبالارتباط بالاستعمار الكافر. كلّ من يدّعي ضرورة إقامة الحكم الإسلامي كان يُتّهم بمثل هذه الاتّهامات؛ لأنّ إقامة الحكم الإسلامي لا يكون في نظرهم إلّا بعد ظهور الإمام صاحب الزمان ـ عجل الله فرجه الشريف ـ

أمّا تاريخ تأسيسه ﷺ لهذا الحزب فهو عبارة عن شهر ربيع الأوّل من سنة (١٣٧٧هـ =[١٩٥٧م]) حسب ما قاله الحاج محمّد صالح الأديب ـ حفظه الله ـ وهو يُعدّ أحد أعضاء النواة الأُولى، أو يُعدّ إحدى اللبنات الأوّليّة لبناء صرح الحزب.

وأيضاً قال الحاج محمّد صالح الأديب: إنّ السيّد الشهيد ﷺ خرج من التنظيم بعد تأسيسه إيّاه بحوالي أربع سنين ونصف أو خمس سنين.

وكان قصّة خروجه من التنظيم على ما حدّثنا الحاج الأديب ـ حفظه الله ـ ما يلي:

كثر الكلام من قبل بعض المغرضين لدى المرحوم آية الله العظمى السيّد الحكيم ﷺ على الشهيد الصدر ﷺ بحجّة تأسيسه للحزب، أخيراً جاء (حسين الصافي) وهو رجل بعثي لئيم إلى المرحوم آية الله الحكيم وقال: إنّ السيّد الصدر وآخرين ممّن ذكر أسماءهم، قد أسّسوا حزباً بإسم حزب الدعوة الإسلاميّة، وبهذا سيهدمون الحوزة العلميّة، بدأ يهدّد ويتكلّم ضدّ من أسماهم مؤسّسين للحزب، فنهره آية الله السيّد الحكيم، وقال له: أفأنت أحرص على مصالح الحوزة العلميّة من السيّد الصدر؟ ثمّ أخرجه من بيته بذلّ وهوان، ثمّ أرسل (رضوان الله عليه) أحد أولاده إلى السيّد الصدر ﷺ وقال له عن لسان والده: إنّ دعم كلّ الوجودات الإسلاميّة والأعمال الإسلاميّة هو من شأنك وممّا ينبغي لك أن تقوم به، أمّا أن تحسب على جهة إسلاميّة معيّنة وحزب خاصّ، فهذا لاينبغي لمن هو مثلك في المقام العلمي والاجتماعي الشامخ. والذي يجب أن يكون دعامة لكلّ الأعمال الإسلاميّة من دون التأطّر بإطار خاصّ.

قال السيّد الشهيد ﷺ سأفكّر وأتأمّل في الأمر، وفي اليوم الثاني أرسل ﷺ رسالة مفصّلة إلى حزب الدعوة عن طريق الحاج محمّد صالح الأديب، وكانت خلاصة ما هو مكتوب في الرسالة بعد التأكيد الشديد على ضرورة استمراريّة عمل ـ حزب الدعوة الإسلاميّة ـ والإشادة الكبيرة بذلك: أنّ آية الله الحكيم طلب منّي أن لا أكون في التنظيم، وأنا أفهم أنّ هذا رأي إلزامي له، وعليه فأتوقّف الآن عن الانتماء إلى التنظيم طالباً منكم الاستمرار بجدّ في هذا العمل، وأنا أدعمكم في عملكم الإسلامي المبارك.

انتهى ما أخذته من الحاج محمّد صالح الأديب ـ حفظه الله ـ[1].

وبعد ذلك مضت الأيام والليالي، إلى أن تصدّى السيّد الشهيد ﷺ للمرجعيّة

١ ـ ما زال الكلام لسماحة السيد الحائري حفظه الله.

بالتدريج من بعد وفاة المرحوم آية الله العظمى الحكيم، وطرح أخيراً فكرته عن ضرورة الفصل بين جهاز المرجعيّة الصالحة والتنظيم الحزبي بسبب أنّ المرجعيّة الصالحة هي القيادة الحقيقيّة للأُمّة الإسلاميّة وليس الحزب، وإنّما الحزب يجب عليه أن يكون ذراعاً من أذرع المرجعيّة وتحت أوامرها، والتشابك بين التنظيم الإسلامي والجهاز المرجعي يُربك الأُمور.

وما يدرينا لعلّ الأُستاذ الشهيد﴿ره﴾ كان مؤمناً بهذه الفكرة منذ تأسيسه للحزب، وإن أجّل إبرازها للوقت المناسب، فلم يكن هناك تناقض بين المرحلتين من عمله.

وقد أنشأ﴿ره﴾ في بيته ضمن العشرة الأخيرة من سني عمره المبارك مجلساً أُسبوعياً كان يضم عينة طلابه، وكان يتداول معهم البحث في مختلف الأُمور الاجتماعيّة والقضايا الأساسيّة، وكانت تطرح في هذه الجلسات الكثير من مشاكل المسلمين في شتّى أرجاء العالم، وكان يُبرّر لمن يحضر هذه الجلسات تبني الأُستاذ الشهيد لتلبية حاجات المسلمين في كلّ مكان من البلاد الإسلاميّة وغيرها، وتفكيره الدائب في كلّ ما ينفع الإسلام والمسلمين، وتخطيطه الحكيم للحوزات العلميّة، ولملء الشواغر العلمائيّة في كلّ بلد يوجد فيه تجمّع إسلاميّ، ولإرشاد العاملين ضدّ الكفر والطاغوت في جميع البلدان، وما إلى ذلك.

ولست هنا بصدد سرد الأبحاث التي كانت تدور في تلك الجلسات الأُسبوعيّة إلّا بالمقدار الراجع من تلك الأبحاث إلى ما نحن بصدده من بيان استراتيجيّته﴿ره﴾ في العمل السياسي وهي ثلاث نقاط:

أوّلاً: موقفه من العمل المرحلي المعروف عن حزب الدعوة الإسلاميّة الذي تبنّاه عند تأسيس الحزب.

ثانياً: أُطروحته للمرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة.

ثالثاً: رأيه في مدى صحّة اشتراك الحوزة العلميّة في الأحزاب السياسيّة

الإسلاميّة.

أمّا الأوّل: وهو العمل المرحلي لحزب الدعوة الإسلاميّة الذي تبنّاه (رضوان الله عليه) لدى تأسيسه للحزب. فالمعروف اليوم عن حزب الدعوة هو الإيمان بمراحل أربع للعمل:

١ ـ مرحلة تكوين الحزب وبنائه، والتغيير الفكري للأُمّة.

٢ ـ مرحلة العمل السياسي التي بضمنها جلب نظر الأمّة إلى الأُطروحة الإسلاميّة للحزب، ومواقفه السياسيّة، وتبنّيها لتلك المواقف ودفاعها عنها.

٣ ـ مرحلة استلام الحكم.

٤ ـ مرحلة رعاية مصالح الإسلام والأُمّة الإسلاميّة بعد استلام الحكم.

ولكن الذي نقله الأُستاذ (رضوان الله عليه) في تلك المجالس الأُسبوعيّة لطلّابه هي المراحل الثلاث الأُولى كما هو مثبّت في النشرات الأوّليّة للحزب، ولم يتعرّض للمرحلة الرابعة.

وعلى أيّة حال فقد تناول الأُستاذ ﷺ هذا العمل المرحلي بالبحث، ولم يكن غرضه من ذلك شجب أصل كبرى المرحليّة في العمل، فإنّها من أوّليات العمل الاجتماعي، وقد طبّقها (رضوان الله عليه) فيما كتبه عن عمل المرجعيّة الصالحة، وإنّما الذي بيّنه في بحثه عن ذلك هو النقاش في مصداق معيّن بلحاظ الانتقال من المرحلة الأُولى إلى المرحلة الثانية.

وخلاصة ما قاله بهذا الصدد هو: أنّنا حينما نعيش بلداً ديمقراطيّاً يؤمن باحترام الشعب وآرائه، ولا تجابههم السلطة بالتقتيل والتشريد بلا أيّ حساب وكتاب، يكون بالإمكان افتراض حزب مّا يبدأ عمله بتكوين بنية ذاتيّة بشكل سرّي، ثمّ يبدأ في مرحلة سياسيّة علنيّة، ومحاولة كسب الأمّة إلى جانبه، وجرّها إلى تبنّي تلك المواقف السياسيّة، ولكنّ الواقع في مثل العراق ليس هكذا، ففي أيّ لحظة تحسّ السلطة الظالمة بوجود حزب إسلامي منظّم يعمل وفق هذه المراحل لتحكيم الإسلام تُقتّل وتُشرّد وتسجن وتُعذّب العاملين،

وتخنق العمل في تلك البلاد قبل تماميّة تعاطف الأُمّة معه، وتحرّكها إلى جانبه، فما لم يصادف هناك تحوّل آخر دولي في العالم يقلب الحسابات ليس بإمكان الحزب أن ينتقل من مرحلته الأُولى إلى المرحلة الثانية. قال ﷺ هذا الكلام بحدود سنة ١٣٩٢هـ =[١٩٧٢م]»[١].

ويعتقد سماحة السيّد محمد باقر الحكيم أنّ «تأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة ـ كان ـ في أواخر صيف ١٣٧٨هـ =١٩٥٨م»[٢] وليس في سنة ١٣٧٧هـ=١٩٥٧م كما نقله السيّد الحائري عن الاستاذ الحاج محمد صالح الأديب. ويرىٰ كذلك أنّ سبب خروجه من الحزب «الشك في دلالة آية الشورىٰ ـ الذي ـ انتهىٰ به إلى الشك في صحّة العمل الحزبي الذي لامعنىٰ له ـ في نظر الشهيد الصدر انذاك ـ إلّا إذا كان يتضمّن الدعوة إلى قيام الحكم الإسلامي، فإذا لم تكن النظريّة حول قيام الحكم الإسلامي واضحة فكيف يمكن إيجاد تنظيم يسعىٰ إلى هذا الهدف دون أن يكون الهدف نفسه واضح المعالم؟ وعلى هذا الأساس انسحب الشهيد الصدر من تنظيم حزب الدعوة الإسلاميّة، بعد أن كان يمارس فيه دور القيادة الفكرية».[٣]

ولكنّه ذكر كذلك أنّ خروجه من الحزب اقترن مع «طلب الإمام الحكيم منه الانسحاب من الحزب في الحادثة المعروفة التي اشرت اليها في بعض الكتابات».[٤]

ويلخّص السيّد الحكيم حفظه الله معالم النظريّة السياسيّة لدىٰ الإمام الشهيد

١ ـ مباحث الأصول ج ١ ،ص٨٧ ـ ٩١.
٢ ـ قضايا إسلامية العدد الثالث ص ٢٤٧.
٣ ـ قضايا إسلامية ص ٢٥٢.
٤ ـ قضايا إسلامية ص ٢٥٦.

الصدر فيقول:

«ومن هنا نجد الشهيد الصدر يبدأ بإعادة ترتيب المفردات السياسيّة نظريّاً في الأُمّة، وفي واقع العمل المرجعي، وينتهي بهذا الترتيب إلى النتائج التالية:

١ ـ أُطروحة المرجعيّة الموضوعيّة: وهي الأُطروحة التي يكوّن الشهيد فيها تصوّره عن التركيب الذاتي للقيادة وأجهزتها ودورها في الأُمّة. حيث يرىٰ أنّ المرجعيّة القائمة في المجتمع الإسلامي لها الدور القيادي، وهي مرجعية في الفتوىٰ والأُمور القياديّة المرتبطة بالولاية، وهي وإن كانت من الناحية الواقعيّة والعمليّة تؤدّي هذا الدور إلى حدٍ كبير في حركة الأُمّة وتحفظها من الانحراف، وتقوم بقيادتها في المواقف الهامّة، إلّا أنّ هذه القيادة لابدّ لها ـ من أجل أن تؤدّي دورها بشكل أفضل ويتناسب مع متطلّبات ظروف ما بعد سقوط الدولة الإسلاميّة، وطبيعة تطوّر العلاقات والاتصالات بين أطراف القاعدة الشعبيّة والإسلاميّة لها ـ من أن تتكامل ذاتياً من خلال تحوّلها من الحالة الذاتيّة التي تعتمد فيها علىٰ:

أ ـ المرجع ـ إنساناً ـ له خصوصيّاته العلمّية والأخلاقيّة وأوضاعه وعلاقاته الاجتماعيّة التي تنمو معه طبيعيّاً.

ب ـ جهازه الخاصّ، الذي يتكوّن على وفق الأوضاع، إلى الحالة الموضوعيّة التي تعتمد على المرجعيّة موقعاً في الأُمّة وجهازاً له ديمومته وشموليّته واستمراريّته ومقدّماته المبدئيّة والنظريّة وقدرته القياديّة.

وكان يعتقد أنّ هذا التحوّل يحتاج إلى توفّر شروط موضوعيّة مناسبة وإلىٰ فترة زمنيّة، وإلى سعي متواصل بهذا الاتجاه. وإنّ المرحلة التي تعيشها المرجعيّة الآن وظروفها القائمة تتناسب مع المرجعيّة الذاتيّة أكثر من المرجعيّة الموضوعيّة ما لم تحدث تطوّرات مهمّه في وضع المجتمع والمرجعيّة، وتبقىٰ المرجعيّة الموضوعيّة تمثّل هدفاً لحركة المرجعيّة في طريق التكامل.

٢ ـ المرجعيّة ليست مجرّد المرجع القائد، أو جهازه الخاصّ (الحاشية) بل

المرجعيّة تعني شيئاً أوسع من ذلك فهي إضافة إلى المرجع الذي يمثّل القيادة، وجهازه الخاصّ الذي يمثّل الحاشية، يدخل جهاز الحوزة والوكلاء (العلماء) والمبلّغين وامتداداتها في جهاز المرجعيّة، ولابدّ من أن ترتبط الأُمّة بمجموعها مع المرجعيّة من خلال الاتصال المباشر بهذه المرجعيّة وأجهزتها.

٣ ـ لابدّ من أن يكون الإطار العامّ لتحرّك المرجعيّة (سياسيّاً) هو الإطار العامّ لجهازها الذي يبدأ (ذاتيّاً) ليتحوّل (موضوعيّاً) حسب ما أُشير إليه في النقطة الأُولىٰ، إذا تحقّقت شروطه وظروفه ومقوّماته، ومن هنا لابدّ من تطوير الحوزة العلميّة والوكلاء والمبلّغين... إلى غير ذلك من أجهزة المرجعيّة والاهتمام بالمساجد والحسينيّات والمدراس العلميّة...

٤ ـ إن هذا الإطار السياسي ليس شيئاً جديداً في تاريخ التحرّك السياسي البشري، بل هو امتداد لحركة الأنبياء كلّها ولحركة الأئمة: وأنّ هذا يمثّل النظريّة الإسلاميّة في خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، وإنّ المرجع يمثّل امتداداً للأنبياء والأئمة.

٥ ـ العلاقة بين القيادة (المرجعيّة) والحركة الإسلاميّة (التنظيم الخاصّ) هي علاقة قيمومة من القيادة على الحركة الإسلاميّة مع إسناد ودعم لها، ضمن الدعم والإسناد لمجمل العمل الإسلامي في الساحة...

٦ ـ الأُمّة لها دور الرقابة على حركة المرجعيّة، كما أنّ لها دور انتخاب المرجع من خلال الوسائل الشرعيّة، أي لها دور اختياره مرجعاً لها من خلال اكتشاف الخصائص الموضوعيّة التي تؤهّله للمرجعيّة بالطرق التي ذكرها الفقهاء في رسائلهم العمليّة.

وبهذه الطريقة أصبحت النظريّة السياسيّة لدىٰ الشهيد الصدر واضحة المعالم، حيث أصبح المرجع الولي الفقيه يمثّل (المحور) الأساس في هذا التحرّك والعلاقات السياسيّة، ذلك لأنّه يقوم بقيادة التحرّك من جهة، ويمارس عمليّة الإشراف الفكري والسياسي من جهة أُخرىٰ، ويمثّل محور الولاء

السياسي للأمّة بكلّ قطّاعاتها من جهة ثالثة، وأجهزته هي التي تتحرّك في الأُمّة من خلال النشاطات العامّة والخاصّة فيها.

(النشاطات العامّة: نشاط المساجد والحسينيّات والمدارس...).

(النشاطات الخاصّة: نشاط تربية العلماء والمبلّغين والمتفقّهين والحواريّين والكوادر وبناء التنظيمات الإسلاميّة ذات الأهداف المحدودة أو المرحليّة ـ الجمعيّات والحركات...).

ومن الملاحظ أيضاً في هذا التصوّر النظري للسيّد الشهيد أنّه حاول أن يوفّق بين ولاية الفقيه ونظريّة الشورىٰ من خلال:

ـ انتخاب الأُمّة للفقيه الولي والرقابة العامّة التي تمارسها تجاه الحركة السياسيّة له.

ـ المستشارين الذين لابدّ من أن يرجع إليهم الفقيه في إطار المرجعيّة الذاتيّة، وحتّى المرجعيّة الموضوعيّة.

ـ المؤسّسات المرجعيّة التي لابدّ من أن يتمّ انتخابها أو تأسيسها من قبل المرجع أجهزةً للتحرك في الأُمّة، التي يتمّ بناؤها على أساس الانتخاب الطبيعي أو التشريعي».[١]

علاقته بحزب الدعوة الاسلامية:

بقي موضوع هامّ هو العلاقة بين الشهيد الصدر وحزب الدعوة الإسلاميّة والمراحل التي مرّت بها العلاقة بينهما سلباً وإيجاباً. ومهما كان سبب خروجه من قيادة الحزب وهل هو تغير مبناه الفقهي من الشورىٰ إلى ولاية الفقيه، أو طلب الإمام الحكيم منه ذلك، او لاقترانهما معاً فإنّ المهم أن نشير في نهاية المطاف إلى المراحل في مستوىٰ العلاقة بينهما.

١ ـ قضايا إسلاميّة العدد الثالث النظرية السياسية عند الشهيد الصدر ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥.

أمّا ما أعرفه عن هذا الموضوع فإنّ علاقة الإمام الشهيد الصدر بحزب الدعوة الاسلاميّة ـ بعد انفصاله عنه لم يكن جافياً وإنّما كان موقف الدعم والتأييد والمساندة بالأُسلوب والحدود التي كانت تسمح بها الظروف.

ثم أعقب ذلك فترة من البرود في العلاقة، كان من أسبابها أنّ السيّد الشهيد الصدر طلب من قيادة الحزب إخراج شخص معين من قيادة الحزب لأسباب موضوعيّة، فرفضوا ذلك وأصرّوا على بقاءه، فحدث مايشبه القطيعة بينهما. ولم تمرّ فترة طويلة على ذلك حتّىٰ اضطرّ الحزب إلى إخراج هذا الشخص للأسباب التي ذكرها السيّد الشهيد الصدر ولكن ليس لأمره.

وفي سنة (١٩٧٢م) إثر الهجمة التي تعرّضت لها الحوزة العلميّة في النجف الأشرف والاعتقالات الشاملة التي عمت معظم الطلبة والمؤمنين وكان في طليعتهم سماحة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ خالد أباذر وغيره، أبرز السيّد الشهيد الصدر رأيه في ضرورة الفصل بين المرجعيّة وبين العمل الحزبي. وفي هذا الوقت كتب أُطروحة (المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة).

وفي سنة (١٩٧٤م =١٣٩٤هـ) إثر الاعتقالات الرهيبة التي انتهت بإعدام الشهداء الخمسة[1] وصدور أحكام السجن بحق آخرين أصدر (رضوان الله عليه) فتوى بتحريم الانتماء لأيّ حزب سياسي إسلامي ونصّ الفتوىٰ كما يلي:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

سماحة آية الله العظمىٰ الإمام السيّد محمّد باقر الصدر - دام ظلّه ـ بعد الدعاء لسيّدي بمزيد التأييد والتسديد أرجو التفضّل بالجواب على السؤال

---

١ ـ الشهداء الخمسة هم، الشهيد السيّد عماد التبريزي، والسيّد عز الدين القبانجي، والشيخ عارف البصري، والسيّد حسين جلو خان، والسيّد نوري طعمه رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جنانه.

التالي:

ما هو رأي سماحتكم في موقف الحوزة العلميّة تجاه الأحزاب السياسيّة الدينيّة كحزب الدعوة وغيره فهل يجوز الانتماء إليها أو لا أفتونا مأجورين.

السيّد حسين السيّد محمد هادي الصدر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

لايجوز ذلك لأنّنا لانسمح بشيء من هذا القبيل وقد ذكرنا رأينا هذا مراراً إذ أوضحنا أنّ طالب العلم الديني وظيفته أن يعظ ويرشد ويعلّم الأحكام الشرعيّة بالطريقة الواضحة المألوفة بين العلماء ومن الله نستمدّ الاعتصام وهو وليّ التوفيق.

١٣٩٤هـ =[١٩٧٤م] محمد باقر الصدر».[١]

وقد تكون العلّة الحقيقيّة لإبراز هذه الفتوىٰ ونشرها ليس موقفه من الأحزاب السياسيّة الدينيّة فقط ـ وإن كان يرىٰ ذلك لازماً لمن حوله وفي جهازه المرجعي على أقل تقدير ـ وإنّما يعود لأسباب متعدّدة نذكر منها:

١ ـ أنّ الإندماج والتلاحم بين الحوزة العلميّة والعمل السياسي الحزبي سيؤدّي إلى انعكاس جميع الأخطار السياسيّة التي يتعرّض لها العمل الحزبي على الحوزة العلميّة، فإذا تمّ القضاء على العمل الحزبي من قبل السلطة فسوف يؤدّي ذلك إلى القضاء على الحوزة العلميّة أيضاً.

٢ ـ إنّ من وظيفة الحوزة العلميّة أن تشمل برعايتها جميع قطّاعات الأُمّة الإسلاميّة، والانتماء إلى العمل الحزبي قد يمنع عن مثل هذه الرعاية الشاملة لقطّاعات كبيرة من الأُمّة.

وللتاريخ أقول: لو تُرك السيّد الشهيد الصدر دون ضغوط لما اصدر هذه

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٧٣).

الفتوىٰ ـ وان كان في الواقع يؤمن بمضمونها ـ لأنه كان بامكانه معالجة الامور بشكل آخر، وهو ما فعله قبل صدورها الّا ان ظروفاً قاهرة طرأت اضطرته الى ذلك فقد بلغه ان السلطة مصممة على إنهاء الوجود الحوزوي والمرجعي بكل عنف وقوة وكانت البداية في ايجاد ذريعة، والذريعة ان تطلب منه اصدار فتوىٰ بهذا المضمون وكذلك طلبت من آية الله الشيخ مرتضىٰ آل ياسين و سماحة السيد محمد باقر الحكيم. وكان المتوقع امتناعهم من ذلك وهو ما سيؤدي الى اعدامهم وتشتيت الحوزة والمرجعيّة في نفس الوقت. الّا ان استجابتهم حالت دون ذلك وهو ما صرّح به المجرم ابراهيم خلف مدير أمن النجف انذاك.

وفي الفترة الاخيرة من عمره الشريف حصل تغيّر في مستوىٰ التعامل الى الأحسن، وكان الحزب يُعلن بين الحين والآخر عن استعداده لتنفيذ اوامره وتوجيهاته، ثم عيّن احد تلامذته بما يشبه الرابط او المنسق بينه وبينهم. كما كان يقدّم دعماً مادياً للحزب بالقدر الذي تسمح به الظروف.

وعن هذا الموضوع كتب سماحة السيّد الحائري (حفظه الله) في كتابه مباحث الأُصول ج ١ ص ١١٠ مايلي:

«وبعد هذا حينما اعتقلت السلطة الكافرة في العراق ثلّة من العلماء الأعلام، وثلّة من المؤمنين الكرام، وكان بضمنهم الشهداء الخمسة الشيخ عارف البصري وصحبه (رحمهم الله) وكان بضمنهم السيّد الهاشمي، وكنت أنا ـ وقتئذٍ ـ في إيران، وأفرجت السلطة بعد ذلك عن جماعة منهم السيّد الهاشمي، وبقي جماعة آخرون في الاحتجاز، أصدر الاستاذ الشهيد ﵀ كلمته المعروفة التي ذكر فيها فصل الحوزة العلميّة عن العمل الحزبي، وكان هذا بتاريخ (١٠ شعبان ١٣٩٤هـ =[١٩٧٤م]).

وكتبت بعدئذٍ رسالة إلى أُستاذنا الشهيد أستفسره فيها عمّا هو المقصود الواقعي عن هذه الكلمة فذكرت له: أنّ المحتملات عندي أربعة:

١ ـ أن يكون المقصود بهذه الكلمة لحاظ مصلحة في أصل ذكرها ونشرها كتقيّة (وعلى حدّ تعبير علماء الأُصول تكون المصلحة في الجعل).

٢ ـ أن يكون المقصود بهذه الكلمة أولئك العلماء و الطلّاب المرتبطون بمرجعيّتكم، وإن اقتضت المصلحة إبرازها على شكل العموم.

٣ ـ أن يكون المقصود بهذه الكلمة فصل طلّاب الحوزة العلميّة في العراق عن العمل الحزبي درءاً للخطر البعثي الخبيث عنهم، الذي يؤدّي إلى إبادتهم.

٤ ـ أن يكون المقصود بها فصل جميع الحوزات العلميّة في كلّ زمان ومكان عن العمل الحزبي الإسلامي ـ وعلى حدّ تعبير الأُصوليين تكون القضيّة قضيّة حقيقيّة وليست خارجيّة ـ وعلىٰ هذا الاحتمال الأخير يكون تعليقي على هذه الكلمة: أنّ هذا الإجراء سيؤدّي في طول الخطّ إلى انحراف الحركة الإسلاميّة الحزبيّة عن مسار الإسلام الصحيح نتيجة لابتعادهم في أجوائهم الحزبيّة عن العلماء الأعلام.

فكتب لي (رضوان الله عليه) في الجواب: إنّي قصدت المعنىٰ الأوّل والثاني والثالث، دون الرابع».

رأيه في العمل العسكري

رابعاً: العمل العسكري والجهادي.

وكان السيّد الشهيد الصدر يرىٰ ضرورة واهميّة العمل العسكري والجهادي، بعد أن تستنفذ الوسائل السلميّة قدرتها على الإقناع في ظلّ الأنظمة المستبدّة الظالمة. وقد باشر ذلك على الصعيد العملي ولو بشكل محدود في السنوات الأخيرة من عمره الشريف، وكان يقول ما معناه: إنّ هذا النظام ويعني نظام ـ العفالقة في العراق ـ قضىٰ على كلّ مظاهر الحرّية في العراق بالحديد والنار، فلابدّ من مقارعته بالقوّة. وقد طلب من أحد الأوفياء المقرّبين منه أن يباشر عمليّة الإعداد لهذا العمل بإقامة معسكرات بسيطة وسريّة للتدريب على السلاح، وكان ذلك علىٰ ما أتذكر في حدود عام ١٩٧٠م.

ومن المؤكّد أنّ بياناته الثلاثة التي وجّهها إلى الشعب العراقي تعبّر بوضوح عن إيمانه بأهميّة العمل العسكري والجهادي إذ من خلالها يمكننا أن نضع أيدينا على تفاصيل رؤيته عن هذا الموضوع.

هذه أهمّ النقاط التي أردت الإشارة إليها فيما يتعلّق بموضوع استراتيجيّته السياسيّة والجهاديّة و نظراته إلى العمل الإسلامي.

حياته السياسية والجهادية

٢

الصراع بينه
و
بين السلطة الحاكمة

- مقدّمة.
- جهاده (رحمه الله) للإطاحة بصدّام.

مقدّمة:

منذ الأيّام الأُولى لوصول حزب البعث العميل إلى السلطة عام (١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م) أدرك السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) خطورة هذا النظام، وما يحمل من أفكار هدّامة، ومخطّطات إجراميّة ضدّ الإسلام، والمراكز والقوى الإسلاميّة.

كان من الطبيعي في بادئ الأمر أن ترفع السلطة شعارات برّاقة عن الحريّة، والعدالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة بهدف تضليل الجماهير، والتمويه عليهم. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتّى كشف النظام عن وجهه البشع، وصورته الحقيقيّة وهويّته الإلحاديّة، وتوجّهاته الحاقدة والمعادية للدين من خلال ممارساته وأعماله التي فاقت في الإجرام والوحشيّة كلّ تصوّر.

جاء هذا الحزب العميل ليسخّر ثروات العراق وأمواله وما فيه من طاقات وإمكانات للقضاء على الإسلام واجتثاثه من قلوب العراقيين وأرواحهم، واستبداله بعقيدة ميشيل عفلق، والعيسمي، وأمثالهم من الماسونيين وعَبَدة الصليب، فحارب الإسلام بضراوة بالغة، وقتّل العلماء والصلحاء من أبناء العراق دون رحمة، فتضرّجت أرض العراق بدماء أبنائها وشبابها بما لا نظير له في

التاريخ.

كانت الخطوة الأُولى التي كشفت حقيقة هذا النظام هي توجيه تهمة الجاسوسيّة للشهيد السعيد السيّد مهدي الحكيم ﵀، وكان المستهدف الحقيقي بذلك هو الإمام الحكيم ﵀ مرجع الشيعة العامّ، وبالتالي المرجعيّة العامّة نفسها، والتي كانت حربة في قلوب العفالقة، وشوكة في عيونهم.

ثم أعقبتها الخطوة الثانية التي تمثّلت بإعدام الشهيد عبد الصاحب دخيّل ﵀ بتهمة الانتماء إلى حزب الدعوة الإسلاميّة.

وتلا ذلك حملات التهجير والتسفير للطلبة وأبناء الشعب، بذريعة أنّ هؤلاء من أصل إيراني. وكان الهدف الحقيقي هو إفراغ الحوزة العلميّة في النجف وغيرها من الكوادر العلميّة تمهيداً للقضاء عليها، وكذلك الإخلال بالنسبة المئويّة للشيعة في العراق.

واستمرّ مسلسل الإجرام في حلقاته المُعدّة والمدروسة دون انقطاع، فكان له في كلّ يوم ضحيّة، وله في كلّ ساعة قرباناً من خيرة أبناء العراق يفترسه بأنياب صليبيّة حاقدة.

وركّز النظام في حملاته على قمع مراكز القوّة في الحوزة العلميّة ،ومواطن الوعي فيها، وكان الشهيد الصدر ﵀ يمثّل تلك القوّة وذلك الوعي، فكان هدفاً لتلك الحملات الشرسة والضربات القاسية في وقت قلّ فيه الناصر والمُعين.

وأصبح الشهيد الصدر، المرجع النموذجي في تاريخ المرجعيّات والمراجع الذي يتعرّض لأبشع أنواع الظلم وألوان الاضطهاد بعد أن تظافرت على اضطهاده كلّ القوى، فتعرّض للاعتقال والتعذيب، ثم نال الاستشهاد مع أُخته المظلومة بنت الهدى، وهي حالة لامثيل لها في تاريخ المرجعيّات.

جهاده ﷺ للإطاحة بصدّام:

لقد أثبتت سلطة البعث من خلال ممارستها أنّها عدوّة الإسلام العنيد، وأنّ هدفها هو إبعاد الدين عن حياة العراقيين، حتّى في أبسط مظاهره وأشكاله، وكلّنا نعلم أنّ العلمانيّة شعار حزب البعث وروحه التي يحيا بها، وهل نتوقّع من حزب أسّسه ونمّاه ميشيل عفلق عابد الصليب والناقوس أن يفعل غير ذلك.

لقد تجرّأت سلطة البعث على ما لم يجرأ عليه حاكم أو حكومة، فمنعت الأذان الذي هو شعار الإسلام من الإذاعة [1]، وجعلت المساجد والحسينيّات والمحافل الدينيّة هدفاً لسهامها و حملاتها الوحشيّة، وجعلت المؤمنين الطاهرين خِيرة أبناء العراق ضحايا تقتطف رؤوسهم كلّما شاءت دون رحمة أو شفقة، وخصّصت لهم قسماً كبيراً من مديريّات الأمن باسم (الشعبة الخامسة) لمكافحة الرجعيّة، ولازالت دماء عشرات الآلاف منهم تصبغ جدرانها، وهي السند الحي الذي يشهد لهم بالفداء ولأعدائهم باللؤم والخباثة.

ولا أُريد هنا أن أسجّل كلّ تلك الجرائم، أو المواقف التي عبّرت عن حقد أسود، وعداء شديد للإسلام وللمؤمنين به، إنّ كلّ العراقيين يعرفون ذلك، وحتّى أطفالنا يعرفون أنّ البعث ضدّ الإسلام.

ولكن هل من طريق للخلاص؟

لم تكن القوى المعارضة للسلطة بالمستوى القادر على مواجهتها ومقارعتها وجهاً لوجه، فالحركات الوطنيّة ـ كما يسمّونها ـ قد فقدت كلّ قوّة، والأحزاب الإسلاميّة كانت ولاتزال تحبو وهي مع ذلك نالت من الاضطهاد والعنف ما لم تنله الأحزاب الأُخرى غير الإسلاميّة وهي في أوج قوّتها

١ ـ وقد أعادته فيما بعد امتصاصاً لنقمة الجماهير.

وعنفوان شبابها.

والمرجعيّة بشكل عامّ ـ إذا استثنينا مرجعيّة الإمام السيّد محسن الحكيم ﴿رحمه الله﴾ التي كانت واعية لدورها ومسؤوليّتها ـ كانت تعيش هموماً أخرى بعيدة عن هذا الخطر، بل أعتقد أنّ أحداً لم يصل بتفكيره إلى هذا المستوى، وإلى هذا اللون من التطلّع، بينما كان اخطبوط البعث يمتدّ إلى كلّ ميدان ومرفق، إلى كلّ قرية وناحية ومدينة ومحافظة، بل وتجاوز العراق إلى أقطار أُخرى كاليمن والسودان والأُردن وغيرها من الدول.

وكنّا نرى مواكب الفتوّة والطلائع والرفاق تمرّ من قرب حرم أميرالمؤمنين علي ﴿عليه السلام﴾ تنشد ألحان الصليب وشعاراته، متحدّية عليّاً ﴿عليه السلام﴾ في مضجعه، وكانت أناشيد الإشادة بالبعث التي تبثّ مع مكبّرات الصوت تختلط مع الأذان.

وكنّا نرى الفلّاح رفيقاً، والعامل رفيقاً، والطالب رفيقاً، ونرى السكارى والفاسقين ومن أفنوا عمرهم في الرذيلة يُسمّون بالمناضلين، والكلّ يكفر بالله جهرة، ويتبرّأ من كلّ القيم الخيّرة عن علم أو جهل.

وكان الأخيار والعلماء يُضرّجون الأرض بدمائهم في زنزانات البعث، وسجونه ولا من مُنكر ولا من رادع.

كان كلّ شيء يسير إلى الهاوية في ظلّ خطّة مدروسة ودقيقة، ينفّذها حزب البعث في العراق، وكان السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) يراقب تلك الأوضاع بدقّة، وكان قلقاً إلى حدّ كبير وهو يواكب المسيرة التائهة في دياجير الظلام. ورغم أنّ إمكاناته المادّيّة لا تتيح له الكثير من الفرص، ورغم أنّ كيانه المرجعي ووضعه الاجتماعي كان محدوداً قياساً بالآخرين لا يمكّنه من العمل إلّا في حدود ضيّقة، ومع ذلك فقد خطى عدّة خطوات باتّجاه إسقاط النظام، واقتلاع جذوره في العراق.

وتحرّك (رضوان الله عليه) باتّجاهين:

الاتّجاه الأوّل: كان نحو تفتيت حزب البعث في المجتمع العراقي واعتباره وجوداً غير مشروع.

الاتّجاه الثاني: كان لإسقاط النظام، أو على أقلّ تقدير اجتثاث الرأس الذي يقف وراء كلّ تلك المخططات الإجراميّة التي استهدفت الإسلام والمسلمين.

وكان تشخيص السيّد الشهيد ﴿ أنّ صدّاماً التكريتي هـو الرأس المـدبّر للنظام، وكان هذا التشخيص في وقت مبكّر جدّاً، وقبل استلام صـدّام لكـافة السلطات، وقد سمعته كراراً يردّد هذا التشخيص، ويقول:

«ما دام هذا الشخص في الحكم لا يمكننا عمل شيء، بل إذا سكتنا عـنه فسوف يُحطّم ويهدّم الكيان الإسلامي في العراق».

وعلى هذا الضوء بادر السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) إلى القيام بعدّة أعمال، أذكر منها التالي:

١ ـ على أساس الاتّجاه الأوّل، وهو تفتيت حزب البعث واعتباره وجوداً غير مشروع أصدر (رضوان الله عليه) فتواه بتحريم الانتماء إلى حزب البعث.

لم يكن هذا الموقف تحدّياً للسلطة فرضته طبيعة الصراع، كما لم يكن السيّد الشهيد ﴿ بوجوده المرجعي والاجتماعي بمستوى هـذه الصـراحـة الخـطيرة والمواجهة المباشرة مع السلطة العاتية المجرمة، بل كان ﴿ يقدّر العواقب الكبيرة والأخطار الهائلة التي تترتّب على هذا الموقف، وهو يعلم أنّه يعيش في الحوزة التي لم تكن مستعدّة لمساندته والدفاع عنه، باستثناء شرائح قليلة منها لاتدفع عنه ضيماً، وهو يعلم أنّ إمكاناته ليست بمستوى هذه المواجهة الخطيرة، كما أنّ السلطة من حيث القوّة والإمكانات قادرة على كسب الصراع بسهولة، ومع ذلك قرّر السيّد الشهيد أن يتّخذ هذا الموقف و بوضوح تامّ.

وكان لهذا الموقف ما يبرّره، فقد وجد (رضوان الله عليه) أنّ المكاسب أكبر من الخسائر بالنسبة لمجمل الوجود الإسلامي في العراق على المدى البعيد، وبدون اتّخاذ هذا الموقف ستكون النتيجة معكوسة. وكان يقول:

«يجب أن نفرّق بين براءة ذمّة المكلّف المكره على الانتماء لحزب البعث أمام الله، وبين النتيجة العمليّة التي تترتّب على ذلك والآثار الخطيرة التي ستنتج على صعيد الواقع. فعلى الثاني لو أنّ المؤمنين وغيرهم أيضاً أُكرهوا على الانتماء لحزب البعث بسبب الضغط الوظيفي أو الدراسي أو غير ذلك، فإنّه وبمرور الزمن ستنشأ الأجيال، فتجد أنّ الانتماء لحزب البعث أمر طبيعي لا يُتحرّج منه من الناحية الدينيّة».

وكان يقول:

«إنّني أعلم أنّ هذه الفتوى سوف لن تؤثّر في الوقت الحاضر التأثير المرجوّ منها؛ وذلك لأنّ السلطة طوقت حياة المواطن العراقي في كلّ مناحيها، وخاصّة الاقتصاديّة بالانتماء لحزب البعث، وسواء أفتينا بحرمة الانتماء أم لا فإنّه على كلّ حال سينتمي للحزب، ولكن فرق بين أن ينتمي وهو يعلم أنّ هذا العمل محرّم شرعاً، وبين أن ينتمي وهو يرى أنّ الانتماء أمر طبيعي لا حرج فيه من الناحية الشرعيّة. إنّ هذا الأمر في غاية الأهميّة، ويجب أن نأخذه بنظر الاعتبار».

ورغم أنّ انتشار الفتوى كان محدوداً، فإنّ عدداً كبيراً من المؤمنين ممّن كانوا قد انتموا لحزب البعث مكرهين أو مضطرّين راجعوا السيّد الشهيد ﵀ إمّا للتعرّف على الموقف العملي بعد أن علموا بحرمة الانتماء، أو لبيان المبرّرات التي تجعل من غير الممكن خروجهم من الحزب، فكان جوابه (رضوان الله عليه):

«إنّ من يتمكّن من توفير مستلزمات حياته المعاشيّة عن طريق التجارة والعمل، فيجب عليه ذلك».

وكان يُجيب أُولئك الذين لا تسمح لهم الظروف بالخروج من الحزب بأنّه:

«يجب عليكم العمل من داخل الحزب لتفتيته بأيّ شكل ترونه مناسباً...».

ومن الطبيعي أن يتسرّب خبر الفتوى إلى السلطة، فبعثت جواسيسها لتسجيل الفتوى من لسان السيّد الشهيد لإدانته بها فيما بعد، ولم يكن (رضوان الله عليه) حذراً من ذلك، وأتذكّر أنّ أحد العلماء طلب من السيّد الشهيد أن يحتاط في الجواب، ويقتصر على الأشخاص الموثوقين تماماً. وكان جواب السيّد الشهيد ﵀:

«لاضير من ذلك، فأنا أُريد أن يعلم الجميع أنّ الانتماء لحزب البعث حرام، ولتعلم السلطة بموقف المرجعيّة الرافض لحزبها وعقائدها».

ومن المؤكّد أنّ المردود الإيجابي لهذه الفتوى كان كبيراً، بل أقلق السلطة وهي في أكمل مراحل قوّتها، ولم تتمكّن من اتّخاذ ردّ الفعل المناسب الذي كنّا نتوقّعه في ذلك الوقت.

والحقيقة أنّ هذا الموقف المشهود يعتبر من أشجع وأنبل المواقف للسيّد الشهيد (رضوان الله عليه) قياساً إلى الاوضاع السياسيّة والأمنيّة في العراق، فمن عاصر تلك الفترة السوداء وشاهد نظام البعث يقتل حتّى الأطفال والنساء والشيوخ لمجرد الظن والتهمة، لا لجريمة اقترفوها أو ذنب ارتكبوه يدرك أيّة شجاعة كان يتمتّع بها شهيدنا العظيم، وأيّة غيرة على الإسلام يحملها ذلك القلب الكبير.

٢ ـ كانت الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة في فترة مّا من تاريخ العراق قد فرضت على العلماء والفقهاء أن يتّخذوا موقفاً سلبيّاً من مسألة الدخول في الجيش العراقي، فأفتوا بالحرمة على أساس أنّه عمل مع الظالمين، أو اعانة لهم في ظلمهم. وكان من الطبيعي أن يتجنّب الأخيار الدخول في الجيش متطوّعين. أمّا من لم يكن مهتمّاً بالتديّن والالتزام، فإنّه وجد في الانضمام إلى الجيش فرصة مناسبة للعيش، خاصّة وأنّ الأوضاع الاقتصاديّة كانت في تلك الفترة رديئة للغاية.

ولمّا ولدت التيارات القوميّة والحزبيّة وجدت في الجيش والقوّات المسلّحة مرتعاً خصباً للعمل، فحزّب كلّ حزب ما يستطيع منه، وبمرور الزمن أصبح الجيش العراقي اليد الضاربة للأحزاب العلمانيّة والتيّارات القوميّة.

أمّا الإسلام فقد خسر أبناءه، بل أصبحوا ضدّه، وصار هذا الجيش حربة يطعن بها الإسلام والقيم الربّانيّة، وتسفك بيده دماء خيرة أبناء العراق.

كان السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) وهو يُعدّ لمرحلة المواجهة الشاملة يعرف خطورة هذا الفراغ، وضرورة معالجته، وكان في المرحلة الأُولى يفكّر بالمراكز الحسّاسة في الجيش، ومصادر القرار فيه، وعلى هذا الأساس سمح لنخبة منتخبة من الشباب بالانتماء إلى الجيش والقوّات المسلّحة على أمل أن يكونوا النواة الطيّبة للسيطرة العمليّة على الجيش وتسخيره لخدمة الإسلام.

وأمكن خلال فترة وجيزة الوصول إلى بعض قواعد القوّة الجويّة، أو المراكز الحسّاسة في الجيش، حتّى أنّ أحد الطيّارين الذي كان يُستدعى في بعض الأحيان لمرافقة طيّارة نائب رئيس الجمهوريّة قد تعهّد للسيّد الشهيد بضرب طيّارة صدّام وإسقاطها في الوقت المناسب، وكان ﵀ مهتمّاً بهذا التعهّد.

ولأهميّة الجيش العراقي ودوره الخاصّ والكبير اهتمّت السلطة العميلة في السيطرة عليه سيطرة تامّة، وحرّمت على كلّ عراقي لاينتمي لحزب البعث الدخول فيه، وأخذت من كلّ عسكري تعهّداً خطيّاً يقضي بإعدامه في حال انتمائه لحزب آخر غير حزب البعث، وشدّدت من قبضتها عليه بكلّ وسيلة إيماناً منها بخطورة وأهميّة هذه الطاقة الكبيرة.

وفي مجال التجربة الإسلامية لاحظنا دور القوّة الجوّية الإيرانيّة في انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، وهزيمة الشاه، وكيف استطاع الإمام الخميني ﵀ أن يحقّق بمساهمتها نصراً كبيراً وسريعاً كان من الصعب تحقيقه بدونهم في فترة

زمنيّة قياسيّة.

٣ ـ قام (رضوان الله عليه) بتشكيل خلايا فدائيّة ترتبط به بصورة غير مباشرة، مهمّتها اغتيال الطاغية المجرم صدّام التكريتي، وكان المباشر لهذا العمل المرحوم الشيخ عبد الأمير محسن الساعدي، والمرحوم الشيخ جليل مال الله، والمرحوم الشيخ قاسم ضيف، وبعض الإخوة الأعزاء ممّن لم نذكرهم، وهؤلاء يقومون باختيار الشباب المُضحّين الانتحاريين، وتوزيعهم على المناطق التي يتردّد عليها الطاغية، متربّصين به الفرصة المناسبة على أساس خطّة موضوعة.

٤ ـ تمكّن ﷺ في الفترة الأخيرة من حياته من إرسال أحد الأطباء (وهو الدكتور هاشم...) لينضمّ إلى الكادر الطبّي الخاصّ برئاسة الجمهوريّة، لينفّذ نفس المهمّة السابقة، إلّا أنّه اكتُشف خلال فترة إعداده لتنفيذ المهمّة وتمّ إعدامه، وهربت عائلته إلى دولة مجاورة للعراق، ولم يعترف على السيّد الشهيد، ولا على الرابط بينهما رغم التعذيب الشديد، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

٥ ـ كان السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) على اطّلاع كامل بمحاولة عدنان حسين عضو مجلس قيادة الثورة للإطاحة بنظام صدّام التكريتي. ولم أكن مطّلعاً على هذه القضيّة إلّا بعد أن كشفها ﷺ في فترة الحجز، وبعد أن أحسّ أنّ وقت استشهاده قد اقترب، وقصّة ذلك كما يلي:

كان السيّد الشهيد ﷺ يتّصل بمنزلي هاتفيّاً في بعض الأيام، بين الساعة الثانية والثالثة بعد الظهر، ويطلب حضوري لقياس ضغط الدم، وكنت قد تعلّمت ذلك من بعض الأطباء، فأحضر ثمّ أقيس الضغط فيأمرني بالبقاء في بيته، ويقول لي: إذا جاء من يطلب مقابلتي فأخبرني.

وبعد برهة من الزمن يأتي رجل لا أجد فيه ما يدلّ على تديّنه، فهو حليق اللحية، متختّم بالذهب، يطلب لقاء السيّد الشهيد، فكنت وحسب أمر السيد أُبرز له

الاستعداد والترحيب، فإذا اجتمع به يطلب منّي ﷺ أن لا أسمح لأحد بالصعود إلى غرفة المكتبة، وأن لا أترك البيت حتّى ينتهي الاجتماع، ولم يكن السرّ في هذا الأمر مفهوماً لي.

وفي فترة الحجز حينما سمعنا بفشل محاولة عدنان حسين للإطاحة بصدّام، رأيت السيّد الشهيد ﷺ يتأسّف، فأردت أن أقول له: إنّ الأمر لا يعنينا، بل هو في مصلحتنا ونفعنا فقلت (نارهم تأكل حطبهم) فنظر إليّ نظرة طويلة، ولم يجب بشيء.

وفي الأيام الأخيرة من الحجز عندما أحسّ بقرب أجله قال لي: أتذكر ذلك الشخص بتلك الأوصاف؟

قلت: نعم.

قال: له قصّة أُخبرك بها لتكون ضمن ما سوف تكتبه عنّي. إنّ هذا الشخص كان مبعوثاً من قبل عدنان حسين لمهمّة خاصّة، فقد أخبرني بأنّه ينوي الإطاحة بصدّام حسين، وطلب منّي أن أُعطيه وعداً بتأييد الثورة مشروطاً بشروط أنا أضعها، وكان منفتحاً ومتجاوباً إلى أقصى الحدود. قال: شككت في بادئ الأمر بذلك، وتصوّرت أنّ هذه المحاولة من محاولات السلطة للحصول على مستمسك ضدّي، ولكنّه قدّم لي من الأدلّة ما بدّد تلك الشكوك. فقلت له: إنّ موقفي بالتأييد حسب الشروط ـ وكان السيّد الشهيد قد بيّن لي تلك الشروط ـ يتوقّف على مدى التزام عدنان حسين بها بعد أن يستلم الحكم، أمّا قبل ذلك فلا أقف موقفاً معارضاً أو سلبيّاً حتّى تتبيّن الأُمور.

وقد قال لي (رضوان الله عليه): كان هدفي الأساسي هو إسقاط نظام صدّام التكريتي؛ لأنّ صدّاماً هو الرجل الذي يشكّل خطورة حقيقيّة على الإسلام في العراق، كما أنّ عدنان حسين لا يكون أسوأ من صدّام التكريتي على أسوأ التقادير

في حال استلامه للحكم [١].

وممّا يجب أن أشير إليه هنا أنّ السيّد الشهيد﴾ كان يُعِدّ لمواجهة مكشوفة مع النظام متى ما توفّرت الإمكانات، أو اقتضت مصلحة الإسلام ذلك، وكانت فكرة (التفسير الموضوعي) داخلة في هذا النطاق؛ وذلك لأنّه﴾ كان يعتقد أنّ المرجعيّة تفتقد الكثير من وسائل وأساليب الصلة بالأمّة ،ولا توجد للناس صلة بالمرجع إلّا من خلال قنوات ضعيفة كصلاة الجماعة، أو الجلسة العامّة اليوميّة، وهي قنوات غير فعّالة ولا مؤثّرة، ولا يستطيع المرجع من خلالها أن يبيّن مواقفه للأمّة، ومن هنا وجد (رضوان الله عليه) أنّ فكرة (التفسير الموضوعي للقرآن) تحقّق هدفين في وقت واحد، الأوّل: كتابة تفسير موضوعي للقرآن على طراز جديد وفريد، والثاني: إيجاد منبر للمرجع يتمكّن من خلاله بيان وجهات نظره للأمّة كلّما دعت الحاجة، فيلغي المحاضرة التفسيريّة ليتحدث عن أيّ حدث أو أمر من الأمور الحسّاسة ويبيّن موقف المرجعيّة منه.

وعلى هذا الأساس كان الحضور مفتوحاً لكلّ الطلبة الذين يمكنهم استيعاب المادّة التفسيريّة من دون التقيّد بكونه بمستوى بحث الخارج. وكان تصميمه على فسح المجال لحضور كلّ أبناء الأمّة على اختلاف مستوياتهم في مرحلة لاحقة، وبعد أن يصبح مجلس التفسير واقعاً لاتتمكّن السلطة من منعه.

١ ـ وأعتقد أنّ عدنان حسين تيقّظ بعد أن عاش في عمق التجربة الطائفيّة لنظام التكارتة وسياستهم القائمة على أساس التفريق فقام بهذا العمل؛ ليصحّح بعض تلك الأخطاء الكبيرة. وإلّا فإنّه كان يحظى بمركز قوي في السلطة، ولدى العائلة الحاكمة، وكان يُعرف بأنّه (مدلّل) صدّام التكريتي، وكان صدّام لا يفارقه حتّى في سفراته الخاصّة، وفي زيارة (السمك المسگوف) والتي اصطحب معه فيها السمك مع الشوائين إلى فرنسا على طائرة خاصّة، وعلى مائدة العشاء خاطب صدّام رئيس وزراء فرنسا جاك شيراك قائلاً له: ـ مشيراً إلى عدنان حسين ـ هذا هو العقل الاقتصادي العراقي المفكّر؛ ليُعرب له عن اعتزازه به.

ولأهميّة هذا المجلس اقتطع ﷺ وقتاً له من بحث خارج الفقه، وهو أمر يدلّ على مدى اهتمامه بهذه الفكرة، كما شجّع (رضوان الله عليه) على فكرة تسجيل البحث وتوزيعه من خلال أشرطة الكاسيت؛ ليتاح لمن لا يستطيع حضور الدرس الاطّلاع على الأفكار والآراء التي تمثّل موقف المرجع من مختلف القضايا في المستقبل.

هذه بعض القضايا التي وقعت في إطار الإعداد لمواجهة النظام وإسقاطه، ذكرتها على نحو الاختصار.

المواقف المعاديَة له

من قبل السلطة

- الاعتقالات التي تعرّض لها الشهيد الصدر ﵁.
- محاولات الاغتيال التي تعرّض لها.
- المراقبات الأمنيّة ضدّه ﵁.

الاعتقالات
التي تعرّض لها الشهيد الصدر

ولنقف مع صفحة من تاريخ هذا المرجع المظلوم، هذه الصفحة التي انفرد بها دون غيره من مراجع تاريخنا المعاصر، وما عانى من ظلم واضطهاد، وما كشفت عنه من خصائص كان يتمتّع بها، من صمود وثبات واستهانة بالموت من أجل القيم الإسلامية.

الاعتقال الأوّل:

أُعتقل السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) في ظلّ حملة إرهابيّة شنّتها السلطة وقادها المجرم المعروف ناظم گزار مدير الأمن العامّ في ذلك الوقت [1] ونفّذها المجرم مهدي البياني مدير أمن النجف آنذاك.

والحقيقة ليست لديّ معلومات خاصّة عن ذلك الاعتقال، إذ لم تكن علاقتي بالسيّد الشهيد في تلك الفترة إلّا في الحدود العامّة لباقي الطلبة ممّن هم

١ ـ لقد شهدت مراسم تشييع جنازة المجرم ناظم گزار بعد إعدامه حيث دخلت يوماً إلى الصحن الشريف، فلاحظت العشرات من قوّات الأمن وقد أخذوا مواقعهم في الصحن الشريف، ورأيت جنازة يحملها إثنان من حمّالي الجنائز، وخلفها رجل واحد، فسألت عن الميّت فقالوا هذه جنازة ناظم گزار.

في عمري، إلّا أنّ سماحة آية الله السيّد كاظم الحائري (حفظه الله) كتب في «مباحث الأُصول» عن ذلك الاعتقال، الظروف التي أحاطت به ما يلي:

«اعتقل في سنة (١٣٩٢هـ[= ١٩٧٢م])، وكان ذلك ـ في الظن الغالب ـ في شهر رجب، أو في أواخر جمادي الثانيّة، والقصّة كما يلي:

ذكر (رضوان الله عليه) ذات يوم أنّه بلغني خبر يقول: إنّ البعثيّين سيعتقلونني في هذه الليلة، وفي صبيحة تلك الليلة عرفنا أنّه لم يقع شيء من هذا القبيل.

وفي الليلة الثانية أُبتُلي مصادفة بالتسمّم أو ما يشبهه، ممّا كان يحتمل أداؤه إلى الموت، فطلب إيصاله إلى المستشفى، وكنت أنا والمرحوم السيّد عبد الغني (رحمه الله) بخدمته، ولا أذكر ما إذا كان شخص آخر أيضاً معنا أو لا، فأخذناه إلى مستشفى النجف، وبعد فترة من الزمن جاءت زوجته أُمّ جعفر، وأُخته بنت الهدى إلى المستشفى لعيادته، ثمّ رجعتا إلى البيت، ورجعت أنا أيضا إلى بيتي، وبقي معه في المستشفى المرحوم السيّد عبد الغني الأردبيلي (رحمه الله) و اطلعنا بعد ذلك على أنّ رجال الأمن العراقي طوّقوا في تلك الليلة بيت الأُستاذ، واقتُحم البيت لغرض اعتقاله، فقال لهم الخادم (وكان خادمه وقتئذٍ محمّد علي محقّق): إنّ السيّد غير موجود، ولا أعلم أين ذهب السيّد، فبدأوا بضربه ليعترف لهم عن مكان السيّد، إلّا أنّه أبى، وأصرّ على إنكاره رغم علمه بمكان السيّد، وجاءت زوجته أُمّ جعفر، وقالت لهم: إنّ السيّد مريض، وقد انتقل إلى مستشفى النجف، فانتقل رجال الأمن إلى مستشفى النجف، وطوّقوا المستشفى وطالبوا المشرفين على المستشفى بتسليم السيّد. فقالوا لهم: إنّ السيّد مريض، وحالته خطيرة، وإذا أردتم نقله، فنحن لا نتحمّل مسؤوليّة ذلك إذا ما مات بأيديكم.

وأخيراً وقع الاتّفاق على أن يُنقل السيّد تحت إشراف رجال الأمن إلى مستشفى الكوفة [١]، على أن يكون معه المرحوم السيّد عبد الغني الأردبيلي

١ ـ لأنّ في مستشفى الكوفة ردهة للاعتقال.

بعنوان مرافق المريض، وهكذا كان. فقد نقلوا السيّد الأُستاذ إلى مستشفى الكوفة، ووضعوه في ردهة المعتقلين، وعند الصباح ذهب السيّد محمّد الغروي إلى مستشفى الكوفة كي يطّلع على حال السيّد الأُستاذ. فالتقى بالمرحوم السيّد عبد الغني ﷺ فقال له: إنّ رجال الأمن قد وضعوا قيد الحديد على يده الكريمة، فأخبرني السيّد الغروي بذلك. فذهبت أنا إلى بيت السيّد الإمام الخميني (دام ظله) حيث كان وقتئذٍ يعيش في النجف الأشرف، وتشرّفت بلقائه، وحكيت له القصّة.

ثمّ كثرت في صبيحة ذاك اليوم مراجعة الناس على الخصوص طلّاب العلوم الدينيّة، والعلماء العظام، أمثال المرحوم آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين، والمرحوم الحجّة السيّد محمّد صادق الصدر إلى مستشفى الكوفة يطالبون بلقاء السيّد، والجلاوزة يمنعونهم عن ذلك. ودخل البعض على السيّد رغماً على منع الجلاوزة، وكاد أن يستفحل الاضطراب في وضع الناس، فخشيت الحكومة من نتائج الأمر، فرفع القيد من يد السيّد.

وبعد فترة وجيزة أطلقت السلطة سراح السيّد الأُستاذ، ووضع في القسم العادي ـ غير ردهة المعتقلين ـ في مستشفى الكوفة، وبعد ذلك رجع إلى مستشفى النجف، وبعد أن تحسّنت حالته الصحيّة رجع إلى البيت، وكثرت زيارة الناس والوفود إليه، واستمر الأمر بهذا الوضع إلى أيام وفاة الإمام موسى الكاظم ﷺ حيث أقام السيّد الشهيد في بيته مأتماً للإمام الكاظم كعادته في كلّ سنة، وكان المجلس يغصّ بأهله، وكان الخطيب في ذلك الحفل السيّد جواد شبّر.

وكان يقول السيّد الأُستاذ ﷺ إنّ هذا الاعتقال قد أثّر في انشداد الأُمّة إلينا أكثر من ذي قبل، وتصاعد تعاطفها معنا.

وكان المفهوم لدينا وقتئذٍ أنّ مرض السيّد ﷺ كان رحمة، وسبباً لتأخير تنفيذ ما يريده البعثيون من أخذه مخفوراً إلى بغداد، إلى أن اشتهرت القصّة، وضجّ

الناس، واضطرّت الحكومة إلى اطلاق سراحه من دون الذهاب به إلى بغداد»[١].

وقد كتب (رضوان الله عليه) رسالة مؤثّرة إلى سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد علي رضا الحائري اليزدي يذكر فيها ما تعرّض له من أذىً في ذلك الاعتقال فيقول:

«إن هذا الزمن المرير ـ والحمد لله على كلّ حال ـ أذاقني من مرارته ألواناً وأشكالاً من يُتم وغربة في الطفولة، وضيق و حرمان في الشباب، وأنواع من التحدّي والاستهانة والإصرار من أفراد وجماعات على الإيذاء والعداء حتىٰ تُوّجَت تلك التحدّيات والاستهانات بمرض أبيكم [ويقصد اعتقاله] في رجب الذي قيد فيه كما يُقاد المجرمون، إنّ هذا الزمن الذي جرّعني كلّ هذه الغصص، وقصّ جناحي من قبل فأفقدني في لحظة شقيقي الوحيد وإذا به يتداعىٰ أمام عيني فجأة لم يستطع في كلّ ذلك أن يفرض عليَّ الانهيار...»[٢].

وكان قبل ذلك قد تعرّض سماحة آية الله السيّد محمد باقر الحكيم (حفظه الله) إلى الاعتقال فقد اعترضته مجموعة من قوّات الأمن في الصحن الشريف وطلبوا منه مرافقتهم إلى مديريّة الأمن، فرفض ذلك وبقي في الصحن ما يقرب من ساعة، وبعد ذلك خرج منه باتجاه سوق العمارة، وحاول المجرمون اعتقاله في السوق فامتنع حتّى يودّع أخاه المرحوم آية الله السيّد يوسف الحكيم وكان يتكلّم معهم بصوت مرتفع بهدف إعلام الناس وإخبارهم بهذا الأمر.

وكذلك تمّ اعتقال مجموعة من العلماء الأعلام والمجاهدين الأعزّاء منهم سماحة السيّد محمد تقي الطباطبائي والشيخ عزالدين الجزائري والسيّد

١ ـ مباحث الأصول ج١، من القسم الثاني ص١٠٥.

٢ ـ الوثيقة رقم (٧٤).

محمّد علي الشيرازي والشيخ مجيد الصيمري وغيرهم. وقد أُطلق سراحهم جميعاً في اليوم الثاني، واستثني منهم الشيخ مجيد الصيمري وبعض الأشخاص الذين حكموا بتهمة محاولة القيام بعمل مسلح ضدّ السلطة، وكان حكمه سنة واحدة، وشخص آخر كان محور التهمة حكم بثلاث سنوات وهو معلم من أهل البصرة لاأتذكر اسمه.

الاعتقال الثاني و«انتفاضة صفر الخالدة»:

قبل الدخول في تفاصيل ذلك يجب أن نُحيط بالظروف والأوضاع التي كانت سائدة في تلك الفترة، فمن خلال ذلك نستطيع أن نفهم الأحداث بدقّة ووضوح.

شدّدت حكومة البعث يوماً بعد آخر على الشعائر الإسلاميّة بهدف تطويقها والقضاء عليها. واتخذت سياسة التدرّج للوصول إلى هذا الهدف، وقد شجّعها على تخطّي مراحل مهمّة في ممارساتها الإجراميّة والتطاول في غيّها وطغيانها في مراحل تحقيق هدفها المنشود ممّا اعتبرته نجاحاً باهراً في مواقفها سكوتُ الناس على ما تعرّض له السيّد الشهيد ﴾ والحوزة العلميّة في النجف الأشرف، لما كانا يمثّلانه من حصن منيع للإسلام، ومصدر خطر جدّي يهدّد حاضر الحزب وأهدافه المستقبليّة، حيث لم ترَ في ممارستها الإرهابيّة ضدّ هذا الوجود الإسلامي أيّ ردّ فعل من شأنه إثارة مخاوف السلطة، فقد كانت تجسّ النبض بواسطة إشاعات تثيرها قبل عمليّة الاعتقال تلفّق من خلالها التهم والافتراءات السياسيّة ضدّ هذا الوجود المقدّس، وعندما لم تواجه بردّة الفعل المناسبة من قِبل الجماهير كانت تعتبر ذلك مؤشّراً على نجاح لعبتها، وأن تلك الإشاعات قد فعلت فعلتها في التضليل، فترى الجوّ مناسباً للدخول في مرحلة متقدّمة في سلّم مواجهة الإسلام

واقتلاع جذوره، وعلى هذا الأساس مدّت يدها المجرمة إلى شعائر سيّد الشهداء الإمام الحسين ﷺ، فتمكّنت وبسبب الضغط والإرهاب من استغلال الشعائر الحسينيّة ـ وخاصّة المواكب التي اعتاد الناس تنظيمها في شهر محرّم وصفر ـ لصالحها، وأجبرت الشعراء والمنشدين (الروادید) على ذكر أحمد حسن البكر رئيس الجمهوريّة وصدّام حسين التكريتي الذي كان نائباً له وقتئذٍ، والإشادة بما تسمّيه إنجازات الثورة في قصائدهم ورثائهم.

وكان على السلطة أن تكتفي بما ارتكبته بهذه الخطوة من مسلسل جرائمها، وتقنع بهذا القدر من جرح عواطف الناس، والضغط عليهم في ممارسة شعائرهم المستوحاة من عقائدهم. ولكن كما هي العادة ظنّت أنّ ذلك نجاح قد مهّد الطريق لها للخطوة الأخيرة المستهدفة أساساً وهي منع إقامة الشعائر الحسينيّة نهائيّاً.

وشرعت في تنفيذ سياستها خطوة خطوة، بدءاً من الأقضية والنواحي، لتشمل محافظات العراق جميعاً في مرحلة لاحقة، باستثناء مدينتي النجف وكربلاء، حيث إنّ الأوضاع القائمة فيهما أكثر صعوبة وتعقيداً من غيرهما، ولكن لم تمضِ إلّا سنوات قليلة حتّى اقتربت الحملة من النجف وكربلاء، وحاولت أن تنفّذ فيهما المنع المطلق عن ممارسة جميع الشعائر الحسينيّة تقريباً، فبدأت بمنع مواكب المشاة إلى كربلاء، وهي مسيرات سلميّة هادئة، اعتاد الناس من قديم الزمان على تنظيمها والذهاب إلى كربلاء مشياً على الأقدام مبالغة منهم في حبّ الحسين ﷺ وإظهار الولاء له وإكراماً لتضحيته من أجل إحياء الإسلام والدفاع عن كرامة المسلمين.

كان المفروض بسلطة البعث أن لا تقف من هذه الشعائر موقفاً سلبيّاً، ما دامت ترفع شعار الحريّة كشعار من شعاراتها الرئيسيّة التي تدّعي العمل لأجل تحقيقها، بل وكان عليها أن تحترم مشاعر المسلمين، وتخلّي سبيلهم في إقامة

شعائرهم الدينيّة والمذهبيّة التي تعدّ حقاً طبيعيّاً لكلّ إنسان في أن يعبّر عن إرادته الدينيّة ومعتقداته الفكريّة ما دامت لا تخلّ بأمن البلاد... وهذا الحقّ أصبح مُسلّماً لدى جميع حكومات العالم، وتتعاطف معه جميع شعوب الأرض بمختلف معتقداتها الفكريّة ومشاربها الدينيّة والمذهبيّة، وقد أقرّته هيئة الأُمم المتّحدة في إعلانها العالمي لحقوق الإنسان عام (١٩٤٨م) ممّا أسمته بحريّة العقيدة تارة والدين تارة أُخرى، وادّعت ضرورة حمايته وأوصت جميع الدول الموقّعة على الإعلان المذكور باحترامه، وكانت سلطة البعث قد وقّعت على الإعلان وأقرّت به أمام المحافل الدوليّة.

إلّا أنّ سلطة البعث العميل ضربت ذلك كلّه بعرض الحائط، ولم تقنع بما ارتكبته بل أقدمت على منع مواكب المشاة إلى كربلاء، وحاربت هذه الشعيرة الحسينيّة حرباً شعواء فكشفت بذلك القناع عن وجهها البشع، وأفصحت عن نيّاتها الحاقدة ممّا حرّك نهضة الجماهير، وأيقظها، وحرّك الغيرة على الدين في عروقها، ولن تنفع اليوم الاتّهامات السياسيّة، والمبرّرات الأمنية لتغطية هذه الجريمة النكراء، فوقف أبناء الشعب العراقي المسلم الغيور موقفاً مُشرّفاً في انتفاضة صفر الخالدة عام (١٣٩٧ هـ)، المصادف لـ(٩ شباط ١٩٧٧ م)؛ لأنّه أيقن أنّ هذه الزمرة الحاكمة على العراق تستهدف القضاء على الحسين عليه السلام بكلّ ما يمثّله من ثورة ورسالة وأهداف إنسانيّة شريفة، وتريد محوه من صفحة وجدان الشعب الحسيني في العراق لغرض زرع ما جاء به المؤسّس البعثي (عفلق) من بلاد الغرب بكلّ ما يحمله من قيم غريبة على البعد الديني للعراق، ومن منهج اجتماعي من المدرسة اليهوديّة الماسونيّة التي خطّطت للقضاء على الإسلام منذ أمدٍ ليس بقصير.

أحسّت السلطة أنّ الجماهير في النجف الأشرف ومَنْ وفد إليها من

المحافظات الأُخرى تستعدّ للانطلاق بمسيرة كبرى إلى كربلاء متحدّية المنع الصارم الذي أعلنته خلال اجتماع جاسم الركابي محافظ النجف برؤساء المواكب في ذلك التاريخ.

وعن تلكَ الانتفاضة البطوليّة كنت قد كتبت رسالة إلى المرحوم السيّد عبد الغني الأردبيلي ﷺ شرحت له فيها بعض أحداث الانتفاضة اقتطع منها ما هو محلّ الحاجة مع تعديل لبعض العبارات:

(منعت السلطة الناس من السفر إلى كربلاء مشياً على الأقدام [١] إلا أنّ جماهير النجف تجمّعت حتىٰ بلغ عددهم ما يقرب من خمسة وعشرين ألف على أقل تقدير فتظاهروا احتجاجاً على منعهم من السفر. ولقد شاهد هذه التظاهرة حسن العامري عضو القيادة القطريّة لحزب البعث ولمّا علم الناس بوجوده داخل سيّارته انهالوا عليها ضرباً بأيديهم، وقد استمرّت التظاهرة ثلاث ساعات رافقها تعاطف كبير من كسبة النجف بحيث أغلق التجّار محلّاتهم. وكانت الشعارات التي تهتف بها الجماهير هي (أبد والله لا ننسىٰ حسينا) و (يصدام شيل ايدك ونكلترا متفيدك) و (حسين دخيلك منعونه) وكسرت الجماهير الغاضبة صور أحمد حسن البكر رئيس الجمهوريّة ونائبه صدّام حسين التكريتي، وحدثت مشاجرات ومواجهات بين السلطة والجماهير وقد اعتقلت قوات الأمن والحزب ما يقرب من ستمائة شخص من المتظاهرين...).

وخرجت المسيرة في الوقت المقرّر وهو يوم الجمعة ١٧ صفر (٩ شباط =

١ ـ اعتاد عدد كبير من العراقيين السفر إلى كربلاء المقدّسة في العشرين من صفر في كلّ عام مشياً على الأقدام لزيارة الإمام الحسين عليه السلام باعتباره لوناً من ألوان المحبّة والولاء لرسول الله ﷺ ومواساته في مقتل ولده الفجيع مع أهل بيته وأصحابه وكأنّهم يقولون إذا لم يتح لنا نصره في ذلك الوقت فنحن اليوم لن ننساه وسنذهب إليه حبواً ومشياً كتعبير عن الولاء والحبّ له. وهي شعائر دينيّة لاعلاقة لها بالسياسة ولاضرر منها على النظام.

١٩٧٧م) باتجاه كربلاء صارخة بشعار التحدّي (لو قطّعوا أرجلنا واليدين نأتيك زحفاً سيّدي يا حسين)، وتحوّلت الشعارات بسبب ردّة الفعل القويّة إلى شعارات معادية للسلطة، ولكلّ أعداء الحسين عليه السلام، فأرعب ذلك حكومة البعث العميل وأدركت فشل خطّتها، فحاولت تلافي الخطأ بإلغاء قرار منع المسيرة، خاصّة بعد حصول اصطدام في اليوم الثاني في خان النصّ، وسقوط بعض الشهداء، واستعداد العشائر للدخول في مواجهة مع النظام.

ولكن لم يكن بمقدور هذا الإجراء أن يحلّ الأزمة، خاصّة وأنّ المسيرة كانت قد قطعت أكثر من ربع الطريق باتّجاه كربلاء المقدّسة.

وكانت بعض العربات العسكرية التي تنقل المعتَقلين الذين يقبض عليهم من قِبل قوّات الأمن في الطريق إلى كربلاء يطلق سراحهم أو يُشجّعوا ـ من قبل العسكريين انفسهم ـ على الهروب قبل وصولهم إلى معتقلات النجف، وهذه الخطوة كانت هامّة جدّاً لأنّها تكشف عن عدم قناعة الجيش بالسلطة، والكلّ يعرف أن مخالفة أوامر السلطة في الظروف الطارئة خاصة يؤدّي إلى الحكم بالإعدام ومع ذلك تجرّأ هؤلاء الأبطال على مخالفة الأوامر ونفّذوا ما أملاه عليهم دينهم وضميرهم.

كما أنّ تظاهر عشرات الآلاف في النجف بالذات وفي فترة السبعينات ـ تلك الفترة التي تنمّر فيها النظام وعتىٰ في طغيانه ـ يُعتبر تحدّياً بالغ الأهميّة وخطوة كبيرة على كلّ المقاييس.

كان السيد الشهيد الصدر يتابع الاحداث بدقّة، وكان كما ذكرت آنفاً في غاية السرور والارتياح وهو يتلقّىٰ أنباء تحدّي أنصار الحسين عليه السلام لسلطة أعداء الحسين، وصمود أبناء الشعب أمام دباباتهم ومدرّعاتهم وطائرات الميك التي كانت تحلّق فوق الرؤوس بأمتار قليلة.

وممّا زاد من ارتياحه سماعه لأنباء انضمام أعداد كبيرة من قطعات الجيش العراقي وأعضاء من حزب البعث الحاكم إلى صفوف الثوّار. وكان يعتبر ذلك مؤشّراً على بزوغ صحوة الشعب العراقي وإدراكه لحقيقة النظام الحاكم الذي ظلّله فترة طويلة. وكان يقول:

«إنّ هذه المواكب شوكة في عيون حكّام الجور، إنّ هذه المواكب وهذه الشعائر هي التي زرعت في قلوب الأجيال حبّ الحسين ﷺ وحبّ الإسلام، فلابدّ من بذل كلّ الجهود للإبقاء عليها رغم حاجة بعضها إلى التعديل والتهذيب...».

وكان (رضوان الله عليه) قد أمرني بتقديم الأموال لكافّة المواكب التي كانت بحاجة إلى مساعدة ودعم، بل وبعث بالكثير من الأموال إلى المواكب الأُخرىٰ التي لم تعتد طلب المساعدات والتبرّعات.

وعلى كلّ حال كانت انتفاضة صفر عام ١٩٧٧م انتفاضة تاريخيّة أرعبت السلطة وحطّمت كبرياءها، خاصّة بعد فشل التدخّل العسكري والأمني في القضاء عليها.

وأرادت أن تحافظ على الحدّ الأدنىٰ من كرامتها وحفظ ما تبقّىٰ لها من ماء وجهها وذلك بكفّ الثّوّار عن ترديد الشعارات المعادية (للبكر وصدّام) وأن يدخلوا إلى كربلاء بشعارات حسينيّة فقط، والسبب أنّ كربلاء المقدّسة تضمّ في يوم دخول المسيرة ما لا يقلّ عن مليونين زائر من كلّ أنحاء العراق فماذا سيكون الحال لو شاركوا مواكب المشاة في شعاراتهم؟ وما هي التطوّرات التي ستنتج عن ذلك؟ وماذا سيكون الحال لو أنّ محافظات العراق تحرّكت بنفس الاتجاه؟

إنّها أمور ـ ولاشك ـ أقلقت السلطة وأوقعتها في حيرة من المواقف المتخبّطة، فاضطرّت إلى اللجوء إلى العلماء والمراجع وطلبت منهم التدخّل لحلّ

الأزمة التي كانت تخيفها وترعبها.

أمّا بالنسبة للسيّد الشهيد الصدر ﷺ فقد جاء إليه محافظ النجف المدعو (جاسم الركابي) وطلب منه التدخّل بإرسال وفد يطلب من الثّوار أن لايردّدوا شعارات معادية للسلطة، ويُبلّغهم بتراجعها عن قرار منع المسيرة الحسينيّة، ويطلب منهم الهدوء والاكتفاء بترديد الشعارات الحسينيّة فقط، وإذا تحقّق ذلك فإنّ السلطة لن تتعرّض لأحدٍ منهم بسوء وتعتبر ما حدث قضيّة عابرة.

فقال له السيّد الشهيد الصدر: «ومَنْ يضمن سلامة الوفد الذي أبعثه إليهم؟».

فقال الركابي: «أنا أضمن سلامة الوفد، ولو حدث لهم شيء فسوف أُقدّم استقالتي، وأحلق شاربي، إنّ هذا تعهّد مني ومن وزير الداخليّة عزت الدوري».

لم يكن السيّد الشهيد الصدر يثق بوعود السلطة ولايركن إلىٰ تعهّداتها إلّا أنّه وكما سمعت منه ـ كان يريد تحقيق هدفين:

١ ـ إنّ المسيرة حقّقت هدفاً كبيراً وهو خلق حالة من الجرءة والثوريّة في نفوس العراقيّين فكان لابدّ من الحفاظ على هذه الحالة بأي ثمن لذا فإنّ وصول المسيرة سالمة إلى كربلاء من دون تعرّض السلطة لها يعتبر كسباً كبيراً للروح الثورية الإسلاميّة وخسارة كبيرة للسلطة بكلّ ما تملك من كبرياء وطغيان.

٢ ـ وكان (ره) يدرك أنّ السلطة سوف تتّخذ أقسىٰ الإجراءات القمعيّة ضدّ الثوّار، وسوف تسفك المزيد من الدماء، وتزهق الكثير من الأرواح إذا تُركت الأُمور على ما هي عليه فكان من الطبيعي أن يبذل كلّ ما باستطاعته لإنقاذ الدماء والأرواح والاقتصار على قدر محدود من الضحايا بحيث لايؤثّر الحدث على المعنويّات العالية للثوار، وهذا بخلاف ما لو أقدمت السلطة على مجزرة رهيبة ـ خاصّة وأنّها كانت قد حشدت الكثير من الدبّابات والمدرّعات ـ إنّ ذلك سيؤدّي إلى تدهور المعنويات بشكل كبير لأنّ المعركة غير متكافئة من ناحية

السلاح والمعدّات.

ومهما يكن من أمر فإنّ السيّد الشهيد الصدر وجد نفسه محرجاً في حال امتناعه من إرسال وفد بعد ان استجاب سماحة آية الله العظمى السيّد الخوئي ﵀ الذي كان المرجع الأعلى لطلب السلطة فأرسل وفداً ضمّ عدداً من العلماء منهم نجله المرحوم السيّد جمال الخوئي ليقوموا بتهدئة الثوّار، وسوف يُفسّر موقف السيّد الشهيد ﵀ في حال عدم استجابته بأنّه موقف مخالف ومعادي للسلطة، ومؤيّد للثوّار.

وعلى كلّ حال فبعد أن طلب منه الركابي ذلك اجتمع (رضوان الله عليه) مع بعض طلّابه، ومنهم سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد محمّد باقر الحكيم (حفظه الله) اتخذ فيه بعد استشارتهم في الأمر القرار بإرسال وفد يمثّل السيّد الشهيد برئاسة السيّد الحكيم، وكان السيّد الحكيم (حفظه الله) يرى أنّ عدم الاستجابة أفضل؛ لأنّ السلطة سوف لن تفي بتعهّداتها (وكان رأي السيّد الشهيد فى الواقع كذلك) إلّا أنّه مع ذلك استجاب لرغبة السيّد الشهيد ﵀ وذهب إلى الثوّار، وتحدّث معهم بما يجب، وكان دقيقاً وحكيماً في كلّ خطوة خطاها، وتمكّن خلال فترة قصيرة من تهدئة الثوّار رغم حالة الغضب والتوتّر التي كانت تسودهم وتسيطر عليهم.

وكان المفروض أن يُقدّر هذا الموقف وَيُشكر من قبل رجال السلطة؛ لأنّه حقن الدماء بحكمة، وكان المفروض ـ وعلى أقلّ تقدير ـ أن لايُعتقل، ولكن الذي حدث أنّ محافظ النجف الذي كان قبل ساعات يستغيث بالسيّد الشهيد قام هو بنفسه باعتقال السيّد الحكيم وسلّمه إلى قوّات الأمن بعد أن استدعاه إلى منزل المرحوم السيد مصطفى جمال الدين ومنه إلى المخابرات العامّة.

ولم يخضع السيّد الحكيم لأيّ لون من المحاكمة، وإنّما أُبلغ وهو في سجن

المخابرات العامّة بالحكم عليه بالسجن المؤبّد، ثمّ نُقل إلى سجن أبي غريب.

ولم يقدّم محافظ النجف استقالته، ولم يحلق شاربه ـ كما وعد من قبل ـ بل توجّهت السلطة بغضب وحقد إلى الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) لتنتقم منه باعتباره الرمز الحقيقي للنجف بما تحمل من تراث ديني وعلمي عريق، ولترهب باعتقاله الآخرين

ومن المؤكّد أنّ السلطة لم تمتلك ما يثبت تورّط السيّد الشهيد بالأحداث، أو تحريكه للجماهير ضدّها لأنّ الانتفاضة كانت عفويّة عاطفيّة خطّط لها بعض شباب النجف الحسينيّين ولاتحمل هدفاً سياسيّاً ولاتملك رؤية للسيطرة على الحكم، ومع ذلك فقد صدر الأمر باعتقاله وجلبه إلى بغداد.

وفي الساعة التاسعة صباحاً جاء مدير أمن النجف، وطلب من السيّد مرافقته إلى بغداد، مدّعياً أنّ وزير الداخليّة (عزّت الدوري) يريد الاجتماع به، وهذه هي حُججهم المعهودة في كلّ اعتقال.

وذهب السيّد الشهيد إلى بغداد لا للتحقيق، بل ليبلّغ رسالة حقد قاسية وشديدة من وزير الداخلية، تضمّنت التهديد والوعيد وبألوان من الانتقام، ثمّ يُقاد إلى مديرية الأمن لينال من الحاقدين أنواع التعذيب، وقد قال لي فيما بعد: «كنت أحرص على كتمان ما كنت قد نلته من التعذيب لئلا يؤدّي ذلك إلى انهيار أو خوف من لايمتلك القدرة على الصبر والصمود».

وسألته عمّا جرى عليه في مديريّة الأمن العامّة، فقال:

«لم يسألني أحد عن شيء، إلّا أنّ مدير الأمن العام قال لي: إنّنا نعلم أنّك وراء هذه الأعمال العدوانيّة، وقد بعثت السيّد محمّد باقر الحكيم ليحرّض الشعب علينا، إنّنا سوف ننتقم منك في الوقت المناسب، وهدّدني بالإعدام».

وكان السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) بعد أن أُفرج عنه يتوقّع اعتقاله ساعة بعد

ساعة، وكان مترقّباً ومستعدّاً لذلك ليلاً ونهاراً.

وعلى كلّ حال، فما هو تفسير هذه التصرّفات الغريبة من قبل رجال السلطة، ولماذا يتعهّد محافظ النجف بما تعهّد، ثم ينكث في نفس اليوم.

إذا أردنا أن لانفسّر ذلك على أساس حقيقة النظام وأخلاقيّته التي تقوم على الخداع والكذب فإنّا لانجد إلّا أحد تفسيرين:

الأوّل: أنّ السلطة أرادت أن تثأر لكرامتها التي سُحقت وأُهينت حينما تحدّت الجماهير المؤمنة أوامر المنع، بل وردّدت الهتافات التي ندّدت بالسلطة وموقفها المعادي للشعائر الحسينيّة، وموقفها بشكل عامّ من الدين، فكان أُسلوب ثأرها وانتقامها هو اعتقال السيّد الشهيد، والسيّد الحكيم، وإعدام ثلّة من المؤمنين.

الثاني: في تلكَ الفترة كان صراع يجري بين المحافظ جاسم الركابي وبين مدير أمن النجف إبراهيم خلف، فكان كلّ منهما يتربّص بالآخر. وكان ابراهيم خلف قد أخبر السيّد الشهيد الصدر في وقت مّا بأنّ محافظاً جديداً سوف يُعيّن قريباً في مدينة النجف هو جاسم الركابي، وسوف يزوركم حتماً فأرجو أن تذكروني عنده بخير!!. وكان الركابي محافظاً لمدينة الديوانيّة وابراهيم خلف مديراً للأمن فيها قبل مجيئه إلى النجف وحدث بينهما صراع لم يُحسم إلّا بنقل إبراهيم خلف إلى مدينة النجف. ومن المحتمل أنّ إبراهيم خلف استغلّ أحداث صفر وسخّرها ضدّ الركابي بطريقة مّا فإنّه في تلك الفترة كانت السلطة نفسها منقسمة إلى اتجاهين، اتجاه البكر رئيس الجمهوريّة، واتجاه صدام حسين الذي كان يعمل من خلف الستار وكان يدور بينهما صراع على السلطة المطلقة، ولا أدري لعلّ ما حدث يعود جزءيّاً إلى هذا الأمر، وإلّا فإنّ الانطباع المعروف عن

الركابي لا ينسجم مع ما كان قد صدر منه.

وعلى كلّ حال فإنّنا من خلال التجارب الكثيرة والحوادث المتوالية نؤمن أنّ تربية حزب البعث لكوادره وقياديّيه تقوم على أخلاق الغدر والخيانة والخداع وغيرها من الصفات الدنيئة.

ومهما يكن من أمر فإنّ السلطة فضلاً عن قتلها لعدد من الزوّار المُشاة واعتقال المئات حاولت أن تصوّر ما حدث بالشكل التالي:

١ ـ أنّ ما حدث مؤامرة تقف خلفها أصابع خفيّة ومشبوهة تستهدف أمن المواطنين واستقرارهم.

ودعموا ذلك بمسرحيّة مفضوحة حيث أعلنت السلطات أنّها ألقت القبض على شخص سوريّ الجنسيّة اسمه (محمد علي نعناع) في صحن الإمام الحسين عليه السلام وهو يحمل حقيبة متفجّرات، وكان ذلك يوم ١٨ صفر، أي قبل وصول المشاة إلى كربلاء وأثناء شنّ السلطة حملة اعتقالات واسعة لزوّار الإمام الحسين عليه السلام.

وفكرة المؤامرة فكرة تُرهب الناس لأنّ ما يتعرّض له المواطن من تعذيب يجعله يختلق أخطر الاعترافات ويتّهم نفسه بها مفضّلاً الموت على التعذيب، وما أكثر الأبرياء الذين أُعدموا لينال ضابط التعذيب رتبة كبيرة أو امتيازا عند سيده بسبب ذلك، وتصور وسائل الإعلام الاعترافات بلباقة فائقة بحيث يعتقد الناس الذين لا يعرفون الحدث وخلفيّته أنّ ما وقع كان مؤامرة حقّاً.

٢ ـ ورسمت السلطة صورة سوداء لسلوكيّات وأخلاق بعض العناصر الفعّالة في انتفاضة صفر بحيث تتنافى مع سلوك المؤمنين الملتزمين. فهم ـ وكما تقول السلطة ـ مهرّبون وسرّاق وشرّاب خمور و... و... لتعطي انطباعاً سيّئاً عنهم، ولعلّ

المقابلة التي نشرتها مجلة الف باء[١] (مجلة حزب البعث الحاكم في العراق) مع الشهيد صاحب ابوگلل والشهيد عباس عجينة خير دليل علىٰ ما نقول، فرغم أنّ الصحفيين قضوا ١٤ ساعة معهم ـ وهو وقت يكفي لكتابة عدد كامل من مجلّة الف باء ـ إلّا أنّنا لم نجد معلومة واحدة مفيدة، وكلّ ما تضمّنته المقابلة عبارات الشتم والسب والاتهام. جاء في مجلة الف باء:

«ابو گلل، عجينة، والايرواني.. والاخرون من زمرة التخريب الذين سمعنا بأسمائهم والذين لم نسمع..

شخصيّات بلاثقل... فكريّ أو اجتماعي، أو سياسي.

أسماء عاشت في الظلّ لأنّها لايمكن أن تكون يوماً في دائرة الضوء.

سجلّاتها تحفل بالخطوط السوداء والدوائر المغلقة...».

وتحت عنوان: ألف باء تقضي ١٤ ساعة مع أبو گلل وعجنية كتبت: «أوّلهم وليس أهمّهم صاحب رحيم ابو گلل.

فريق عمل من المجلة ذهب إليه في التوقيف، عاش معه... درس أوضاعه وملفّاته على مدىٰ ١٤ ساعة بدأت منذ التاسعة صباحاً وانتهت في الساعة ١١ ليلاً كان فريق العمل يستجوب أبو گلل ويقلّب أوراق ملفّاته المحفوظة في الدوائر الرسميّة، وكان مع أبو گلل، عبّاس عجينة الذي أُخضع للاستجواب والدراسة أيضاً ... ترك الدراسة وهو في الصف السادس الابتدائي، واحترف التهريب، وكانت هيئة التحرّيات قد عثرت في داره عام ١٩٧٠م على كميّات من السكاير المهربة وأُحيل الى المحكمة وصدر الحكم ضدّه. تقول ملفته: حكم عليه بالسجن لمدّة تسعة أشهر بسبب اعتدائه على أحد الأشخاص وطعنه بسكين.. والده موقوف بتهمة التهريب، وشقيقه هو الآخر موقوف ومحال على المحكمة بتهمة الاختلاس. ووالدته تبيع البضائع المهرّبة في سوق (الطمّة)

١ ـ في عددها (٤٤٠) بتاريخ ٢٣ شباط ١٩٧٧م.

اتهمت عدة مرّات بقضايا تهريب. وخرجت قبل فترة من التوقيف لاتهامها ببيع بضائع ممنوعة...».

وكتبت عن الشهيد عباس هادي عجينة مايلي:

«حدّاد... وشاعر شعبي... وحاج يشرب الخمر!

النموذج الآخر: عبّاس هادي عجينة ـ ٤٣ ـ سنة شغله حدّاد.. لم يتلقّ تعليماً مدرسيّاً ولكنّه تعلّم القراءة والكتابة، هوايته نظم الشعر الشعبي الحسيني وإلقائه. وكذلك نظم الشعر الشعبي الغزلي وله ولع خاص بالغزل (بالمذكر)..

حج بيت الله... ولكنّه لا يصلّي، ولا يؤدّي الفروض الدينيّة، ويشرب الخمر كلّ ليلة... كان يقوم بنقل المؤن والطعام بالسيّارات للزمر التخريبيّة.. ويشارك في إلقاء الهوسات والهتافات.

ـ ما هو نوع الطعام الذي كنت تحمله؟

ـ كيك. وبرتقال. وبيض.وتمن ومرق. كما حملت الشموع إلى الموجودين في خان النص...».

ولا أعتقد أنّنا بحاجة إلى إثبات الدجل والخداع في هذه المقابلة بالذات التي صيغت بشكل بحيث تعطي صورة سوداء عن أشخاص عبّروا عن موقفهم ورأيهم ولم يكتف النظام بتشويه سمعة الشخص المقصود فقط بل امتدّ إلى أبيه وأمّه وأخيه. كلّ ذلك من أجل أن يؤكّد النظام على كذبة واحدة وهي أنّ ما حدث في شهر صفر عام ١٩٧٧م ١٣٩٧ هـ لم يكن إرادة جماهير عراقيّة مؤمنة، ولا صرخة ثوّار أبطال رفضوا القبول بالخنوع والذلّ والهوان، وليس تعبيراً عن رفضهم لنظام ملحد، وإنّما هؤلاء الثوار تحرّكهم أصابع مشبوهة وهم مع كلّ ذلك سُرّاق ومهرّبين وشرّاب خمور. هذا ما أراد النظام أن يقوله للناس وللعالم.

وقد استشهد في هذه الانتفاضة المباركة كلّ من:

١ ـ الشهيد السيّد عبد الأمير الميّالي.

٢ ـ الشهيد جاسم صادق الإيرواني.

٣ ـ الشهيد يوسف ستّار الأسدي.

٤ ـ الشهيد محمّد سعيد البلاغي.

٥ ـ الشهيد ناجح محمّد كريم.

٦ ـ الشهيد صاحب رحيم ابو گلل

٧ ـ الشهيد السيّد وهّاب الطالقاني.

٨ ـ الشهيد الحاج عباس هادي عجينة.

٩ ـ الشهيد كامل ناجي.

١٠ ـ الشهيد غازي جودي.

هذا أهمّ ما يتعلّق بانتفاضة صفر والتي تعرّض فيها الإمام الشهيد الصدر للاعتقال.

الاعتقال الثالث:

قبل غروب الشمس من يوم الاثنين المصادف (١٦ رجب ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م) بدأت قوّات الأمن ومنظّمة حزب البعث تطوّق منزل السيّد الشهيد (رضوان الله عليه)، والشوارع والأزقّة القريبة منه أو المحيطة به، ومنعت المرور منها منعاً باتّاً.

وجاء الليل بسكونه وهدوئه يُخيّم على النجف إلّا هذا الزقاق حيث مستقر سيدنا الشهيد، إذ تحث الخطى، وتتعالى حركة الحشود، تمزّق ذلك السكون في ساعات تلك الليلة، وكان الاستعداد قائماً على قدم وساق تمهيداً لاعتقال السيّد الشهيد. وكنت أرقب ذلك الوضع من خلال فتحة أُحدثها كسر صغير في زجاجة النافذة المطلّة على الزقاق، فأيقنت أنّ السلطة تستعدّ لاعتقال الشهيد الصدر، فذهبت إليه، وأخبرته بذلك الاستعداد، وتلك الحشود المجرمة، فقال لي:

«لا بأس، أنا ذاهب للنوم، لأنّي أشعر بالتعب الشديد».

ثمّ سلّم (الخاتم) الذي يعبّر عن إمضائه والذي يختم به فتاواه ورسائله إلى من يثق به من المقرّبين منه خشية أن يُسلب منه بعد اعتقاله واستشهاده، فيستغلّ في تزوير ما تحتاج إليه السلطة من فتاوى مثلاً. وكانت الشهيدة السعيدة بنت الهدى (رحمها الله) قد اطّلعت أيضاً على الوضع والحشود الكبيرة المتجمّعة في الزقاق.

كان السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) قد قرّر أن يواجه مدير الأمن بعنف ـ إن جاء لاعتقاله ـ ويُعلن له بصراحة عن موقفه من السلطة وسياستها وممارساتها الوحشيّة ضدّ الإسلام والمسلمين، وكنت قد قلت له ﷺ ما فائدة هذه المواجهة في الوقت الذي نستطيع أن نستوعب هذه الأزمة، ونمرّرها بهدوء؟

فقال ﷺ :

«أُريد أن أُجبر السلطة على قتلي، عسى أن يحرّك ذلك الجماهير للإحاطة بالنظام، وإقامة حكم القرآن في العراق».

وفي الصباح الباكر، والناس نيام، لم نشعر إلّا والباب قد فتحت، وإذا بالمجرم (أبو سعد) مدير أمن النجف يطلب مقابلة السيّد الشهيد ﷺ، ولم تكن هذه الزيارة! غير متوقّعة، أو مباغتة، فقد كانت كلّ الدلائل تُشير إلى أنّ السيّد الشهيد سوف يُعتقل في هذا اليوم، وعلى كلّ حال، اجتمع هذا المجرم بالسيّد الشهيد، فقال: سيّدنا: إنّ القيادة ترغب بالاجتماع بكم.

السيد الشهيد: أنا لا أرغب بالاجتماع بهم.

مدير الأمن: لابدّ من ذلك.

السيد الشهيد: أنا لا أذهب معك، إلّا إذا كنت تحمل أمراً باعتقالي.

مدير الأمن: نعم، أحمل أمراً باعتقالك.

هنا أجابه السيد الشهيد، فقال:

«أيّ سلطة هذه، وأيّ نظام هذا.. إنّكم كمّمتم الأفواه، وصادرتم الحرّيات، وخنقتم الشعب بقوّة الحديد والنار..

تريدون شعباً ميّتاً يعيش بلا إرادة.

تريدون شعباً بلا كرامة..

وحين يُعبّر شعبنا عن إرادته، وحين يتّخذ موقفاً من قضيةٍ مّا، وحينما تأتي عشرات الآلاف من أبناء شعبنا لتعبّر عن ولائها للإسلام والمرجعيّة، تقوم قائمتكم، فلا تحترمون شعباً، ولا ديناً، ولا قيماً، بل تلجأون إلى القوّة لتكمّوا الأفواه، وتصادروا الحرّيات، وتسحقوا كرامة الشعب.

أين الحريّة التي تدّعونها، وجعلتموها شعاراً من شعاراتكم؟

أين هذا الشعب الذي تدّعون أنّكم تدافعون عنه، وتحمون مصالحه؟

أليس هؤلاء الآلاف الذين جاءوا ليعبّروا عن ولائهم للمرجعيّة هم أبناء العراق؟

لماذا يستولي الرعب والخوف على قلوبكم إن عبّرت الجماهير يوماً عن إرادتها ورغبتها ؟ ».

وظلّ السيّد الشهيد ﷺ يواصل هجومه بتوجيه أمثال هذه الاعتراضات إلى مدير أمن النجف الذي كان مضطرباً وقلقاً، وقد وقع تحت تأثير هذه المفاجأة، فلم يتكلّم بشيء، وظلّ ساكتاً.

ثمّ خاطب مدير الأمن، فقال: «هيّا لنذهب إلى حيث تريد».

خرج السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) بشمائل علويّة، وشجاعة هاشميّة وقد صمّم على الشهادة وهو يذكر الله عزّ وجل ويردّد (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر).

كنت مع الإخوة، الشيخ طالب السنجري، والسيّد محمود الخطيب، والحاج

عباس برفقة السيّد الشهيد من البيت وحتّى السيارة، إلّا أنّنا فوجئنا بوالدته العجوز التي كانت لا تقوى على الحركة تجرّ أنفاسها بصعوبة بالغة وهي منحنية الظهر واقفة في الزقاق تخاطب أحد الجلاوزة المجرمين، وتقول له: خذوني مع ولدي، وتفاجئنا بالعلويّة الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) وقد وقفت بقرب السيارة التي كانت مُعدّة لنقل السيّد الشهيد إلى بغداد، ركب (رضوان الله عليه) في السيارة، وفجأة ألقى الشيخ طالب السنجري بنفسه في السيارة، وجلس إلى جانب السيّد الشهيد، وأصرّ على مرافقته إلى مديريّة الأمن العامّة في بغداد رغم تشدّد قوّات الأمن على منعه من ذلك. ورافقه كذلك الأخ السيّد محمود الخطيب.

خطاب الشهيدة بنت الهدى:

كانت الشهيدة الخالدة بنت الهدى (رضوان الله عليها) قد سبقت الجميع إلى حيث تقف سيارة مدير الأمن في شارع الإمام زين العابدين عليه السلام، والتي كانت ستنقل السيّد الشهيد إلى بغداد، وهناك وقفت وكأنّها زينب (سلام الله عليها) في شجاعتها وصبرها وتضحيتها، تخاطب الظالمين الذين احتوشوا أخاها وقد زاد عددهم على ثلاثمائة شخص من قوّات أمن، وأعضاء في حزب البعث، ومرتزقة من هنا وهناك.

وأمام هذا الحشد الكبير ألقت الشهيدة خطبتها فقالت:

«انظروا ـ وأشارت إلى الجلاوزة المدجّجين بالسلاح ورشاشات الكلاشنكوف ـ أخي وحده بلا سلاح، بلا مدافع، بلا رشاشات..

أمّا أنتم فبالمئات مع كلّ هذا السلاح.

هل سألت أنفسكم لِمَ هذا العدد الكبير؟ ولِمَ كلّ هذه الأسلحة؟

أنا أُجيب... والله لأنّكم تخافون... ولأنّ الرعب يسيطر على قلوبكم.

والله إنّكم تخافون؛ لأنّكم تعلمون أنّ أخي ليس وحده، كلّ العراقيين معه، وقد رأيتم ذلك بأعينكم، وإلّا فلماذا تعتقلون فرداً واحداً لا يملك جيشاً ولا سلاحاً بكلّ هذا العدد من القوّات؟

إنّكم تخافون، ولولا ذلك لما اخترتم اعتقال أخي في هذا الوقت المبكّر..

لماذا تجيئون لاعتقاله والناس نيام؟

ممّن تخافون؟.. ومَنْ تخشون؟.. إسألوا أنفسكم؟

ثمّ وجّهت خطابها إلى السيد الشهيد: إذهب يا أخي، فالله حافظك وناصرك، فهذا طريق أجدادك الطاهرين..».[1]

والحقيقة أنّنا لم نكن نعلم أنّ القوّات التي كانت تطوّق منزل السيّد الشهيد بهذا الحجم، فبالإضافة إلى قوّات الأمن حشّدت السلطة عدداً من أعضاء حزب البعث والموظّفين أمثال المجرم مدير تربية محافظة النجف، وعدداً من سواد الناس وعامّتهم، ممّن يعمل معهم في الخفاء، وذلك بهدف تستّر السلطة على نفسها، وإعطاء الاعتقال طابعاً جماهيريّاً، بأن توحي أنّ (الجماهير!) هي التي تصدّت لاعتقال السيّد الشهيد، وكان ذلك بإرادتها وبدافع من نفسها. أو أنّها في حالة مواجهتها لردّ فعل جماهيري قوي يحصل إثر اعتقال السيّد الشهيد، ثمّ تعجز عن قمعه أو السيطرة عليه، ويسبّب لها مشكلة تعجز عن حلّها فتقوم عندئذٍ باعتقال من أرسلتهم لاعتقال السيد الشهيد كأسلوب لامتصاص نقمة الجماهير.

وعلى كلّ حال، فلقد رأيت الحشود الآثمة وهي تلوذ بالفرار عندما كانت الشهيدة تلقي خطبتها، ولم يجرأ أحد منهم على مواجهتها، بل تفرّقوا في الأزقة، ولم يبقَ من حشودهم إلّا ما هو بعدد الأصابع، بينما كان عددهم يزيد على ثلاثمائة فرد.

١ ـ استغرقت خطبتها ما يزيد على عشرة دقائق، وما كتبته أعلاه هو بعض فقراتها.

غادر السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) النجف الأشرف إلى بغداد، وبعده استمرت قوّات السلطة في محاصرتها لمنزله، فكان من الطبيعي أن ينتشر خبر اعتقاله ولو على شكل شائعة في بادئ الأمر، فكان أوّل من تجرّأ على دخول البيت رغم تطويق قوّات الأمن له هو سماحة الأخ حجّة الإسلام والمسلمين السيّد علي أكبر الحائري (حفظه الله)، وهو من تلاميذ السيّد الشهيد الأوفياء والمخلصين، فسألني عمّا جرى، وهل حقّاً قد تمّ اعتقال السيّد الصدر ؟ فقلت : نعم. ثمّ خرج من المنزل متحدّياً الأمن بعد أن طلبوا منه البقاء فيه بهدف اعتقاله فيما بعد، إلّا أنّه قال لهم: خرجت على كلّ حال، وافعلوا ما تشاؤون.

أمّا أنا فقد بقيت في منزل السيّد الشهيد للقيام ببعض المهمّات، كحرق بعض الرسائل، وإتلاف بعض الأوراق التي كان فيها أسماء بعض المؤمنين خوفاً من وقوعها بيد السلطة في حال اقتحام البيت، ولم أكن أعلم بما يجري في داخل النجف، إلّا أنّ العلويّة الشهيدة كانت قد أخبرتني بأنّها ستخرج إلى حرم الإمام علي عليه السلام لتعلن عن خبر اعتقال السيّد الشهيد، وفعلاً خرجت، ثمّ عادت بسرعة، وأخبرتني بأنّ عدد الناس في الحرم كان قليلاً، وأنّها ستذهب حينما يحضر فيه أكبر عددٍ منهم بعد شروق الشمس.

قلت للسيّدة الشهيدة (رضوان الله عليها): المفروض أن تتريّثي قليلاً حتّى يتبيّن الموقف، وتتجلّى الأمور، إنّ خطابك قد فتح لك صفحة خطيرة في ملفّات الأمن، وأنا أعلم أنّك لا تخشين شيئاً، ولكن قد يؤثّر ذلك على السيّد نفسه. فقالت:

«إنّ المسؤوليّة الشرعيّة، والواجب الديني يفرض عليّ اتّخاذ هذا الموقف، إنّ زمن السكوت قد ولّى.. لابدّ أن نبدأ صفحة جديدة من الجهاد.. لقد سكتنا طويلاً، وكلّما طال زمن السكوت كبُرت محنتنا.. لماذا أسكت وأنا أرى مرجعاً

مظلوماً يقع في قبضة هؤلاء المجرمين!! ألم ترهم وقد تجمّعوا عليه كالحيوانات المفترسة؟ لِمَ أصبر؟ إنّ اليوم يوم جهادنا وتضحيتنا».

قلت لها: إنّ هؤلاء المجرمين لا يتورّعون من أن تمتدّ أيديهم القذرة إليك، ويمكن أن يكون مصيرك الإعدام. فقالت:

«الله يشهد، أنّي أتمنّى الشهادة في سبيله، لقد قرّرت أن استشهد منذ اليوم الأوّل الذي جاءت فيه الوفود.. أنا أعرف هذه السلطة، إنّها متوحّشة قاسية مجرمة، لافرق في مقاييسها بين الرجل والمرأة، وبين الصغير والكبير. أمّا أنا، فسواء عندي أن أعيش أو أُقتل ما دمت واثقة أنّ موقفي كان طلباً لمرضاة الله ومن أجله عزّ وجلّ».

لقد كنت استمع للشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) وكأنّها زينب بنت عليّ (سلام الله عليها)، إنّها تتكلّم من أعماقها كلام الواثقة كلّ الثقة بعقيدتها وقضيّتها، كلام من صمّم على الفداء والتضحية.

إنّ الشهيدة السعيدة بنت الهدى جسّدت إيمانها العظيم، واستقامتها وصلابتها الهائلة ليس في حادث اعتقال السيّد الشهيد وحده، بل في طيلة فترة الاحتجاز، وفي يوم اعتقالها، وقبل ذلك في حياتها الشخصيّة، وسلوكها الفردي والاجتماعي، فمذ عرفتها كانت بهذا المستوى الذي لا يرقى إليه إلّا القليل من الرجال والنساء.

وبقيت (رحمها الله) تفكّر فيما يجب أن تفعل في تلك الساعات العصيبة الحرجة، وكأنّها تقول: أنا ابنة علي عليه السلام لن أسكت ،ولن أصبر على الضيم والهوان.

لقد رأيتها تمشي في ساحة البيت، وتتكلّم مع نفسها، وكأنّها تعيش بروحها في عالم آخر، تفكّر في الخطوة القادمة، تنتظر شروق الشمس، وتواجد الزوار في حرم الإمام علي عليه السلام وحين أيقنت أنّ الوقت قد حان، والفرصة قد أتت خرجت

إلى الحرم الشريف، وعند ضريح سيّد المظلومين علي ﷺ نادت بأعلى صوتها:

«الظليمة الظليمة..

يا جدّاه، يا أمير المؤمنين، لقد اعتقلوا ولدك الصدر..

يا جدّاه، إنّي أشكو إلى الله وإليك ما يجري علينا من ظلم واضطهاد..

ثمّ خاطبت من كان في الحرم الشريف، فقالت:

«أيّها الشرفاء المؤمنون، هل تسكتون وإمامكم يُسجن ويُعذب؟

ماذا ستقولون غداً لجدّي أمير المومنين إن سألكم عن سكوتكم وتخاذلكم؟

اخرجوا وتظاهروا واحتجّوا..».

فجاء أحد خدّام الحضرة الشريفة ممّن يعمل للسلطة، وحاول منعها، فنهرته، وصرخت بوجهه. ثمّ قام إليه بعض من كان في الحرم، فانهالوا عليه بالضرب، فولّى هارباً.

لقد ذكّرتني الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) بموقف زينب حينما رأت الحسين ﷺ وقد خذله القريب والبعيد، إلّا القليل ممّن ثبّته الله على الهدى، فقامت تذبّ عنه، وتدافع عنه، وهي مثقلة بعياله وأطفاله، وهكذا كانت ـ والله ـ بنت الهدى، تذبّ عن أخيها وتنصره بعد أن خذله من كان يدّعي أنّه يفديه بالغالي والنفيس، وهي مع ذلك مثقلة كزينب (سلام الله عليها) بالعيال والأطفال، وبأُمٍّ أنهكها المرض، وحطّمتها المصائب والهموم، فقدت في شبابها الكثير من الأولاد، وها هي في شيخوختها على وشك فقد أعزّ أبنائها.

أمّا ما حدث في خارج البيت، فقد كتب عنه سماحة السيّد علي أكبر الحائري (حفظه الله) ما يلي:

«عندما أُعتقل السيّد الشهيد ﷺ في ساعة مبكّرة من صباح يوم السابع عشر من رجب سنة (١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م)، كانت الشهيدة بنت الهدى أوّل من

خرجت لإشاعة هذا النبأ، وكسر طوق التعتيم البعثي الذي كانوا يخيّمونه على جرائمهم، فنظقت صارخة في حرم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وأدّت دورها البطولي الرائع في إبلاغ خبر اعتقال هذا المرجع العظيم من قبل جلاوزة السلطة الغاشمة. وسرعان ما اشتهر هذا النبأ في أوساط المؤمنين المخلصين للسيّد الشهيد في النجف الأشرف، وكان الخبر في بادئ الأمر على شكل شائعة غير مؤكّدة، وكان جلاوزة الأمن واقفين على باب دار السيّد الشهيد يراقبون الأوضاع عن كثب خشية وقوع حادثة، أو ردّ فعل معيّن.

وبعد التأكّد من الخبر وقع الاضطراب والبلبلة في أوساط المؤمنين، وكانت تخيّم علينا حالة التحيّر والشك في الوظيفة العمليّة، رغم إحساس الجميع بضرورة وقوع ردّ فعل جماهيريّ عظيم تجاه هذه الجريمة النكراء التي قامت بها السلطة الظالمة، ولكن كلّ يقول ماذا نصنع؟ كيف نتحرّك؟ ما هي الوظيفة؟ ما هو الأُسلوب؟

وأنا بدوري شعرت أيضاً بأنّ هذه ساعة حرجة، لابدّ فيها من اتّخاذ موقف سريع، فذهبت مع أحد الأُخوة المؤمنين ـ من طلاب السيّد الشهيد ـ إلى بيت شخص آخر من زملائنا الأعزّاء، فعقدنا هناك اجتماعاً ثلاثياً للتخطيط حول ما يجب صنعه في هذه الساعات الحرجة، فكانت نتيجة هذا الاجتماع هو التصميم القاطع بتنظيم مظاهرة جماهيريّة للاحتجاج على هذه الجريمة النكراء، مع وضع الخطة الكاملة من حيث تعيين مكان التجمّع، وساعة الانطلاق، وكيفيّة الإعداد، فقد عيّنا الحرم الشريف مكاناً للتجمّع، وصمّمنا على الانطلاق، من هناك على رأس الساعة العاشرة بعد قراءة دعاء الفرج ـ وإنّما اخترنا دعاء الفرج من بين الأدعية المأثورة باعتبار أنّ هذا الدعاء ينتهي باسم الإمام الحجّة عجّل الله فرجه، وسيقوم الناس بطبيعتهم احتراماً لاسم الإمام عليه السلام، فيكون هذا القيام إعداداً للانطلاق في المظاهرة. ـ وهكذا كان، فقد خرجت أنا وصاحبي من بيت ثالثنا لنبلّغ المؤمنين بهذا القرار، فمررنا بأكثر المدارس العلميّة في

النجف، وبلّغنا من وجدنا فيها من الطلاب والمؤمنين، والتقينا بمن التقينا من المؤمنين أيضاً في الطرق والشوارع وبلّغناهم الأمر.

ولمّا قرب الموعد ذهبت إلى الحرم الشريف، وانتظرت هناك إلى أن حان الوقت، واجتمع عدد من المؤمنين، فشرعت بقراءة دعاء الفرج، وكان الجميع يردّدون معي جملة جملة، إلى أن بلغنا اسم الإمام الحجّة (عجل الله تعالى فرجه الشريف) فقمنا جميعاً إجلالاً له ﷺ، ثمّ بدأت الشعارات: الله أكبر الله أكبر، نصر من الله وفتح قريب، عاش عاش عاش الصدر... وانطلقت المظاهرة بركضة سريعة.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى مشاركة المرأة المسلمة العراقيّة في هذه الانتفاضة، حيث حضر عدد من المؤمنات الرساليّات في الحرم الشريف، واشتركن في بداية المظاهرة، إلّا أنّ سرعة المظاهرة منعتهنّ عن إمكان الالتحاق بالرجال عند الخروج من الحرم الشريف، فتفرقن بطبيعة الحال، وتعرّض بعضهم إلى المراقبة والملاحقة من قبل أعضاء جهاز الأمن الإرهابي في العراق.

ولمّا انطلقت المظاهرة التحق بنا جمع غفير من المؤمنين من خارج الحرم الشريف، وسرعان ما اتّسع العدد أيضاً عندما دخلت المظاهرة شارع الإمام الصادق ﷺ.

وحاولت أجهزة الأمن الإرهابيّة بشتّى الأساليب أن تفرّق المتظاهرين منذ خروجهم من الصحن الشريف فلم تستطع، حتّى اقتحمت سيارة الأمن جموع المتظاهرين وهم في شارع الإمام الصادق ﷺ، فلم تحصل إلّا على ضربات قاسية على زجاجها من قبل المتظاهرين.

ثمّ واصلت المظاهرة طريقها في شارع الإمام الصادق ﷺ إلى أن واجهت قوى أمنيّة مكثّفة من جهة الأمام، فحرفت مسيرها إلى جهة السوق الكبير من أحد الأزقة المؤدّية إليه، ولمّا دخلنا السوق وجدنا المحلات كلّها معطلة،

فواصلنا السير في داخل السوق إلى أواخر السوق، حيث وقع الاشتباك بين المتظاهرين وجهاز الأمن الإرهابي، رغم تجرّد المتظاهرين من كلّ سلاح. وتعالت أصوات إطلاق الرصاص من قبل الجلاوزة. ثمّ رجع المتظاهرون في داخل السوق باتّجاه الحرم الشريف، حيث كان الجلاوزة ينتظرونا على مدخل السوق، فاضطررنا إلى الرجوع مرّة أُخرى من إحدى الأزقة إلى شارع الإمام الصادق عليه السلام، وبدأ التفرّق من هناك، حيث هرب من هرب، وأُلقي القبض على الباقين.

ثمّ بدأت عمليّة إلقاء القبض على الناس بصورة عشوائيّة في أكثر شوارع النجف الأشرف، ممّا يدلّ على مدى الرعب والوحشيّة التي أُصيب بها الجلاوزة إثر هذه المظاهرة»[1].

وكان لهذه التظاهرة رغم عفويّتها في التخطيط والتنفيذ ـ بالغ الأثر في إجبار السلطة على الإفراج عن السيّد الشهيد، وتأجيل تنفيذ حكم الإعدام فيه، وقد نقل لنا المرحوم السيّد علي بدر الدين أنّ برقيّة أُرسلت من السلطات المحليّة في النجف الأشرف إلى أحمد حسن البكر ذُكر له فيها أنّ تظاهرات كبيرة خرجت في النجف الأشرف احتجاجاً على اعتقال السيّد الشهيد، وأنّ الأوضاع فيها على وشك الانفجار.

وقد حدّثني السيّد الشهيد رحمه الله: أنّ أُسلوب فاضل البّراك مدير الأمن العام كان قاسياً، ولهجته فَضّة حينما كان يستجوبني، وفي أثناء ذلك دخل عليه شخص، فسلّمه ورقة صغيرة، فلمّا قرأها غيّر من أُسلوبه معي في التحقيق، وبعد ذلك بدقائق دقّ جرس الهاتف، وبدى لي أنّ المتحدّث معه كان شخصيّة كبيرة، إذ كان فاضل البّراك يُجيب بعبارات من مثل: نعم سيدي، أمرك سيدي، وما شابه ذلك.

١ ـ هامش كتاب (مباحث الأُصول)، ج١ من القسم الثاني، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

وقد علمنا فيما بعد أنّ المتحدّث كان هو المقبور أحمد حسن البكر رئيس الجمهوريّة آنذاك.

قال السيّد الشهيد:

«شعرت أنّ شيئاً ما قد حدث غيّر من مجرى التحقيق معي، وإن كنت لا أعرف حدوده، إلى أن قال لي فاضل البرّاك: ماذا فعلنا حتّى تخرج تظاهرات في النجف والكاظميّة احتجاجاً على ما يسمّونه اعتقالاً لكم. إنّ هذه زيارة وليس اعتقالاً!!!».

وكان المجرم (أبو أسماء) مساعد مدير الأمن العامّ ـ وهو تركماني وعضو في حزب البعث العربي!! ـ أوّل من استقبل السيّد الشهيد في مديريّة الأمن العامّة في بغداد، وقال له بلهجة ساخرة: (سيدنا ضعفان)، فأجابه ﴿﴾ بلهجة خشنة: «كلا، لست كذلك، أنا طبيعي جدّاً».

وكان ردّ الفعل الجماهيري على اعتقال السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) سريعاً وقويّاً؛ وذلك لأنّنا تمكّنا من إخبار أحد تلاميذ السيّد الشهيد في إيران بخبر الاعتقال، وهو بدوره أبلغ وكالات الأنباء العالميّة، ومنها وكالة أنباء الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران التي بثّت الخبر، وأذاعه راديو طهران بقسميه الفارسي والعربي، وبهذا الأسلوب تمكّنا من نشر الخبر على أوسع نطاق، وكان طريقنا للاتّصال يتمّ من خلال هاتف سماحة الأخ حجة الإسلام والمسلمين السيد محمّد باقر المهري، الذي كان قد هاجر من العراق، وترك لنا منزله للاستفادة من الهاتف الذي لم يكن تحت المراقبة.

ولهذا السبب فإنّ ردود الفعل على حادث الاعتقال شملت عدّة مُدن في وقت واحد تقريباً، كان منها النجف، والسماوة، وديالي، والثورة، وجديدة الشط، والكاظميّة، وناحية الفهود، وغيرها من المدن، ممّا أرعب السلطة وأقلقها، والفضل

في ذلك كلّه يعود إلى وسائل الإعلام [١].

وعلى كلّ حال، فإنّ فاضل البرّاك غيّر من أسلوبه في التحقيق، فقال للسيّد الشهيد: لم يكن هدفنا اعتقالكم، بل أحببنا أن نتعرّف بشكل مباشر منكم على الأحداث.

فقال له السيّد الشهيد؛: وهل يتطلّب ذلك طرح هذا العدد الكبير من الأسئلة، وبهذا الأُسلوب. ثمّ هل يستدعي ذلك تطويق بيتي من العصر حتّى الصباح، وبهذا العدد الكبير من القوّات.

فقال: إنّ هذا الخطأ ارتكبه مدير أمن النجف، وكنّا قد قلنا له: إنّنا نريد أن نستفسر من السيّد الصدر عن بعض الأُمور، وطلبنا منه أن يصحبكم إلى بغداد بكلّ احترام!! ثمّ قال: إن أحببت العودة إلى النجف فأنت حرّ، وأهلاً بك.

قال لي السيّد الشهيد؛:

«رفضت الإفراج عنّي والعودة إلى النجف، إلّا إذا أُفرج عن مرافقيّ، وعن جميع الذين اعتقلوا في هذه الأحداث فقال فاضل البرّاك: أمّا المرافقان فنعم، سيفرج عنهما فوراً. وأمّا الآخرون فإنّ هذا يحتاج إلى قرار من السلطات العليا».

ووعد السيّد الشهيد أن يتوسّط شخصيّاً لدى رئيس الجمهوريّة أحمد حسن البكر للإفراج عنهم. وذكر أيضاً أنّ قسماً منهم قد قَتَلَ أو جَرَحَ عدداً من قوّات الأمن، فلا يمكن لمديريّة الأمن الإفراج عنهم؛ لأنّه خارج عن صلاحيّاتها.

لم يقتنع السيّد الشهيد بكلامه، ولم يثق بوعده. فرفض العودة إلى النجف إلّا

١ ـ كان السيّد الشهيد؛ يخطّط قبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران لشراء وقت محدود، كنصف ساعة مثلاً من إذاعة (مونت كارلو) لنشر الثقافة الإسلاميّة، والدعوة إلى الإسلام، وكان ـ على ما أتذكّر ـ قد كلّف أحد الإخوة من الطلبة اللبنانيين بدراسة إمكانيّة تنفيذ هذا المشروع إيماناً منه بأهميّة الإعلام، ودوره في خدمة القضايا الإسلاميّة.

بعد تنفيذ هذا الشرط. هنا حاول البرّاك أن يتوسّط وبحضور السيّد الشهيد، إلّا انّ محاولته فشلت، وأقسم أمام السيّد الشهيد على أن يفرج عنهم في أقرب فرصة ممكنة.

عاد السيّد الشهيد إلى النجف الأشرف، فأخبرته بأنّ اعتقالات واسعة شملت وكلاءه وعدداً كبيراً من المؤمنين، وخاصّة أُولئك الذين اشتركوا في وفود البيعة، فقال لي:

«كان ظنّي أنّ ذلك قد حدث وأنا في مديريّة الأمن العامّة: لأنّي أعلم أنّ السلطة لن تكتفي باعتقالي فقط، بل إنّها ستعتقل عدداً كبيراً من المؤمنين».

ثمّ أمر (رضوان الله عليه) سماحة الأخ حجّة الإسلام السيّد محمود الخطيب (حفظه الله) أن يتّصل بفاضل البرّاك، ويطالبه باسم السيّد الشهيد بالإفراج عن جميع المعتقلين. وفعلاً فقد تمّ الإفراج عن عدد كبير منهم، واحتجز آخرون.

وكان ممّن اعتقل إثر انتفاضة رجب ثلّة من العلماء الأفاضل، وقد استشهد بعضهم فيما بعد خلال فترة الاحتجاز، وهنا أذكر أسماء البعض ممّن استشهدوا أو اعتقلوا على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ آية الله المجاهد الشهيد السيد قاسم شبّر ﷺ. ويعتبر هذا السيد الجليل (شيخ الشهداء)، استشهد وعمره قد جاور التسعين.

٢ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام السيد قاسم المبرقع.

٣ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام الشيخ عبد الجبار البصري.

٤ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام الشيخ سامي طاهر العلي.

٥ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام الشيخ محمّد علي الجابري.

٦ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام الشيخ عبد الجليل مال الله.

٧ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام السيد محمّد حسين المبرقع.

٨ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام السيد عبد الرحيم الياسري.
٩ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام الشيخ عبد الأمير الساعدي.
١٠ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام الشيخ خزعل السوداني.
١١ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ مهدي السماوي.
١٢ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام الشيخ محمّد يونس الأسدي.
١٣ ـ الشهيد السعيد حجّة الإسلام السيد عزالدين الخطيب.
١٤ ـ سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ حسن عبد الساتر.
١٥ ـ سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ عفيف النابلسي.
١٦ ـ سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيد حسين السيد اسماعيل الصدر.
١٧ ـ سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيد حسين السيد هادي الصدر.
١٨ ـ سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيد علي أكبر الحائري.
١٩ ـ الشهيد سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ عبد الرحيم فرج الله.

وقائع التحقيق:

يقول السيّد الشهيد (رضوان الله عليه): «إنّ كلّ الدلائل كانت تُشير إلى أنّ السلطة كانت عازمة على إعدامي، وكان فاضل البرّاك متشنّجاً، مكفهرّ الوجه، خشن المعاملة».

وأنا هنا أذكر بعض ما سمعته من السيّد الشهيد ﷺ فيما يتعلّق بالتحقيق الذي جرى معه في يوم (١٧) رجب عام ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩م.

فاضل البرّاك: ماهي علاقتكم بالسيّد الخميني؟

السيّد الشهيد: علاقة العالِم بالعالِم.

البرّاك: الخميني سياسي، وليس بعالم.

السيّد الشهيد: أنا لازلت أعتقد أنّه عالم ديني، ومرجع من مراجع المسلمين.

البرّاك: الخميني زعيم دولة، ونحن نعتبر أيّ علاقة به خارج القنوات الدبلوماسيّة للدولة العراقيّة نوعاً من العمالة.

السيّد الشهيد: فسّروا ذلك بما شئتم، أمّا أنا، فسيبقى السيد الخميني في نظري مرجعاً من مراجع المسلمين.

البرّاك: لماذا أصدرت بيانات تؤيّد فيها الثورة الإسلامية في إيران؟

السيّد الشهيد: واجبي الشرعي فرض عليَّ ذلك، وليس فيها ما يضرّكم.

البرّاك: هذا شأن الدولة، لا المواطنين.

السيّد الشهيد: ما صدر منّي لا يخالف سياسة الدولة، أنتم تقولون نحن نؤيّد الثورة الإسلاميّة، وهذا الموقف ينسجم مع موقفكم.

البرّاك: إنّنا نعتبر ذلك تجاوزاً للسلطة والقانون، إلّا إذا تمّ بإشرافنا وموافقتنا، ومن خلال القنوات الدبلوماسيّة.

السيّد الشهيد: أنا عملت بتكليفي الشرعي والأخلاقي، وليس وراء ذلك أهداف أو أغراض سياسيّة.

البرّاك: ما هو الهدف من زيارتك لبيت السيّد الخميني في اليوم الذي غادر فيه العراق؟

السيّد الشهيد: هكذا هي العلاقة بين العلماء. لقد ذهبت لتوديعه، وهذا يؤكّد ما قلته سابقاً من أنّ علاقتي بالسيّد الخميني قائمة على أُسس غير سياسيّة، إنّ زيارتي له كانت قبل انتصار الثورة.

البرّاك: ماذا يعني السيّد الخميني بالبرقيّة التي بعثها لك؟

السيّد الشهيد:....... (لا جواب).

البرّاك : أين السيّد محمود الهاشمي ؟ علمنا أنّه ذهب إلى إيران ليمثّلكم هناك ؟

السيّد الشهيد : ...... (لا جواب) .

البرّاك: ألا يُعتبر إرسال السيّد محمود الهاشمي إلى إيران عمليّة تحريض ضدّنا؟

السيد الشهيد: فسّروا ذلك بما شئتم.

البرّا ك: الوفود التي جاءت إلى النجف، من نظّمها ؟ ومَن يقف خلفها ؟ وما هو الهدف منها؟

السيد الشهيد: الشعب العراقي كان وراءها، وهو الذي نظّمها، جاءوا يطلبون منّي البقاء بينهم.

البرّاك: وهل كنت تنوي مغادرة العراق؟

السيد الشهيد: كلا.

البرّاك: إذاً ألا تعتبر أنّ ذلك تحريض مدروس، واتّفاق مسبق بينك وبين السيّد الخميني، قام بتنسيقه السيّد محمود الهاشمي للإطاحة بالسلطة عن طريق تحريض الجماهير علينا؟

السيد الشهيد: ليس بيننا اتّفاق على شيء.

البرّاك: إذاً لماذا طلب منك البقاء في العراق؟ هل لكي تقود الثورة ضدّنا بمساعدة إيران [١].

---

١ ـ في خطاب للمجرم صدام التكريتي ـ مسجّل على شريط فيديو ـ شتم فيه السيّد الشهيد، وعبّر عنه بـ (المقبور)، واشار فيه إلى ذلك الانطباع عن السيّد الشهيد على أنّه ينوي قيادة الثورة في العراق للإطاحة بالحكومة بتحريض من إيران.

السيّد الشهيد: ليس لإيران، ولا لأيّ دولة أُخرى يد في ذلك، كلّ الذين جاءوا هم من أبناء العراق، وأنتم تعرفون ذلك.

البرّاك: إنّنا نعتبر ذلك تحريضاً للشعب للإطاحة بالحزب والثورة.

السيّد الشهيد: أنتم تقولون نحن أقوياء بما فيه الكفاية، فهل يستطيع هؤلاء الإطاحة بالثورة من خلال تظاهرات سلميّة غير مسلّحة، وفي النجف؟

البرّاك: لقد ثبت لدينا أنّكم تحرّمون الانتماء لحزب البعث؟

السيّد الشهيد:.....(لا جواب).

البرّاك: إنّ كلّ واحدة من هذه الأُمور تستحقّ عليها الإعدام.

السيّد الشهيد: أنا في قبضتكم، فافعلوا ما شئتم.

وهنا دخل أحد الأشخاص وسلّم البرّاك ورقة صغيرة، ثمّ دقّ جرس الهاتف، وبعدها أُفرج عن السيّد الشهيد كما ذكرنا.

أمّا الاعتقال الرابع الذي انتهى إلى الاستشهاد، فسوف نتحدّث عنه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

محاولات الاغتيال التي تعرّض لها

من التاريخ غير المعروف للسيّد الشهيد (رضوان الله عليه) هو محاولات الاغتيال التي تعرّض لها، أو التي خطّط لها النظام، ولم يتمكّن من تنفيذها، وسوف أُسجّل أهمّ تلك المحاولات تخطيطاً وتنفيذاً.

المحاولة الأُولى:

كان المفروض أن تُنفّذ هذه المحاولة بعد فترة قصيرة من اليوم الذي أُفرج فيه عن السيّد الشهيد بعد أحداث رجب، فقد اتّصل المجرم فاضل البرّاك وكذلك مساعده المجرم (أبو أسماء) بعد وصول السيّد الشهيد إلى النجف فطلبا أن يعود السيّد الشهيد إلى وضعه السابق من التدريس ومقابلة الناس، وألحّا في الطلب على قاعدة «يكاد المريب أن يقول خذوني» ممّا أثار لدينا الشكوك في النوايا الحقيقيّة من هذا الطلب.

بعد ذلك ونحن في الاحتجاز علمنا من المرحوم السيّد علي بدر الدين أنّ السلطة كانت قد أعدّت مخطّطاً لاغتيال السيّد الشهيد، وكانت الخطّة تقضي بأن يُفتعل شجار بين بعض أفراد الأمن في سوق العمارة، أو في الطريق الذي يمرّ منه السيّد الشهيد، وأثناء الشجار والعراك يطلق أحدهم النار في الوقت المناسب باتّجاه السيّد الشهيد ويؤدّي ذلك إلى قتله خطأً حسب الخطّة، ثمّ تقوم السلطة بإعدام القاتل، وبذلك العمل تتخلّص من أعتى وأعند معارض لها.

وفي الفترة التي رفعت فيها السلطة الحجز جزئيّاً طلب مدير أمن النجف المجرم (أبو سعد) من السيّد الشهيد العودة إلى وضعه الطبيعي، وكان ذلك لنفس

الهدف.

وكان أحد أفراد قوّات الأمن المحيطين بمنزل السيّد الشهيد قد سأل ـ في تلك الفترة ـ الحاج عباس عن الوقت الذي سيخرج فيه السيّد الشهيد لزيارة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، بل كان بعضهم يقول له: لماذا لا يخرج السيّد الصدر، لقد رفعت السلطة الحجز عنه، قل له فليخرج. وبسبب هذا الإلحاح أدرك الحاج عباس رغم بساطته أنّ السلطة تنوي إنهاء حياة السيّد الشهيد، ولم يكن على علم بأنّ السيّد علي بدر الدين قد أخبرنا بذلك.

المحاولة الثانية:

قام بها النظام بواسطة عميله المجرم (......) وهو عطّار يمتلك دكّاناً في سوق العمارة في النجف الأشرف، وكان يتظاهر بالتديّن والالتزام، والاهتمام البالغ بشعائر الإمام الحسين عليه السلام .

بدأت محاولة تنفيذ هذه العمليّة عندما أُصيب السيّد الشهيد رحمه الله بألم في مفصل رجله اليسرى، فطلب من خادمه الحاج عبّاس شراء دهن (الفكس) المعروف لعلاج مثل هذه الأوجاع.

ذهب الحاج عباس، واشترى الدهن من هذا العطّار، وفي أثناء ذلك سأله: لمن هذا الدواء؟ فقال الحاج عبّاس: السيّد يشكو من ألم في رجله اليسرى، وهذا الدواء له.

في اليوم الثاني وبينما كان الحاج عبّاس يمرّ من أمام دكّانه ناداه بعد أن التفت يميناً وشمالاً، ليوهم الحاج عباس بأنّه يريد أن يطمئن من خلوّ المكان من شرطة الأمن حذراً وخوفاً من أن يكونوا على مقربة منه، فناوله جهازاً صغيراً وقال له: إنّ أخي طبيب وقد أعطاني هذا الجهاز وهو خاصّ بمعالجة أوجاع

الرجل، فاعطه للسيّد الصدر، وقل له أن يضعه في جيب القباء (الصاية) المحاذي لرجله المصابة، فانّه لا يمرّ عليه يوم وليلة إلّا ويشفى من كلّ الأوجاع.

استلم الحاج عباس الجهاز، وجاء به إلى البيت، وكنت قبل ذلك قد أطلعته على وجود أجهزة لإرسال واستراق الصوت وحذّرته من الحديث معي إلّا في الأماكن التي حدّدتها له، وكان منها غرفة مكتبة السيّد الشهيد.

جاء الحاج عباس وكنت جالساً في المكتبة فأخبرني بما جرى، وكان قد وضع الجهاز في إحدى الغرف التحتيّة. فقلت له: اذهب وأتني به، وضعه أمامي من دون أن تتكلّم بشيء حتّى السلام.

لقد كنت أتوقّع أنّه جهاز لاستراق الصوت.

ثمّ أخبرت السيّد الشهيد وأُخته الشهيدة (رضوان الله عليهما) فشاهدا الجهاز، وكنّا أثناء ذلك لا نتكلّم وكنّا نتخاطب عن طريق الكتابة.

كان اسطواني الشكل، طوله أقلّ أو أزيد من عشرة سانتيمترات، وتوجد في كلّ طرف من طرفيه عدسة زجاجيّة تشبه عدسة آلة التصوير إذا نظرت من أيّهما لاترى الطرف الآخر، قمت بفتح الجهاز بصعوبة كبيرة، فوجدت في داخله جهازاً للتوقيت متّصلاً بمادّة متفجّرة مكبوسة داخل وعاء معدني، وجهاز التوقيت يسير بحركة لولبيّة باتّجاه نقطة معيّنة، ولم أعثر على قطع الكترونيّة تدلّ على أنّه جهاز لاستراق الصوت.

شاهد السيّد الشهيد ﵁ محتويات الجهاز، وأيقنّا جميعاً بأنّه متفجّرة موقوتة، فقال: لعنك الله يا...... إذا كنت تريد قتلي، فما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين أنهكهم الحجز وحرمهم من أبسط ما يتمتّع به الأطفال. وكان (رضوان الله عليه) يتسلّى بأطفاله في فترة الحجز وهم يتسلّون به بعد أن حرمهم النظام من كلّ حقّ لهم في الحياة، وها هو اليوم يبعث لهم بمتفجّرة ليبيدهم وهم في المحنة.

قلت للسيّد الشهيد: ماذا أفعل بالجهاز، هل أدمّره؟ فقال: كلا ارجعه إليه. قلت له: فلنقتله به، قال: أنت وشأنك.

وبقيت أُراقب جهاز التوقيت وهو يتحرّك باتّجاه النقطة المعدنيّة المفروض أنّه سينفجر إذا اتّصل بها، وكنت قد خمّنت أنّ ربع ساعة هي المتبقّية لانفجاره، فقمت بشدّه وإعادته إلى حالته الأُولى، ثمّ أخذه السيّد الشهيد وأعطاه للحاج عباس، وقال له: قل لـ......: إنّ السيّد لايحتاج إلى هذا العلاج.

أخذه الحاج عباس ـ وهو لا يعلم أنّه متفجّرة ـ وسلّمه لـ........ وهنا كانت المفاجأة، لقد قفز........ وراح يركض بسرعة، وترك دكانه مفتوحاً وهو بحالة من الرعب والخوف الشديدين.

جاءني الحاج عباس، وقال لي: إنّ........ أُصيب بالجنون عندما سلّمته الجهاز، فعل كذا وكذا، ولم يكن أحد من قوّات الأمن في السوق كي يخشى إلى هذا الحدّ. وكان الحاج عباس يظنّ أنّ هذا الشخص فعل ذلك خوفاً من قوّات الأمن.

وهكذا فشلت هذه المحاولة القذرة التي أرادت السلطة تنفيذها على يد شخص هو أبعد ما يكون ـ حسب الظاهر ـ عن أجواء الشكّ والريبة، وعن العمل مع أجهزة السلطة الإرهابيّة، خاصّة أنّه لا يحمل الجنسيّة العراقيّة، بل كان معرّضاً للتسفير في أيّ وقت.

المحاولة الثالثة:

بعد فشل تلك المحاولة سعت السلطة إلى القيام بعمليّة إبادة جماعيّة للسيّد الشهيد وعائلته، وكادت هذه العمليّة أن تنجح لولا رحمة الله ـ عزّ وجلّ ـ.

ونُفّذت هذه العمليّة بالشكل التالي:

أمرت أجهزة الأمن مصلحةَ المياه بفتح أُنبوب الماء الكبير الذي يغذّي المنطقة التي يقع فيها منزل السيّد الشهيد من أقرب نقطة من المنزل بحيث يتمّ ضخّ الماء تحت منزل السيّد الشهيد، واستمرّ ضخّ الماء بقوّة كبيرة لمدّة عشرين ساعة تقريباً ـ وهي المدّة التي قُطع الماء فيها في ذلك اليوم عن المنطقة ـ، وكان المفروض أن يكفي ذلك لانهيار المنزل على من فيه. ولم نكن نعلم في ذلك الوقت بما حدث، إلّا أنّنا لاحظنا حركة غير طبيعيّة لقوّات الأمن التي كانت تحاصر منزل السيّد الشهيد، فقد ابتعدوا عن المكان حتّى أنّنا استغربنا من خلوّ الزقاق منهم، وكان المارّ يظنّ أنّ الحجز قد رفع.

في اليوم الثاني لاحظنا أنّ السرداب قد هوى بأكمله إلى الأسفل مسافة لا تقلّ عن خمسة أمتار، وبقي البيت معتمداً على بعض الأعمدة وكأنّه معلّق في الهواء. وكان منظراً مخيفاً، لا ندري في أيّ لحظة سينهار ويقتل كلّ من فيه.

ولمّا لم يحدث ذلك اضطرّت السلطة إلى فحص الزقاق الذي يتواجد فيه أفراد الأمن عن طريق حفر عدّة أماكن من الزقاق لمعرفة ما إذا كان قد حصلت فيه انهيارات أرضيّة تحت التبليط أو لا. فلمّا تأكّدت من عدم وجود خطر أمرت قوّاتها بالعودة إلى أماكنهم الأُولى.

وكان قد أُشيع ونحن في الحجز أنّ السلطة وجّهت أشعة قاتلة من مكان قريب من المنزل باتّجاه بيت السيّد الشهيد لقتله، ولم يتيسّر لنا التأكّد من صحّة تلك المعلومة أو نفيها.

المحاولة الرابعة:

وأراد أنّ ينفّذها ضابط في الجيش، أو المخابرات العسكريّة، وكان بيته مجاوراً لمنزل السيّد الشهيد (رضوان الله عليه)، فقد اتّفقت معه السلطة على أن يقوم بدور

المفاوض حول فكّ الحجز عن السيّد الشهيد، ثمّ يقوم بقتله في داخل البيت.

وهذا الرجل الذي هداه الله ـ تعالى ـ فيما بعد ونال درجة الشهادة كان لا يعرف السيّد الشهيد رغم الجوار، والسبب يعود إلى قلّة تواجده في النجف، وكان يظنّ أنّ (السيّد كاظم الكفائي)[1] هو السيّد الشهيد الصدر، وكان يعلم أنّ الكفائي ممّن يسهل قتله، فأعلن عن استعداده للقيام بعمليّة الاغتيال.

وفي يوم من الأيام جاء يطلب موعداً من السيّد الشهيد على أساس أنّه مبعوث من قبل السلطة، ولم نكن نعرف حقيقة هذا الشخص، وأنّه يسكن في دار مجاورة لمنزل السيّد الشهيد رحمه الله فلمّا التقى بالسيّد الصدر أُصيب برعدة شديدة، وظلّ يرتجف كالسعفة، ممّا أثار استغراب السيّد الشهيد رحمه الله، فسأله عن سبب ذلك، فقال: سيّدي، إنّ السلطة بعثتني لقتلك، وهذا المسدّس أحمله لتنفيذ هذه المهمّة، أمّا الآن فمن المستحيل أن أفعل ذلك، إنّني أهتزّ من أعماقي، ولا أعرف السبب، أرجو منك المعذرة، فقد كنت أتصوّر أنّ الهدف المطلوب هو كاظم الكفائي.

سأله السيّد الشهيد: كيف حدث ذلك، وكيف تمّ اختياركم لتنفيذ الاغتيال؟

فقال: جاء ضابط كبير من المخابرات، فجمع الضبّاط الشيعة من أهل النجف، وقال لنا: هناك عميل لإيران، وعدوّ للثورة في النجف، من منكم على استعداد لاغتياله في بيته؟ فقلت له: أنا مستعدّ لذلك، وحينئذٍ كلّفوني بهذه المهمّة، ووعدوني بمنصب كبير بعد إنجازها، وأنا الآن أتوب إلى الله ـ تعالى ـ على يدكم، وسوف انتقم منهم بكلّ ما يتاح لي من وسائل.

هذه أهمّ محاولات الاغتيال التي تعرّض لها السيّد الشهيد تخطيطاً أو تنفيذاً.

١ ـ الكفائي أحد الأشخاص المتلبّسين بلباس الدين، وهو يعمل للسلطة ويدور في فلكها، وهو معروف بذلك لدى معظم أهالي النجف.

المراقبات الأمنيّة ضدّه ﷺ

منذ أن عسعس ليل البعث على العراق هرعت كلاب السلطة لتنتشر في كلّ مكان، ترصد الشرفاء والأخيار من أبناء العراق، وتحصي عليهم كلّ صغيرة وكبيرة، ولا أعتقد أنّ بلداً من بلدان العالم يملك منظّمة للتجسّس والإرهاب ضدّ شعبه ومواطنيه، وخاصّة الشرفاء وأصحاب المبادئ منهم مثل العراق.

لقد شكّل نظام البعث الحاكم في العراق مؤسّسة إرهابيّة لقمع الشعب سمّاها (مديريّة الأمن العامّة)، وشكّل أخرى باسم (الاستخبارات العسكريّة)، لقمع الجيش والقوّات المسلّحة، وشكّل منظّمة أُخرى لمراقبة تلك المنظّمات سمّاهاالعلاقات العامّة لمجلس قيادة الثورة والتي تحوّلت إلى جهاز المخابرات الذي يشرف عليه شخص صدّام، هذا بالإضافة إلى حزب البعث نفسه الذي حوّله إلى مؤسّسة أمنيّة هدفها التجسّس وقمع الشعب وكذلك المنظّمات المهنيّة كاتحاد النساء والطلبة والعمّال والجمعيّات الفلاحيّة، مضافاً إلى منظّمة الجيش الشعبي الذي أراد بها ضبط موظفي الدولة وتسخير إمكاناتهم في خدمة القمع والتجسّس. وتفنّن في عمل تلك التشكيلات، وأساليب قمعها للناس.

وتجاوزت سلطة البعث (القانون) حيث وضع جميع الصلاحيّات التشريعيّة والقضائيّة والتنفيذيّة بيد ما يسمّى بمجلس قيادة الثورة الذي شكّل في الغالب من أعضاء القيادة القطريّة لحزب البعث. فلا مانع من اعتقال أيّ أحد، أو اقتحام بيته، أو سجنه، أو إعدامه ومصادرة أمواله، أو ما تشاء من ظلم وتعسّف على أساس أنّ القانون هو قرار مجلس قيادة الثورة ورئيسه والأجهزة المخوّلة منه. وتبرير كلّ ذلك بفكرة الخطر المحدق بثورة تمّوز من قبل الصهيونيّة والإمبرياليّة والرجعيّة!!

ولا زال هذا الخطر، وسيبقى ما دامت السلطة تحكم العراق!

وكان من الطبيعي أن تتكثّف طاقات السلطة وتتوحّد جهودها تجاه السيّد الشهيد (رضوان الله عليه)، الذي يعتبر ألدّ أعداء الفكر المادّي الصـليبي الذي يـحكم العراق.

واتّخذت المراقبة الأمنيّة صوراً متعدّدة، وأشكالاً مختلفة حسب الظروف والأوضاع، أذكر منها ما يلي:

١ ـ المراقبة البشريّة:

جنّدت السلطة عدداً من عملائها المعروفين من أمثال المنحرف (أمين الساري) و (ثمين البصري) وأشباههما من المنحرفين، كما جنّدت عدداً آخر من المتستّرين والمتخفّين لمراقبة السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) ومن يتردّد على منزله من أبناء الأمّة، ومن الطلبة والعلماء.

والحقيقة أنّ كلّ ما نكتب عن هذا المجال لايعبّر عن الحقيقة بحجمها الحقيقي والواقعي، إذ أنّ هذه المراقبة امتدّت بامتداد عمر السيّد الشهيد نفسه ولم تنته إلّا باستشهاده.

ولقد وجدتُ الله عزّ وجلّ مع السيّد الشهيد ﷺ في كلّ تلك الفترة، يسدّده ويرعاه ويستره من عيون أعدائه الذين خابوا وخسروا في طول تلك المسيرة الشاقّة.

٢ ـ المراقبة الالكترونيّة:

أحسّت السلطة أنّ مراقبتها للسيّد الشهيد ﷺ عن طريق أفراد الأمن ومنهم بعض المتستّرين بلباس أهل العلم لم تحقّق الأهداف المتوخّاة، فـلجأت إلى

التجسّس عن طريق الأجهزة الالكترونيّة.

بدأ تنفيذ هذه الخطوة بعد أن أصدر السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) فتواه الشهيرة بحرمة الانتماء لحزب البعث العميل الكافر، وعدم تمكّن الرقابة البشريّة من رصد هذه الخطوة في الوقت المناسب، ممّا شكّك السلطة في دقّة مراقبة أجهزتها الأمنيّة للسيّد الشهيد ﵀.

وكان المتوقّع أن تلعب هذه الأجهزة دوراً فعّالاً في أداء مهمّاتها التجسّسيّة لو لم نكتشفها في الوقت المناسب، ونتّخذ الاحتياطات اللازمة التي من شأنها إبطال فعّاليتها في تحصيل المعلومات التي كانت السلطة تتوخّاها منها.

واستعملت السلطة أسلوبين للتجسّس الالكتروني، أحدهما: الأجهزة السلكيّة التي تزرع في جهاز الهاتف، والآخر: الأجهزة اللاسلكيّة التي تزرع في نقاط كهربائيّة داخل المنزل لتستمدّ الطاقة الكهربائيّة منها، وتبعث الأصوات عن طريق الذبذبات اللاسلكيّة.

فقد قامت السلطة بنصب جهاز الكتروني دقيق داخل هاتف منزل السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) مهمّته التقاط الأصوات بدقّة عجيبة في حالة عدم استعمال الهاتف، فيكون هذا الجهاز بمثابة لاقطة صوتيّة تعمل ليل نهار من دون انقطاع.

وبدأت قصّة هذه المحاولة حينما وجدنا في صباح يوم من الأيام جهاز الهاتف عاطلاً عن العمل، وكان المتصوّر أنّ خللاً بسيطاً حدث فيه، وهو أمر طبيعي يحدث لكلّ هاتف، فاتصلنا بدائرة الهاتف، وطلبنا إصلاح العطل، هنا حاول عامل البريد والهاتف أن يُعتّم علينا وهو لا شكّ يعمل ضمن مديريّة أمن النجف، فطلب الانتظار قليلاً ليفحص خطّ الهاتف، وبعد دقائق أخبرنا بأنّ الخطّ سالم ولا عيب فيه، وإنّما الخلل في نفس هاتف المنزل، فطلب إحضاره ليقوم بإصلاحه.

إلى هذا الحدّ كانت الأُمور طبيعيّة، ولم تحصل حالة من الشكّ، وبعثنا بالهاتف إليهم، ووعدنا بإصلاحه بعد ساعة أو أقلّ، ولكن خلال هذه الساعة تذكرت أنّ في المنزل هاتفاً آخر فحاولت الاستفادة منه بدلاً عن الهاتف العاطل، فوجدت أنّ هذا الجهاز لا يعمل أيضاً، ممّا أثار الشكّ في تصرّف دائرة البريد والهاتف.

وبعد ساعة استلمنا الهاتف، وكان من حُسن الصدف أنّ هاتفاً آخر من نفس النوع والشكل كان بحوزتنا فقمت بفتحهما معاً للمقارنة بين أجهزتهما الالكترونيّة، ومعرفة ما إذا كانت السلطة قد أحدثت شيئاً فيه، وكان الظنّ أنّها تحاول زرع متفجّرة لقتل السيّد الشهيد ﷺ، إذ لم يكن يخطر ببالنا أن توجد أجهزة الكترونيّة يمكنها أن تسترق الصوت من خلال الهاتف.

وفتحت الهاتف، فوجدت فيه جهازاً زُرع في نقطة معيّنة منه، فأخبرت السيّد الشهيد ﷺ وبعض الإخوة من طلابه، فاطّلعوا عليه، وشاهدوا هذا الجهاز الغريب، وكنّا في حالة من الشكّ والريب في حقيقته، هل هو متفجّرة أو شي آخر.

وعلى كلّ حال، فقد أمرني (رضوان الله عليه) بالاحتياط، إلّا أنّي وفي نفس اليوم استطعت أن أتأكّد من حقيقته، فقد ثبت ومن خلال تجارب بسيطة أنّه جهاز لالتقاط الصوت، ويتمتّع بحسّاسيّة عالية جدّاً.

وبعد أن تأكّدنا من ذلك استدعى السيّد الشهيد ﷺ خاصّة طلابه والمقرّبين منه، فأطلعهم على هذا الأمر، وطلب منهم الاحتياط التامّ، وأن لايتحدّثوا بشيء مهمّ إلّا إذا أشار إليهم بأن لا محذور من ذلك.

وكان لهذا الجهاز فوائد كثيرة، فمن فوائده أنّنا استطعنا أن نستغلّه لتضليل السلطة والتعتيم عليها، فقد كنّا نضع الجهاز في غرفة السيّد الشهيد التي يعقد فيها اجتماعاته الخاصّة، وكان يأتي عدد من طلابه فيجري البحث عن مسائل أُصوليّة

وفقهيّة في نفس الغرفة مع السيّد الشهيد (رضوان الله عليه).

ومن جانب آخر كنت مع بعض الإخوة نقوم بتضليل السلطة بأُسلوب آخر، وبصورة مختلفة.. وكانت السلطة تعتقد أنّ العمليّة غير مكشوفة حتّى أنّ المجرم (نجم) وهو من أخبث عناصر الأمن في النجف استوقفني يوماً في الصحن الشريف، وقال لي: إنّنا نعلم أنّ السيّد الصدر لا يكنّ عداءاً للثورة، وأنت أيضاً كذلك، ولكن أُحذّركم من بعض العناصر من أعضاء حزب الدعوة العميل الذين يتردّدون على بيت السيّد الصدر.. وقال: إنّنا نعلم بكلّ تحرّكاتكم وتصرّفاتكم.. وكان يشير بذلك إلى هذا الجهاز، وقد استنتجنا من هذه القضيّة أنّ السلطات الأمنيّة قد وقعت تحت التضليل فعلاً.

ومن أضراره أنّنا لا نستطيع إخبار كلّ أحد بذلك، وخاصّة الزوّار والضيوف الذين يتردّدون إلى المنزل لزيارة السيّد الشهيد ﵀. إنّ الزائر يفترض بيت السيّد الشهيد المكان الآمن الذي يمكنه فيه أن ينال من السلطة ومثالبها وجرائمها بكلّ حرّيّة وأمان، والتحذير أو إخبارهم جميعاً بذلك سيؤدّي إن عاجلاً أو آجلاً إلى علم السلطة باكتشافنا للجهاز، الأمر الذي لم يكن السيّد الشهيد ﵀ يرغب فيه، فكنّا بين محذورين، ومن هنا كنّا نواجه حرجاً كبيراً، ومشكلة مستعصية في كيفيّة التعامل مع الضيوف والزوّار.

وبسبب هذا الحرج اضطررنا وبعد فترة طويلة إلى فكّ الجهاز من الهاتف، وتخلّصنا من هذا الرقيب المزعج، الذي كان لا يفارقنا في الليل ولا في النهار. ومن الطبيعي أن تعلم السلطة بذلك. فقطعوا الخطّ الهاتفي على أمل أن نضطرّ إلى تكرار نفس العمليّة السابقة، ولمّا لم يحدث ذلك جاءوا إلى المنزل وقالوا: إنّ في هاتفكم عطلاً شلّ عمل خطوط المنطقة، وطلبوا إحضار الهاتف، فأتتهم الشهيدة بنت الهدى ـ وكانت هي الوحيدة المطّلعة على تلك القضية ـ وأعطتهم هاتفاً آخر،

فقالوا لها: إنّ جهازاً آخر غير هذا كان عندكم!! فقالت لهم: إنّ ذلك كان عارية وقد أخذها صاحبها وسافر إلى خارج العراق، فأخذوا الهاتف ونصبوا فيه جهازاً آخر، وبقي هذا الجهاز حتّى استشهاد السيّد الصدر ﷺ.

٣ ـ التجسّس اللاسلكي:

أحسّت السلطة بواسطة عميلها المجرم (أمين الساري) ـ وهو متلبّس بلباس أهل العلم وهم منه براء ـ أنّنا في الاجتماعات الخاصّة للسيّد الشهيد نقوم بنقل جهاز الهاتف إلى مكان آخر وكنّا نفعل ذلك بصورة طبيعيّة لا تثير الانتباه والشكّ، وهذا الإجراء كنّا مضطرّين إليه،وهو ممّا لابدّ منه، إلّا أنّ تكرّر ذلك قد سبّب نوعاً من الشكّ والارتياب، خاصّة وأنّ المجرم (أمين الساري) كان لايفارق منزل السيّد الشهيد ﷺ ما دامت أبوابه مفتوحة لاستقبال الزوّار في كلّ يوم، فكان يخبر مديريّة أمن النجف بكلّ ما يشاهده في منزل السيّد الشهيد، ومنها اللقاءات والاجتماعات التي تتمّ في الغرفة الخاصّة بعيداً عن جهاز الهاتف الجاسوس.

من هنا فكّرت السلطة بنصب جهاز ثابت لاستراق السمع في نقطة من نقاط الكهرباء، مهمّته التقاط الأصوات في داخل الغرفة، وإرسالها بشكل ذبذبات لاسلكيّة إلى مكان قريب من منزل السيّد الشهيد، لكي تلتقط من خلال أجهزة استقبال خاصّة.

وبدأت قصّة هذه المحاولة عندما قطعت السلطة التيّار الكهربائي عن بيت السيّد الشهيد والبيوت المجاورة له، وعندما خرج السيّد الشهيد لإلقاء بحث الخارج على طلابه في مسجد الطوسي ﷺ قبل الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم، وكان المفروض أن أُرافقه إلى هناك لأحضر البحث، لكنّني كنت ساعة

خروجه مشغولاً بإسباغ الوضوء، فتخلّفت عن مرافقته وفي تلك اللحظة جاءت مجموعة من رجال الأمن بلباس عمّال الكهرباء وقالوا لخادم السيّد الشهيد (الحاج عباس): إنّ خللاً في بيت السيّد سبب انقطاع التيّار الكهربائي في المنطقة، وطلبوا الإذن بالبحث عن مكان الخلل، فصعد أحدهم إلى الغرفة الخاصّة، فقام بفتح نقطة كهربائيّة، ثمّ وضع جهازاً صغيراً فيها، ثمّ أوصله بالتيار الكهربائي، وأعاد غلق النقطة إلى حالته الأُولى، وكنت أُشاهد ما يجري من الحمام الذي كنت أتوضأ فيه وهو لا يشعر بوجودي، أمّا البقية، فقد ذهبوا إلى أماكن أُخرى ليموّهوا على الحاج عباس، ولم ينصبوا أجهزة فيها، وقد ثبت ذلك من فحصنا لتلك النقاط فيما بعد.

ولمّا خرجوا من البيت بعد أن ادّعوا أنّهم أصلحوا الخلل وضعت مفتاح التيّار الكهربائي (الفيوز) في حالة القطع، كي لا يتمّ جريان التيّار إلى المنزل بعد إعادته إلى المنطقة، خشية عمل ذلك الجهاز الذي نصبوه في الغرفة ونحن لانعلم عن حقيقته شيئاً.

وبعد أن عاد السيّد الشهيد ﷺ خبرته بما حدث، وشاهد الجهاز، فحذّرني من فتحه، ولمّا لم تكن لدينا وسيلة لمعرفة حقيقته قمت بفتحه من دون علم السيّد الشهيد، فوجدت فيه قطعاً الكترونيّة، ولاقطة صغيرة جدّاً للصوت، وحينئذٍ أخبرته ﷺ بذلك، فأمرني بإرجاعه إلى مكانه، وبإعادة التيّار الكهربائي إلى المنزل، وأيضاً حذّر من يجب تحذيره من المقرّبين منه ،وحَسِبت السلطة أنّها نجحت هذه المرّة، وستحصل على أخطر المعلومات في المستقبل القريب.

وممّا زاد من تأكيد هذه الحقيقة أنّ مدير أمن النجف زار السيّد الشهيد بعد أيام قليلة من نصب الجهاز في نفس تلك الغرفة، فكان بين الحين والآخر يسترق النظر إلى نفس النقطة الكهربائيّة التي وضعوا فيها جهاز الإنصات ويبتسم، وكان

يظنّ أنّ العمليّة قد انطلت علينا.

وفي تلك الفترة أيضاً حاولت مديريّة أمن النجف شراء منزل قريب من بيت السيّد الشهيد ﷺ، وكان الهدف يتعلّق بنفس المهمّة، حيث كان المفروض أن يوضع جهاز استقبال الصوت في ذلك البيت القريب؛ لضمان استقبال جيّد للأمواج الصوتيّة.

وكما هو الحال بالنسبة إلى جهاز الإنصات المنصوب في الهاتف فقد تعاملنا معه بحذر أيضاً، فقمنا بتضليل السلطة بمهارة ودقّة لدرجة خفّفت فيها من رقابتها للسيّد الشهيد عن طريق عملائها الأراذل، بحيث كانت مطمئنة إلى أنّ أجهزتها التجسّسيّة تؤدّي مهامّها على أفضل حال.

وممّا لاشكّ فيه أنّ السلطة وقعت في ارتباك كبير، ففي الوقت الذي تضع على السيّد الشهيد ألف علامة استفهام، تجد أنّ أجهزتها الالكترونيّة لاترصد إلّا الأبحاث الفقهيّة والأُصوليّة، بل لم تحصل على ما يُثبت لها وجود عداء أو مخطّطات للسيّد الشهيد ضدّها، وهو أمر لايقتنع به الوجدان، وهذه الحيرة قاتلة بالنسبة لهم، خاصّة وأنّ فترة المراقبة والرصد قد طالت ولكن من دون نتائج مهمّة.

٤ ـ محاولات لا أخلاقيّة دنيئة :

ولمّا أحسّت السلطة أنّ جهودها في مجال التجسّس على السيّد الشهيد ﷺ قد تبدّدت ولم تثمر شيئاً لجأت إلى أُسلوب ينسجم مع طبيعتها وأخلاقها، ويُعبّر بوضوح عن مدى التدهور الأخلاقي الذي وصل إليه قادة حزب البعث ودوائره الأمنيّة التي كان يدّعي أنّه أسّسها لحماية أمن وكرامة وحريّة العراقيّين.

لقد لجأت السلطة إلى أُسلوب قذر، تمثّل بتجنيد عدد من النساء الساقطات،

وزوّدتهنّ بكامرات صغيرة جدّاً نصبت في حقيبة اليد، وهي تعمل بطريقة الالتقاط الذاتي المؤقّت، أي تلتقط صورة كلّ دقيقة بصورة تلقائيّة، وبعثتهنّ إلى عدد من الأشخاص كانت قد استهدفتهم لإيقاعهم في الرذيلة والفحشاء، وتصوير ذلك من دون علمهم، وبعد ذلك يتمّ استدعاؤهم إلى مديريّة الأمن لتعرض عليهم صورتهم الفاضحة في محاولة لابتزازهم والضغط عليهم للعمل معها والتجسّس لصالحها، وكانوا يهدّدونهم في حال رفضهم بإفشاء الصور الملتقطة وإرسالها إلى المراجع والعلماء لفضحهم.

ولم ينجح هذا الأُسلوب الخبيث مع من استهدفتهم السلطة من المرتبطين بالسيّد الشهيد (رضوان الله عليه) وإن كنّا قد سمعنا أنّه نجح مع آخرين من غير الأوساط الحوزويّة والدينيّة، وقد أخبرني أحد الإخوة الثقاة من الذين اشتركوا في انتفاضة شعبان عام (١٩٩١م)، وكان ممّن اقتحم بناية مديريّة أمن النجف، أنّ الثوّار عثروا على مجموعة من الصور والأفلام التُقطت لأشخاص تورّطوا في تلك الخدعة التي حاكتها لهم دوائر الأمن والمخابرات، وهذه الصور محفوظة فعلاً لدى بعض الثوّار.

وعلى كلّ حال فإنّ هذا النظام الذي يردّد شعارات عن العروبة وقيم العرب مدّعياً أنّه يمثّل تلك القيم وأن صدّاماً يجسّد الشرف العربي والمجد الحضاري للعرب،ها هو اليوم يمارس من الإجرام ما يبرأ منه أراذل العرب حتّى في الجاهليّة، وما سمعنا أنّ حاكماً عربيّاً نبيلاً في زمن الجاهليّة أو الإسلام استغلّ الماجنات والعاهرات لتثبيت حكمه وسلطانه بالشكل الذي فعله صدّام التكريتي.

هذه بعض النشاطات التي قامت بها سلطة البعث العميل للتجسّس على السيّد الشهيد ﵁، وقد باءت كلّها بالفشل والخيبة، والحمد لله ربّ العالمين.

حياته السياسية والجهادية

٤

مَواقفه الجهاديّة

و

القياديّة

- مع الثورة الإسلاميّة فى إيران.
- انتفاضة رجب وخلفيّاتها.
- أهم الأحداث في مدّة الحجز.

مع الثورة الإسلاميّة في إيران

شاء الله عزّ وجلّ أن يحقّق على يد الإمام الراحل آية الله العظمى السيّد الخميني (رضوان الله عليه) أروع حدث من أحداث التاريخ المعاصر، والذي تمثّل بنجاح الثورة الإسلامية وتأسيس الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران.

فماذا سيكون موقف السيّد الشهيد ﷺ من هذا الحدث العظيم الذي نذر نفسه وجاهد بكلّ طاقاته وقدراته لتحقيق نظيره في العراق؟

هل المتوقّع أن لا يُعلن بصراحة عن تأييده للقائد الفذّ الذي «حقّق حلم الأنبياء» على حدّ تعبيره؟

وهل يمكن أن لا يعبّر عن تأييده ودعمه لهذه الثورة التي رفعت راية الإسلام خفّاقة في بلد كانت الصهيونيّة والولايات المتّحدة الأمريكيّة تعتبرانه قاعدة لهما، ومركزاً حسّاساً من مراكزهما الحيوية في العالم؟

لقد اتّهم السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) بأنّه تعامل مع حدث قيام الثورة الإسلاميّة تعاملاً عاطفيّاً ومتسرّعاً، لم يلحظ فيه ظروف العراق، ولا ظروفه الخاصّة، ولم يكن مدركاً للأضرار التي ستترتّب على موقفه من تأييد الثورة الإسلاميّة بهذه الصراحة..!

إنّ هؤلاء الذين اتّهموا السيّد الشهيد ﷺ بذلك برّروا موقفهم بالظروف

الأمنيّة التي كانت تسود العراق بعد انتصار الثورة الإسلاميّة، فالسلطة كثّفت من رقابتها للسيّد الشهيد، واعتبرته السند الحقيقي للثورة الإسلاميّة وَمَنْ سيقف إلى جانبها في السرّاء والضرّاء، وهو الذي سيعمّق تأييد الثورة في المجتمع العراقي، ويركّز قيادة الإمام الخميني فيه. كما أنّ نجاح الثورة في إيران استفزّ السلطة البعثيّة في العراق، بل وأصابها بالذعر والقلق خوفاً من امتداد وهجها إلى العراق.

إنّ هذه الأُمور تجعل عمليّة تأييد الثورة الإسلاميّة بالشكل الذي تبنّاه الشهيد ﵀ مخاطرة كبيرة، بل عمليّة انتحار أكيدة.

أمّا السيّد الشهيد ﵀ فقد كان يعتقد أنّ تأييد الثورة الإسلاميّة تكليف شرعي عيني، وهو جهاد، والجهاد يقتضي ويستلزم التضحية والفداء في معظم الأحيان، وكان يقول:

«إنّ هؤلاء الذين يطلبون منّي أن أتريّث، وأن أتّخذ موقفاً من الثورة الإسلاميّة لايثير السلطة الحاكمَة في العراق حفاظاً على حياتي ومرجعيّتي لا يعرفون من الأُمور إلّا ظواهرها. إنّ الواجب على هذه المرجعيّة، وعلى النجف كلّها أن تتّخذ الموقف المناسب والمطلوب تجاه الثورة الإسلاميّة في إيران... ما هو هدف المرجعيّات على طول التاريخ؟ أليس هو إقامة حكم الله عزّ وجلّ على الأرض؟ وها هي مرجعيّة الإمام الخميني قد حقّقت ذلك. فهل من المنطقي أن أقف موقف المتفرّج، ولا أتّخذ الموقف الصحيح والمناسب حتّى لو كلّفني ذلك حياتي وكلّ ما أملك؟!».

والحقّ أنّ السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) وقف موقفاً مخلصاً بشكل منقطع النظير تجاه الثورة وقائدها المعظّم، وقد أحسست ذلك منه عن قرب بحكم معايشتي الطويلة معه (رضوان الله عليه)، وكان حريصاً غاية الحرص على تأييدها ودعمها، بل كان مستعدّاً للتضحية من أجلها، وقد فعل ذلك عن طيب نفس ورضا قلب كما سنرى

من خلال عرضنا لأحداث الحجز.

وعلى ضوء ما لدينا من أرقام نستطيع أن نؤكّد أنّ موقف السيّد الشهيد هذا لم يبدأ من حادث انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، بل هو موقف مبدأي ثابت، يمتدّ بجذوره إلى سنوات عديدة قبل الانتصار، حيث لم تكن تلوح في الأُفق بوادر الثورة بعد.

وكان السيّد الشهيد يرى أنّ الإمام السيّد الخميني ﷺ يمثّل نموذجاً فريداً من بين المراجع، في حسّه الثوري وإدراكه لمتطلّبات العصر، وحاجات الأُمّة الإسلاميّة.

وهنا نستطيع أن نقسّم مواقف السيّد الشهيد في هذا المجال إلى قسمين: (الأوّل) ما كان قبل الانتصار، و(الثاني) ما كان بعد الانتصار.

أمّا مواقفه قبل الانتصار فأهمّها.

١ ـ حثّه لعدد كبير من طلّابه والمقرّبين منه على حضور أبحاث السيّد الإمام ﷺ الأُصوليّة والفقهيّة رغم أنّ البعض منهم كان لا يفهم اللغة الفارسيّة، وكان ذلك من باب الدعم والتأييد لمرجعيّة السيّد الإمام ﷺ، بعد أن شخّص أنّ السيّد الخميني يمثّل قمّة الوعي ومن تُعقد عليه آمال الإسلام، لأنّه (قدّس الله روحه) كان في طليعة المراجع الذين دعوا بصراحة إلى إقامة حكومة إسلاميّة من خلال كتابه (الحكومة الإسلاميّة) الذي طبع في العراق، وكانت هذه الظاهرة وهذه الدعوة خرقاً للمتبنّيات المألوفة التي لا تقوم على أساس شرعي مُسلّم، والتي كانت تقول: إنّه لا يمكن أن تقوم حكومة إسلاميّة قبل ظهور المهدي (سلام الله عليه).

لقد وجد الشهيد الصدر في الإمام الخميني ﷺ الأمل المشرق، والضياء الوهّاج الذي سيملأ الأُفق نوراً، فما هي حجّة أُولئك الذين يدعون إلى عزل

الإسلام عن الحياة متذرّعين بفهمهم الخاطئ للنصوص، واستنباطاتهم الساذجة، ممتطين التقية لحجز الإسلام عن أوطانه؟ ما هي حجّتهم وقد أعلن مرجع عظيم من مراجع المسلمين، وعابد من خيرة عُبّادهم وزهّادهم أنّ الإسلام يجب أن يحكم الحياة بكلّ جوانبها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، ويدعو إلى ذلك بكلّ صراحة في أبحاثه العلميّة في مسجد الشيخ الأنصاري في النجف، ثمّ يقوم بطبع ذلك على شكل كتيب ويوزّع على أوسع نطاق؟!

إنّ هذه الخطوة من أعظم خطى الإمام الراحل (رضوان الله عليه) يجب أن تُقدّر وتُشكر. وقد فعل ذلك السيّد الشهيد الصدر، وكان في ذلك الوقت لا يملك أكثر من أن يدعو طلّابه لحضور أبحاث الإمام ﷺ كصورة من صور الدعم والتأييد لمرجعيّته.

٢ ـ ومن صور الدعم أيضاً ـ وهو ما أشرنا إليه سابقاً ـ ذهاب السيّد الشهيد ﷺ إلى بيت السيّد الإمام لزيارته وتوديعه بعد أن علم أنّ الإمام قرّر مغادرة العراق، ورغم أنّ هذا التوديع لم يتمّ، حيث كان الإمام قد غادر النجف في ساعة مبكّرة من صباح ذلك اليوم إلى الكويت فإنّ السيّد الشهيد ﷺ قد دخل المنزل وجلس مع بعض من كان فيه من المرتبطين بالسيّد الإمام ﷺ مُظهراً لهم التأييد والمساندة، رغم تطويق قوّات الأمن للمنزل ومراقبة من يتردّد عليه. وهذا الموقف اعتبرته السلطة من المواقف التي أدانت بها السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) في الاعتقال الذي تعرّض له في انتفاضة رجب. وكان قد عطّل أبحاثه في ذلك اليوم، وقال:

«إنّ رحيل السيّد الخميني من النجف خسارة كبيرة».

٣ ـ والموقف الثالث له قبل انتصار الثورة الإسلاميّة تمثّل بالبيان التاريخي الرائع الذي بعثه للسيّد الإمام (رضوان الله عليه) وهو في باريس بتاريخ

٥/صفر/١٣٩٩هـ و أرسله بعد ذلك إلى إيران لأجل التوزيع بين المؤمنين، وقد أشاد فيه بجهاد الشعب الإيراني وتضحياته، ووقوفه خلف قيادته الرشيدة. وهذا البيان يعتبر من أروع البيانات فيما يحمل من أفكار ومعاني، ومقترحات، وعواطف، ومشاعر، وهذا نصّ البيان[١]:

«بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد خير خلقه، وعلى الهداة الميامين من آله الطاهرين.

وبعد: فإنّنا في النجف الأشرف إذ نعيش مع الشعب المسلم الإيراني بكلّ قلوبنا، ونشاركه آلامه وآماله نؤمن أنّ تاريخ هذا الشعب العظيم أثبت أنّه كان ولا يزال شعباً أبيّاً شجاعاً وقادراً على التضحية والصمود من أجل القضيّة التي يؤمن بها، ويجد فيها هدفه وكرامته.

ونحن إذا لا حظنا مسيرة هذا الشعب الجهاديّة خلال الفترة المنظورة من هذا القرن، وجدنا أنّه خاض فيها ـ بكلّ بطولة وإيمان ـ عدداً من المعارك الباسلة في سبيل الحفاظ على كرامته، وتحقيق ما آمن به من طموحات خيّرة وأهداف عالية. فمن قضيّة (التنباك)[٢] التي استطاع فيها هذا الشعب العظيم أن يكسر الطوق الذي أراد حكّامه ومخدوموهم المستعمرون الكافرون أن يطوّقوا به وجوده، إلى قضايا (المشروطة) التي قاوم فيها الشرفاء الأحرار من أبناء هذا البلد الكريم ألوان التحكّم والاستبداد. ـ في وقت كان العالم الإسلامي فيه غارقاً في أشكال مؤلمة من هذا الاستبداد ـ إلى الممارسات الفعليّة لهذا الشعب المكافح التي قدّم من خلالها حجماً عظيماً من التضحيات، ولا يزال يقدّم، وهو يزداد يوماً بعد يوم إيماناً وصموداً وتأكيداً على روحه

---

١ ـ وقد اعتمدنا في نقلنا هذا لنصّ البيان على ما وجدناه في أرشيف المؤتمر ـ الذي جمعه فضيلة السيّد حامد الحسيني حفظه الله ـ من النسخة المصحّحة تحت إشراف السيّد الشهيد رحمه الله.

٢ ـ وفي نسخةٍ (التبغ).

الجهاديّة...

وبالمقارنة بين هذه الملاحم البطوليّة يبدو عمق الشخصيّة المذهبيّة للفرد الإيراني المسلم، والدور العظيم الذي يؤدّيه مفهومه الديني، وتمسّكه العميق بعقيدته ورسالته ومرجعيّته في مجالات هذا الجهاد البطولي. ففي كلّ هذه الملاحم نلاحظ أنّ الروح الدينيّة كانت هي المعين الذي لا ينضب للحركة، وأنّ شعارات الإسلام العظيمة كانت هي الشعارات المطروحة على الساحة، وأنّ المرجعيّة الرشيدة كانت هي الزعامة التي تلتفّ حولها جماهير الشعب المؤمنة، وتستلهمها في صمودها وجهادها، ولا توجد هويّة لشعب أصدق انطباقاً عليه وتجسيداً لمضمونه من الهويّة التي يتجلّى بها في ساحة الجهاد والبذل والعطاء، ولم يعبّر شعب عن حرّيته النضاليّة تعبيراً أوضح وأجلى ممّا عبّر به الشعب الإيراني المسلم عن هويّته الإسلاميّة في كلّ ما خاضه من معارك شريفة، كانت التعبئة لكلّ واحدة منها تتمّ باسم الإسلام، وكانت المشاعر والقلوب تتجمّع على أساسه، وكانت القوى الروحيّة والمرجعيّة الصالحة هي التي تتقدّم المسيرة في نضاله الشريف، ولئن كان الشعب الإيراني قد عبّر عن هويّته الجهاديّة الأصيلة باستمرار فإنّ نهضته الحيّة المعاصرة بقيادة المرجع الديني آية الله الخميني لهي التعبير الأروع عن تلك الهويّة النضاليّة بحكم امتدادها المتصاعد و حجم ما قدّمت من تضحيات وما برهنت عليه من صمود. وإنّا نرى أنّ هذه الهويّة النضالية المؤمنة التي عبّر بها الشعب الإيراني عن نفسه ولا يزال، هي من أعظم ذخائر الإسلام وطاقاته التي يملكها في التاريخ الإسلامي الحديث.

وتشير هذه الشخصيّة البطوليّة من خلال التجارب الجهاديّة التي مارسها ولايزال يمارسها شعب إيران المسلم إلى عدد من الحقائق تبدو واضحة كلّ الوضوح، ومن الضروري أن تشكّل إطاراً أساسيّاً ثابتاً لرؤية هذا الشعب لطريقه.

فمن تلك الحقائق الثابتة: أنّ الشعب الإيراني كان يحقّق نجاحه في نضاله بقدر التحامه مع قيادته الروحيّة ومرجعيّته الدينيّة الرشيدة وبنسبة هذا الالتحام. فما من مرّة ظلّ فيها واعياً على هذه الحقيقة ملتحماً مع قيادته و مرجعيّته الدينيّة الرشيدة التحاماً كاملاً، إلّا واستطاع أن يحوّل الشعار الذي نادى به إلى حقيقة.

وما من مرّة غفل فيها هذا الشعب المجاهد عن هذه الحقيقة، أو استُغفل بشأنها إلّا وواجه الضياع والتآمر.

فالقيادات الروحيّة والمرجعيّة الرشيدة هي الحصن الواقي من كثير من ألوان الضياع والانحراف.

ومن تلك الحقائق: أنّ القيادات الروحيّة كانت تقوم بدورها هذا، وتنجزه إنجازاً جيّداً بقدر ما يسودها من التلاحم، والتعاضد، والوقوف جنباً إلى جنب. وما من مرّة استطاع فيها الشعب الإيراني المسلم أن يحقّق نصراً إلّا وكان للتلاحم والتعاضد المذكور دور كبير في إمكانيّة تحقيق هذا النصر.

ومن تلك الحقائق أيضاً: أنّ المبارزة الشريفة لكي تضمن وصولها إلى هدفها الإسلامي لابدّ أن تتوفّر في ظلّها نظرة تفصيليّة واعية وشاملة لرسالة الإسلام، ومفاهيمها وتشريعاتها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعيّة. وبقدر ما تتوافر في الأساس الفكري والرصيد العقائدي للمبارزة هذه النظرة التفصيليّة التي تميّز المعالم الفكريّة للهويّة النضاليّة تكسب المبارزة القدرة أكثر فأكثر على ممارسة التغيير و تحقيق أهدافها الإسلاميّة و حماية شخصيّتها العقائديّة من تسلّل الآخرين.

وهكذا نرى أنّ المبارزة الشريفة التي تقود الشعب الإيراني المسلم في كفاحه مدعوّة اليوم ـ أكثر من أيّ يوم مضى ـ بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة الدقيقة من مسيرتها، واكتسبت ولاء الأُمّة ـ كلّ الأُمّة ـ على الساحة أقول: إنّها مدعوّة اليوم ـ أكثر من أيّ يوم مضى ـ إلى أن تنظر بعين إلى الحاجات

الفعليّة لمسيرتها، وتنظر بعين أُخرى إلى حاجاتها المستقبليّة، وذلك بأن تحدّد ـ من الآن ـ كلّ معالم النظرة التفصيليّة فيما يتّصل بأيديولوجيّتها ورسالتها الإسلاميّة، وكما أنّها مرتبطة في النظرة الأُولى إلى الحاجات الفعليّة للمسيرة وتقييمها وتحديد خطواتها بالمرجعيّة الدينيّة، كذلك لابدّ أن ترتبط بالنظرة الثانية ـ وفي تحديد معالم الايديولوجيّة الإسلاميّة كاملة ـ بالمرجعيّة الدينيّة التي قادت كفاح هذا الشعب؛ لأنّ المرجعيّة هي المصدر الشرعي والطبيعي للتعرّف على الإسلام وأحكامه ومفاهيمه.

كما نرى أيضاً أنّ المبارزة الشريفة قد حقّقت مكسباً كبيراً حينما أفهمت العالم بخطأ ما يتصوّره البعض من أنّ الإسلام لا يبرز على الساحة إلّا كمبارز للماركسيّة، وليس من همّه بعد ذلك أن يبارز الطرف الآخر. فإنّ هذا التصوّر كان يستغلّه البعض في سبيل إسباغ طابع التخلّف والتبعيّة على المبارزة الإسلاميّة، وقد تمزّق هذا التصوّر من خلال المبارزة الشريفة التي برزت على الساحة الإيرانيّة، باسم الإسلام، وبقوّة الإسلام، وبقيادة المرجعيّة الدينيّة، لتقاوم كياناً أبعد ما يكون عن الماركسيّة والماركسيين. فقد أثبت ذلك أنّ الإسلام له رسالته وأصالته في المبارزة، وأنّ الإسلام الذي يقاوم الماركسيّة هو نفسه الإسلام الذي يقاوم كلّ ألوان الظلم والطغيان.

وعلى المبارزة الشريفة أن تعمّق هذا المكسب و تزيده وضوحاً في أذهان الجميع، و ذلك بما تطرحه على الساحة أكثر فأكثر من معالم نظرتها التفصيليّة وايديولوجيّتها المتميّزة. أنّ على المبارزة الشريفة ـ وقد آمن الشعب الإيراني العظيم بقيادتها الإسلاميّة ـ أن تكون على مستوى هذه المرحلة، وأن تدرك بعمق ما يواجهها من أعباء عظيمة لتحقيق أهدافها الكبيرة في عمليّة التغيير؛ لأنّ بناء إيران إسلاميّاً ليس مجرّد تغيير في الشكل والأسماء، بل هو ـ إضافةً إلى ذلك ـ تطهير للمحتوى من كلّ الجذور الفاسدة، وملء المضمون ملءً جديداً حيّاً، تتدفّق فيه القيم القرآنيّة والإسلاميّة لمختلف مجالات الحياة.

ولا شكّ في أنّ البطولة والنضج الفريدين الذين تمتّعت بهما المبارزة في عمليّة مكافحة الواقع الفاسد وهدمه، تؤكّد كفاءتها لإدراك هذه المسؤوليّات وعمقها الروحي والاجتماعي والتاريخي.

نسأل المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرعى التضحيات العظيمة التي يقدّمها الشعب الإيراني المجاهد، بقيادة علمائه الأعلام، ويجعل من الدماء الطاهرة التي أراقها السفّاكون على الساحة شموعاً تضيء بالنور لتُخرج إيران من ظلمات الاستبداد والانحراف إلى تطبيق الإسلام الشامل في كلّ مجالات الحياة.

وليست القافلة الأخيرة من الضحايا في المشهد المقدّس إلّا حلقة جديدة من مجازر الطغاة. تغمّدهم الله بعظيم رحمته، وألحقهم بالشهداء، والصدّيقين والصالحين، وحسُنَ أُولئك رفيقاً، والعاقبة للمتّقين، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

النجف الأشرف ـ محمدباقر الصدر»

وكانت هناك صور أُخرى من التعاون بين السيّد الشهيد والسيّد الإمام (رحمهما الله) قبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، تتمّ عن طريق الإمام السيّد موسى الصدر والسيّد أحمد الخميني﵀ وغيرهم من الشخصيات الكبيرة التي كانت تعمل مع الإمام الراحل في جهاده لإقامة الحكومة الإسلاميّة في إيران.

وقد نلحظ ذلك الاهتمام من خلال هذا المقطع من رسالة للسيّد الشهيد ﵀، والتي ذكر فيها السيّد الإمام الخميني﵀، وصراعه المرير مع الشاه المقبور، ولأجل أن نعرف أهمّية ما كتبه (رضوان الله عليه) يجب أن نشير إلى أجواء تلك الفترة وما عانى فيها الإمام الراحل﵀ من جفاء من قبل بعض المرجعيّات وأطراف كثيرة في الحوزة، فقد كان البعض يوجّه إليه ألواناً من التُّهم والافتراءات الباطلة، وكانت أيضاً قوّات الشاه المتسترّة تسند تلك الحملات الظالمة بكلّ ما تملك من طاقات

وإمكانات، فكانت تبدو مرجعيّة السيّد الإمامﷺ ـ وهي في النـجف ـ غـريبة ومعزولة عن الأُمّة.

وأتذكّر أنّ أحدهم قال لي في تلك الفترة: لا يجوز لك أن تستلم مرتّبك الشهري من الإمام لأنّه شيوعي!! وهذا القائل يمثّل ـ بلا شكّ ـ نموذجاً من التيّار المعادي للسيّد الإمامﷺ.

في مثل هذه الأجواء القاتمة كانت رؤية السيّد الشهيد؛ للإمام الراحـل تختلف عن الآخرين، فهو يراه القائد الذي قطع لسان الشاه العميل لأمريكا، وأنّ الإمامﷺ كماهو عدوّ للشرق الشيوعي كذلك هو عدوّ للغرب الرأسمالي. يقول في تلك الرسالة التي كتبها في عام (١٩٦٣م = ١٣٨٣هـ) ما يلي:

«وأمّا بالنسبة إلى إيران فلا يزال الوضع كما كان، وآقاي خميني مُبعد في تركيا من قبل عملاء أمريكا في إيران، وقد استطاع آقاي خميني في هذه المرّة أن يقطع لسان الشاه الذي كان يتّهم المعارضة باستمرار بالرجعيّة والتأخّر؛ لأنّ خوض معركة ضدّ إعطاء امتيازات جديدة للأمريكان المستعمرين لا يـمكن لإنسان في العالم أن يصف ذلك بالتأخّر...».[١]

هذه بعض مواقف السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) من الإمام الراحلﷺ قبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران.

وقبيل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران وحينما كان الإمام الخمينيﷺ في باريس وقد عزم على المجيء إلى إيران وقام رئيس الوزراء آنـذاك شـاهپور بختيار بغلق مطار طهران الدولي لمنع طائرة الإمام من الهبوط بعث السيّد الشهيد الصدر برقيّة له احتجّ فيها على ذلك باسم المرجعيّة الدينيّة والحوزة العلميّة في النجف الأشرف ونص البرقية المترجمة كما يلي:

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٧٥).

«جناب الدكتور بختيار

باسم المرجعيّة وعلماء النجف الأشرف أُقدّم استنكاري الشديد لغلق مطارات البلاد، في الوقت الذي عزم فيه آية الله العظمىٰ الخميني على العودة، ويترقّب الملايين من الإخوة المسلمين في إيران وفي جميع أرجاء الدنيا عودته لكي يضطلع بدوره القيادي للشعب، وينهض بمسؤوليّته التاريخيّة والإسلامية العظيمة ويهدي البلد من ظلمات الجهل واللادينيّة إلى نور الإسلام وأشعّة الإيمان.

وإنّي آمل أن تكفّ عن التصنّعات غير الشرعيّة أمام إرادة الشعب المسلم الذي لا يرضىٰ بقيادة غيرَ قيادة العلماء، وأن تعلن استقالتك لأجل تعبيد الطريق أمام الشعب الإيراني المسلم الذي يهتدي بزعامة العلماء، وإلّا فسوف لن يعذرك الله ولا تاريخ هذا الشعب الغيور والله وليّ التوفيق.

النجف الأشرف

محمد باقر الصدر»[1].

أمّا بعد الانتصار فإنّ موقفه من الثورة وقائدها يعتبر من المواقف النموذجيّة في التاريخ ـ إذا أخذنا بنظر الاعتبار الظروف الأمنيّة والسياسيّة في العراق ـ بل بماذا يمكن أن نعبّر عن موقف أدّىٰ في نهاية المطاف إلى الشهادة، يُقدم عليه مختاراً بنفس مطمئنة راضية، وهو يعلم أن لا مصلحة مادّية له بذلك، ولاغرض دنيوي ينفعه، وسنعرف تفصيل ذلك من خلال أحداث فترة الاحتجاز باذن الله.

أما مواقفه ـ ﵁ ـ من الثورة الإسلاميّة بعد أن انتصرت وتحقّقت حكومة

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٧٦) بخط تلميذ الشهيد الصدر﵁ سماحة آية الله السيّد محمود الهاشمي الشاهرودي حفظه الله، وهي باللغة الفارسيّة.

إسلاميّة في إيران فهي كثيرة أذكر منها التالي:

١ ـ بعث برسالة تأييد وتبريك إلى سماحة الامام الخميني ﷺ باللغة الفارسيّة وترجمتها كما يلي:

«بسمه تعالىٰ

حضرة آية الله العظمىٰ الإمام المجاهد الخميني دام ظلّه أكتب لكم هذه الرسالة في لحظة من أدقّ لحظات تاريخ الإسلام، لأُعبّر عن ثقتي واعتزازي المطلق بالانتصارات الباهرة للشعب الإيراني المسلم.

هذه الانتصارات المتتالية الكبرىٰ التي تحقّقت بقيادتكم الحكيمة وَعَرضت على البشريّة أُطروحةَ الإسلام المنقذة بدلاً عن حضارتي الشرق والغرب وايدلوجيّيهما المتقابلتين.

هذا الانتصار العظيم الذي تحقّق بإرادة الشعب الإيراني المسلم العظمية وفي ظلّ قيادتكم الحكيمة، وطهّر هذه الأرض الإسلاميّة من لوث شبح طاغوت العصر، وأحيىٰ من جديد شرف الشعب الإيراني المسلم وكرامته المخدوشة.

هذا الانتصار التاريخي الكبير الذي حصل بسعي علماء الإسلام الأحرار الواعين وجهادهم تحت قيادتكم، وبلغ ثماره بتكاتف جميع القوىٰ الفكريّة والمعنويّة والعمليّة لجماعة العلماء وتلاحمهم الذي قلّ نظيره في بابه عبر تاريخ علماء الشيعة.

وهذه الوحدة والتكاتف والتلاحم هي التي ضمنت للمجتمع الإيراني المسلم هذا النصر الإسلامي الكبير.

ونحن في الوقت الذي نتربّص فيه ـ بأمل كبير من الله تعالى ـ مراحل النصر اللاحقة لهذه النهضة الإسلاميّة العظيمة، نضع جميع وجودنا وإمكاناتنا في خدمة وجودكم العظيم والنهضة الإسلاميّة المقدّسة، ونسأل الله تعالى أن يطيل في عمركم، ويزيد في عزّتكم، ويحقّق آمالنا العتيدة الكبيرة في ظلّ مرجعيّتكم

وقيادتكم إن شاء الله تعالىٰ

النجف الأشرف   محمد باقر الصدر
٧/ربيع الاول / ١٣٩٩هـ[= ١٩٧٩م]» [١]

٢ ـ قام (رضوان الله عليه) بعد أن بلغه نبأ انتصار الثورة بإعلان التعطيل لأبحاثه ابتهاجاً وفرحاً بذلك الحدث التاريخي العظيم. وتحدّث في أثناء ذلك لطلّابه في مسجد الجواهري عن ضرورة دعم الثورة وإسنادها ووجوب الوقوف معها في السرّاء والضرّاء.

وهذا الموقف هو الموقف الوحيد الذي وقفه مرجع كبير من مراجع النجف وبهذه الصراحة في تلك الفترة الحرجة والقاسية في ظلّ حكم حزب البعث العميل.

٣ ـ وأراد ﷺ أن يحرّك الساحة الجماهيريّة باتجاه إيجاد تأييد شعبي عامّ وشامل فشجّع بعض أنصاره إلى تنظيم تظاهرة شعبيّة لتأييد الثورة الإسلاميّة في إيران، وإظهار الابتهاج بانتصارها. فهرع الشباب المؤمن فخرجوا بتظاهرة من جامع الخضراء بعد صلاتي المغرب والعشاء ورفعوا صور السيّد الشهيد الصدر والسيّد الإمام الخميني (رضوان الله عليهما) وهذه هي المرّة الأُولى التي يحدث فيها مثل ذلك في العراق.

٤ ـ وكتب (رضوان الله عليه) رسالة إلى طلّابه الذين هاجروا إلى الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران، دعاهم فيها إلى بذل كلّ الطاقات والإمكانات لخدمة الثورة، وأكّد لهم فيها ضرورة الالتفاف حول مرجعيّة السيّد الخميني ﷺ والعمل على إسنادها ودعمها. وتعتبر هذه الرسالة من أروع مواقف الدعم والتأييد،

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٧٧) بخط تلميذ الشهيد الصدر ﷺ سماحة آية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي حفظه الله، وهي باللغة الفارسية. و جاء التوقيع فيها بخط السيّد الشهيد ﷺ.

وهذا نصّ الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم

أولادي وأعزّائي حفظكم الله بعينه التي لا تنام.

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

أكتب إليكم في هذه اللحظات العظيمة التي حقّق فيها الإسلام نصراً حاسماً وفريداً في تاريخنا الحديث على يد الشعب الايراني المسلم، وبقيادة الإمام الخميني (دام ظلّه) وتعاضد سائر القوى الخيّرة والعلماء الأعلام، وإذا بالحُلم يصبح حقيقة، وإذا بالآمل يتحقّق، وإذا بالأفكار تنطلق بركاناً على الظالمين، لتجسّد وتقيم دولة الحقّ والإسلام على الأرض، وإذا بالإسلام الذي حبسه الظالمون والمستعمرون في قمقم، يكسر القمقم بسواعد إيرانيّة فتية لا ترهب الموت، ولم يثن عزيمتها إرهاب الطواغيب، ثمّ ينطلق من القمقم ليزلزل الأرض تحت أقدام كلّ الظالمين، ويبعث في نفوس المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها روحاً جديدة وأملاً جديداً.

إنّ الواجب على كلّ واحد منكم، وعلى كلّ فرد قدّر له حظّه السعيد أن يعيش في كنف هذه التجربة الإسلاميّة الرائدة أن يبذل كلّ طاقاته، وكلّ ما لديه من إمكانات وخدمات، ويضع ذلك كلّه في خدمة التجربة، فلا توقّف في البذل والبناء يُشاد لأجل الإسلام، ولا حدّ للبذل والقضيّة ترتفع رايتها بقوّة الإسلام، وعمليّة البناء الجديد بحاجة إلى طاقات كلّ فرد مهما كانت ضئيلة.

ويجب أن يكون واضحاً أيضاً أنّ مرجعيّة السيّد الخميني التي جسّدت آمال الإسلام في إيران اليوم لا بدّ من الالتفاف حولها، والإخلاص لها، وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم، وليست المرجعيّة الصالحة شخصاً، وإنّما هي هدف وطريق، وكلّ مرجعيّة حقّقت ذلك الهدف والطريق فهي المرجعيّة الصالحة التي يجب العمل لها بكلّ إخلاص.

والميدان المرجعي أو الساحة المرجعيّة في إيران يجب الابتعاد بها عن أيّ شيء من شأنه أن يُضعف أو لا يساهم في الحفاظ على المرجعيّة الرشيدة القائدة.

أخذ الله بيدكم، وأقرّ عيونكم بفرحة النصر، وحفظكم سنداً وذخراً والسلام عليكم يا أحبّتي ورحمة الله وبركاته.

أبوكم»[١]

٥ ـ وفي الفترة التي عمل فيها أعداء الثورة الإسلاميّة في إيران على إثارة القلاقل والفتن، وتحريض عرب إيران على التمرّد والعصيان، وجّه (رضوان الله عليه) رسالة إليهم دعاهم فيها إلى نبذ الفكر الجاهلي والقومي، وطلب منهم الالتفاف حول قيادة الإمام الخميني ﷺ وهذا نصّ الرسالة:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

شعبنا العربي المسلم العزيز في إيران المجاهد.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد: فإنّي أُخاطبكم باسم الإسلام، وأدعوكم وسائر شعوب إيران العظيمة لتجسيد روح الأخوّة الإسلاميّة، التي ضربت في التاريخ مثلاً أعلى في التعاضد والتلاحم في مجتمع المتّقين، الذي لا فضل فيه لمسلم على مسلم إلّا بالتقوى، مجتمع عمّار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، مجتمع القلوب العامرة بالفكر والإيمان، المتجاوزة كلّ حدود الأرض المفتوحة باسم السماء ورسالة السماء.

فلتتوحّد القلوب، ولتنصهر كلّ الطاقات في إطار القيادة الحكيمة للإمام الخميني، وفي طريق بناء المجتمع الإسلامي العظيم الذي يحمل مشعل القرآن

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٥٤) المطبوعة في القسم الاوّل من هذا الكتاب.

الكريم إلى العالم كلّه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد باقر الصدر

النجف الأشرف ١٦ رجب»[١]

٦ ـ ومن أهمّ صور الدعم والإسناد للثورة الإسلاميّة في إيران كتابة حلقات (الإسلام يقود الحياة). وكان سبب تأليفه أنّه ﷺ رأى أنّ بعض القوى التي برزت على الساحة الإسلاميّة في إيران بعد انتصار الثورة كانت تشكّل خطراً كبيراً على الثورة ـ وقد ثبت ذلك فيما بعد بما قامت به حركة مجاهدي خلق المنحرفة ـ فكان مهتمّاً بهذا الأمر. وقال ﷺ في تلك الفترة: لأجل تجاوز هذا الخطر يجب أن تطرح رسالة الإمام (توضيح المسائل) كشعار يرفعه كلّ إيراني، ويطالب بتطبيقها.

ومن الطبيعي أنّ هذا العمل سيفرز القوى المنحرفة، ويعزلها عن الساحة؛ لأنّ المنافق لا يطالب بتطبيق رسالة (توضيح المسائل) التي تمثّل أحكام القرآن والشريعة الإسلاميّة المقدّسة.

وقد بادر ﷺ إلى كتابة سلسلة (الإسلام يقود الحياة) لإعطاء تصوّرات عامّة وواضحة عن موقف الإسلام من مختلف القضايا الحياتيّة، والجوانب الاقتصاديّة والاجتماعيّة، ونظام الحكم وغير ذلك. وقد بعث العدد الأوّل من سلسلة الإسلام يقود الحياة (لمحة فقهيّة) إلى أحد تلامذته المخلصين وهو سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيد محمّد الغروي (حفظه الله) إذ كان قد أخبره بأنّه عازم على الذهاب إلى إيران ضمن وفد المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان للتهنئة

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٧٨) بخط تلميذ السيّد الشهيد ﷺ سماحة آية الله السيّد محمود الهاشمي الشاهرودي حفظه الله.

بمناسبة انتصار الثورة فطلب منه السيّد الشهيد طباعة هذا العدد وتقديم عدّة نسخ منه إلى المسؤولين في إيران. وقام سماحة السيّد الغروي بتقديم نسخة منه إلى مكتب الإمام الراحل ﷺ ونسخة إلى الشهيد السيّد البهشتي وإلى عدد من المسؤولين في أجهزة الدولة العليا في ذلك الوقت.

وقد طلب السيّد الشهيد ترجمة هذه الكراسات إلى اللغة الفارسيّة ليتسنّى للجميع معرفة تصوّرات عامّة عن هذه الجوانب الحيويّة من الإسلام.

وكان يقول: إنّ القادة الكرام في إيران مشغولون بالكثير من المشاكل والقضايا التي تتعلّق بحفظ الأمن واستتبابه، وتركيز قواعد الثورة، وممّا لا شكّ فيه أنّ ملء الجوانب الفكريّة لا يتيسّر لهم في الوقت الحاضر، فكان الواجب أن نمدّ يد العون والمساندة لهم، ولو بهذا الجهد البسيط، وكان ﷺ مصمّماً على كتابة أفكار حلقات (الإسلام يقود الحياة) بتفصيل واستيعاب أشمل لولا أن عاجلته يد الإجرام العفلقيّة، فحرمتنا من ذلك.[1]

ولكن مع ذلك يبدو أنّ لبساً ما وقع بحيث اعتبر البعض موقف الإمام الشهيد الصدر من الثورة الإسلاميّة موقفاً متّسماً بالبرود وعدم التجاوب والتفاعل وقد ظهر ذلك بوضوح من رسالتين له. ولعلّ السبب يعود إمّا إلى انشغال القادة في إيران بأحداث الثورة المتسارعة وإدارة شؤون البلاد، وهي تجربة جديدة تتّسم بالصعوبة البالغة بحيث تبدو الأُمور الأُخرىٰ معها غير ذات أهميّة، وإمّا إلى خبث النظام البعثي في العراق الذي كان يحتجز الرسائل والبرقيّات التي تمرّ عبر دائرة البريد والبرق والهاتف.

ويبدو أنّ الإمام الشهيد الصدر لم يرتح لذلك لأنّه يعلم أنّ النجف ـ مرجعيّةً

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٧٩).

وحوزةً ـ لم تتفاعل مع الثورة الإسلاميّة وأحداثها قبل الانتصار وبعده بقدر تفاعله هو نفسه ولذلك يقول في رسالةٍ له عن هذا الموضوع:

«إنّ الحاج عبّاس يقول: إنّهم يشعرون ببرود من قبلكم، وهذا غريب فإنّنا قمنا مع أخذ ظروفنا بعين الاعتبار بأقصىٰ ما يمكن من التأييد بعد البيان، وبوصول الإمام إلى تهران أبرقنا برقيّة مفصّلة فيها ما يشبه البيعة المطلقة، وبتعيين المهندس أبرقنا برقيّتين، وبرجوع السيّد إلى قم أبرقنا برقيّة مفصّلة في نفس يوم رجوعه، ولكن يبدو من رسائلكم العزيزة أنّها لم تصل لأنّكم تسألون لماذا لم تبرق مع أنّنا أبرقنا عن طريق دائرة البرق والبريد هنا.

وأمّا ما ذكره تلميذنا العزيز السيّد حسين من قوله: إنّ اُستاذنا المفدّىٰ لماذا يتباطئ، فلا أدري ماذا يقصد، هل يقصد التباطؤ في الإبراق التأييدي والتبريكي، فأنا أظنّ أنّنا لم نتباطأ وما تركنا مناسبةً إلّا وعبّرنا فيها عن منتهىٰ التعاطف مع السيّد بمنتهىٰ الاحترام. أو يقصد التباطؤ في سدّ حاجاتهم الفكريّة والدينيّة فأيضاً لاتباطؤ وهذا الكتاب الذي بادرت بكتابته وإرساله إليك لطبعه هو أحد شواهد عدم التباطؤ...»[١]

ويقول في رسالة أُخرى إلى سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد المستجابي ـ حفظه الله ـ ما يلي:

«في أواسط محرّم أعددنا بياناً حول الأحداث في إيران وحيث أنّ العصا ـ كما عبّرتم ـ لم تكن موجودة في يدنا فقد صرنا نفتّش عن العصا حتىٰ رأينا أن نملي البيان تليفونيّاً على بيت آقاي خميني في باريس وقد أمليناه كاملاً وقلنا لهم إنّ هذا البيان تحت تصرّفكم وبإمكانكم ترجمته إلى الفارسيّة وطبعه باللغتين وقد تسلّمه السيّد حسين الخميني وكذلك تسلّمه بعد ذلك آقا صادق سلطاني ولكنّ الظاهر أنّه لم يرتّب عليه أثر ولم يترجم ولم ينشر إلى أن دخل

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٨٠).

السيّد الخميني إلى إيران، وبعد ذلك أحسست بأنّ السيّد الخميني أصبح في موضع حدّي وفاصل بحيث لابدّ من تأييده من الناحية الدينيّة ونسيان كلّ الخصوصيّات الذاتيّة لأنّ سقوطه لاسمح الله يعني في الوقت الحاضر سقوط الكيان الديني كلّه فأبرقت إليه برقيّة مفصّلة باللغة الفارسيّة، ولا أدري هل طبعت أو أُهملت كما أُهمل البيان السابق...).[1]

هذه بعض مواقف الإمام الشهيد الصدر التي عبّر بها عن تأييده المطلق للثورة الإسلاميّة في إيران ولقائدها العظيم ﷺ في وقت كانت الظروف الأمنيّة في العراق في غاية الشدّة والقسوة، وكانت السلطة تحصي عليه انفاسه ودوائر الأمن تتربّص به ليلاً ونهاراً، خاصّة أنها كانت متوجّسة وخائفة ممّا قد سيحصل في المستقبل.

١ ـ راجع الوثيقة رقم (٨١).

انتفاضة رجب المباركة (١٩٧٩م) وخلفيّاتها

كيف بدأت انتفاضة رجب المباركة؟ وما هي مبرّرات قيامها، وما هي الأحداث التي رافقتها وأعقبتها؟

أعتقد أنّ الكثير من الغموض يشوب معالم هذا الحدث الكبير، وسيبقى كذلك بسبب الظروف الخاصّة التي تحول دون الحديث بإسهاب عن هذا الموضوع. وهنا سوف أسعى لإعطاء القارئ الكريم بعض الملامح العامّة التي تعينه على إدراك بعض الحقائق عن انتفاضة رجب المباركة.

وكنت في فترة الحجز قد طلبت من السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) أن يكتب هذا الفصل بنفسه إيماناً منّي بأهميّة هذا الموضوع وحسّاسيّة بعض فصوله وأحداثه.

كانت سلطة البعث العفلقيّة تعيش حالة من الرعب والقلق بسبب انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، وما سوف يسبّبه لها هذا الحدث الكبير من مشاكل داخليّة خطيرة، ذلك أنّ قيام حكومة إسلاميّة يقودها فقيه في دولة مجاورة للعراق ليس أمراً يمكن تجاهله بسهولة، فالحدث ـ على أقلّ تقدير ـ سيعزّز من تطلّع العراقيّين نحو إقامة حكومة إسلاميّة في العراق.

لقد كان وهج الثورة قد غطّى آفاق العراق، وتغلغل إلى قلوب العراقيّين كباراً وصغاراً، ولم نكن نستغرب ونحن نستمع لأطفالنا وهم يردّدون النشيد المعروف (**إيران إيران خون ومرك وعصيان**) رغم عدم معرفتهم ما تعنيه هذه الكلمات، ولكن لكثرة سماعهم لإذاعة إيران كان هذا النشيد وغيره يعبّر عن مدى تجاوبهم وانشدادهم للثورة الإسلاميّة.

ومن هنا كان موقف السلطة موقف المنافق. فعلى الصعيد الإعلامي العلني تظاهرت بتأييدٍ محدود جدّاً للثورة تمثّل بإرسال برقيّة من قِبل صدّام ـ الذي كان نائباً لرئيس ما يسمّى مجلس قيادة الثورة ـ بعثها باسم أحمد حسن البكر رئيس الجمهوريّة آنذاك [١] إلى الإمام الراحل السيّد الخميني (رضوان الله عليه). ولم يكن من مناص أمام السلطة إلّا إظهار هذا النوع من (المباركة والتأييد) للثورة، خاصّة بعد أن وقفت إيران من القضايا التي تهمّ الأُمّة الإسلاميّة والشعب العراقي موقفاً مبدأياً، كموقفها من القضيّة الفلسطينيّة، أو (إسرائيل) وأمريكا وما شابه ذلك.

وفي الواقع العملي فإنّ السلطة شنّت حملة إعلاميّة مكثّفة في نطاق حزب البعث وأجهزة الدولة على الثورة وقادتها، فوجّهت التهم والافتراءات المختلفة لهم، وفسّرت أسباب الثورة ودوافعها بأنّها اقتصاديّة بحتة، وأنّها طائفيّة! وأمريكيّة! وأنّها ضدّ مصالح الأُمّة العربيّة وإلى غير ذلك. وطلبت من الحزبيّين ترسيخ هذه التهم في أذهان أبناء الشعب كما بدأت أجهزة الأمن والمخابرات برصد الكوادر والقوى الإسلاميّة التي كانت تعتقد أنّها ستقوم بدور فعّال وخطير في المستقبل على صعيد السعي لإقامة حكومة إسلاميّة في العراق.

وما من شكّ إنّ أهمّ ما كان يقلق سلطة البعث هو نجاح التحرّك الجماهيري الإسلامي بقيادة العلماء لإقامة حكومة إسلاميّة. فالثورة الإسلاميّة ليست (انقلاباً عسكريّاً) حيكت خطّته في الظلام وقاده عسكري في فجر يوم والناس نيام. إنّ الثورة الإسلاميّة كما يشهد لها واقعها ومسيرتها كانت جماهيريّة وشعبيّة تخطو إلى النصر بدماء أبناء الشعب من الرجال والنساء والأطفال، وهم جميعاً لا يحملون

١ ـ هذه المعلومة مأخوذة من خطاب لصدام بصوته وصورته احتفظ به.

من السلاح إلّا سلاح الإيمان والهتاف بنداء (الله أكبر). ولم يتح لقائدها الإمام الخميني (رضوان الله عليه) من وسائل فعّالة إلّا قيادته الحكيمة وشجاعته النادرة ووسائل الإعلام التي كان من خلالها يوجّه الشعب ويقود الثورة.

إنّ هذه الظاهرة كانت تقلق السلطة، فكانت تبحث عن الوسائل التي تساعدها على التغلّب على هذه المعضلة الكبيرة التي تهدّد وجودها تهديداً واقعيّاً.

ومن الطبيعي أن تتّجه إلى السيّد الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) وإلى الحركة الإسلاميّة والكيان الإسلامي في العراق للقضاء عليه بأيّ أُسلوب، وبأيّ ثمن.

إنّ العراق كان المرشّح الطبيعي ـ لو توفّرت بعض المستلزمات الضروريّة ـ لثورة إسلاميّة جماهيريّة على غرار ما حدث في إيران. وهذا ما تعرفه السلطة.

ولم يكن توجّه السلطة هذا وتفكيرها وسعيها الدائب في التخطيط والتنفيذ للوقوف بوجه المدّ الإسلامي في العراق خافياً على سيّدنا الشهيد الصدر فقد كان يقول:

«إذا سكتنا فسوف تقضي السلطة على الوجود الإسلامي في العراق».

إنّ السيّد الشهيد كان يعلم أنّ الظروف لم تكن مهيّئة لتحرّك جماهيري بمستوى التحرّك الذي حدث في إيران لأُمور وأسباب معروفة لعلّ أهمّها بطش النظام ووحشيّته، التي لا نظير لها في تاريخنا المعاصر، ومنها ضعف الحركة الإسلاميّة وعدم قدرتها على مواجهةٍ قد تكون طويلة وشاقّة خاصّة مع افتقارها إلى الإمكانات المادّية، كما أنّ مرجعيّة السيّد الشهيد الصدر لم تكن قد استوعبت الساحة العراقيّة استيعاباً كاملاً بحيث يتاح لها التحرّك بمفردها دون حاجة إلى مساعدة الآخرين، ومنها أنّ بعض الأوساط المرجعيّة والحوزويّة كانت لاترى ضرورة لتحرّك من هذا القبيل.

إنّ هذه الأسباب وغيرها تحتاج إلى بحث ودراسة مفصّلة، وأنا هنا لست بصدد ذلك، وإنّما قصدت الإشارة فقط، والذي يهمّني هنا هو رأي السيّد الشهيد، واستطيع أن أجزم بأنّه (رضوان الله عليه) كان يرى أنّ العمل الإسلامي يجب أن لا يعتمد على التحرّك الجماهيري فقط، بل يجب أن ندخل في عملنا الأساليب التي تقتضيها ظروف العراق وأوضاعه وما تتطلّبه من مستلزمات، ويجب أن يتمّ ذلك بدقّة وحكمة؛ ولهذا كان (رضوان الله عليه) قد خطّط للعمل معتمداً على أساليب أُخرى وقد تحدّثت عن ذلك في موضوع استراتيجيّة السيّد الشهيد السياسيّة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ حدث انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران نضّج بعض الأفكار وسرّع في تجاوز بعض العقبات، وفرض أوضاعاً جديدة، وكان على السيّد الشهيد؛ أن يواكب المستجدّات بدقّة بالغة.

وكان من المنطقي أن لا يخطو السيّد الشهيد ﷺ من دون تنسيق وتشاور مع الإمام الخميني ﷺ، وهو ولي أمر المسلمين وقائدهم، خاصّة بعد أن دعا ﷺ إلى طاعته، والالتفاف حول قيادته، والذوبان في وجوده.

وعلى هذا الأساس جرى حديث خاصّ بيني وبينه حول الأُسلوب الأمثل للتشاور والتنسيق، فكان المقترح الأوّلي أن أقوم بحمل رسالة شفهيّة وأُسافر إلى إحدى دول الخليج، ومن هناك أتّصل بسماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد محمّد الغروي (حفظه الله) وهو أحد طلّاب السيّد الشهيد الأوفياء الأبرار، وهو بدوره يكون حلقة الوصل والتنسيق بين السيّد الشهيد والسيّد الإمام ﷺ.

إلّا أنّ السيّد الشهيد عدل عن هذا المقترح بعد أن اجتمع بسماحة السيّد محمود الهاشمي (حفظه الله) ـ ولم أحضر ذلك الاجتماع ـ، إلّا أنّي علمت أنّ السيّد الشهيد بعث سماحة السيّد الهاشمي إلى إيران ليكون ممثّلاً له، ومنسّقاً مع القيادة الإسلاميّة في إيران.

وقد حرص السيّد الشهيد ﴿﴾ على أن يتمّ هذا الأمر بسريّة تامّة، وإن كانت هذه السرّية سوف لا تطول؛ لأنّ سماحة السيّد الهاشمي (حفظه الله) من أبرز طلّاب السيّد الشهيد والمقرّبين منه، وهو مراقب من قِبل السلطة، وسوف تعرف ـ ولو بعد حين ـ بسفره إلى إيران وتمثيله للسيّد الشهيد فيها.

كان هذا العمل قد جعل السلطة في حالة من التوجّس والقلق عمّا سوف يجري في المستقبل، إذ أنّها تعلم أنّ السيّد الهاشمي (حفظه الله) شخصيّة كبيرة وخطيرة، وليس منطقيّاً أن يكون سفره بلا هدف كبير وخطير، ولهذا السبب كثّفت السلطة من رقابتها للسيّد الشهيد ﴿﴾ بشكلٍ لم يسبق له نظير.

برقيّة الإمام الخميني ﴿﴾ :

ولم يمض وقت طويل على مغادرة سماحة السيّد الهاشمي (حفظه الله) إلى إيران حتّى بثّت وسائل الإعلام في جمهوريّة إيران الإسلاميّة ومنها إذاعة طهران القسم العربي برقيّةً وجّهها الإمام الراحل إلى السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) ونصّها كالتالي:

بسمه تعالى

سماحة حجّة الإسلام والمسلمين الحاج السيّد محمّد باقر الصدر دامت بركاته.

علمنا أنّ سماحتكم تعتزمون مغادرة العراق بسبب بعض الحوادث، إنّني لا أرى من الصالح مغادرتكم مدينة النجف الأشرف مركز العلوم الإسلاميّة، وإنّني قلق من هذا الأمر، آمل إن شاء الله إزالة قلق سماحتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

روح الله الموسوي الخميني

وقد أجاب السيّد الشهيد ﵀ على برقيّة السيّد الإمام ﵀ بالبرقيّة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله العظمى الإمام المجاهد السيّد روح الله الخميني دام ظلّه.

تلقّيت برقيّتكم الكريمة التي جسّدت أُبوّتكم ورعايتكم الروحيّة للنجف الأشرف، الذي لا يزال منذ فارقكم يعيش انتصاراتكم العظيمة، وإنّي أستمدّ من توجيهكم الشريف نفحة روحيّة، كما أشعر بعمق المسؤوليّة في الحفاظ على الكيان العلمي للنجف الأشرف.

وأودّ أن أُعبّر لكم بهذه المناسبة عن تحيّات الملايين من المسلمين والمؤمنين في عراقنا العزيز، الذي وجد في نور الإسلام الذي أشرق من جديد على يدكم ضوءاً هادياً للعالم كلّه، وطاقة روحيّة لضرب المستعمر الكافر، والاستعمار الأمريكي خاصّة، ولتحرير العالم من كلّ أشكاله الإجراميّة، وفي مقدّمتها جريمة اغتصاب أرضنا المقدّسة فلسطين.

ونسأل المولى (سبحانه وتعالى) أن يمتّعنا بدوام وجودكم الغالي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الخامس من رجب ١٣٩٩ هـ النجف الأشرف

محمّد باقر الصدر

والحقيقة أنّ السيّد الشهيد لم يستلم برقيّة السيّد الإمام ﵀ بصورة رسميّة إذ أنّها احتُجزت لدى السلطة، وإنّما سمعها بعد أن سجّلتها له على شريط الكاسيت عندما أُذيعت من إذاعة طهران القسم العربي.

وكان في وقتها قد طلب منّي تكرار سماع البرقيّة المسجّلة عليه، فكان يستمع إليها بدقّة، ثمّ طلب السيّد الشهيد ﵀ أن نتّصل بسماحة السيّد الهاشم ونستفسر عن هذا الأمر وعن مقصود السيّد الإمام الحقيقي من ذلك، حيث إنّ السيّد الشهيد لم يكن عازماً في واقع الأمر على مغادرة العراق، بل لم يفكّر بذلك

مطلقاً، فهل هناك شيء فرض أن تكون صياغة البرقيّة بهذا الشكل والسيّد الشهيد لا يعلم؟ وكان هذا الاحتمال أقوى المحتملات التي تتعلّق بهذا الموضوع.

لقد أجرينا عدّة اتّصالات هاتفية نستفسر عن حقيقة البرقيّة والهدف منها، ولكن ـ للأسف ـ لم نحصل على نتيجة، ولم يتحقّق السيّد الشهيد ﵀ من هذه القضيّة ولم يعرف الأسباب والدوافع حتّى اليوم الذي استشهد فيه.

وعلى ضوء ذلك ماذا سيكون موقف السيّد الشهيد ﵀ والوقت يجري بسرعة والأحداث تتوالى وهي تتطلّب اتّخاذ الموقف المناسب تجاه هذه القضيّة.

الاجتماع التاريخي:

دعا (رضوان الله عليه) بعض طلّابه والمقرّبين منه إلى اجتماع خاصّ لدراسة هذه القضيّة، وما هو الموقف منها، وكيف يجب أن نتعامل معها؟

وجرى في ذلك الاجتماع كلام كثير، وتمّت دراسة الموقف من جوانبه المتعدّدة، والآثار التي تترتّب على كلّ موقف، السلبيّة والإيجابيّة منها.

ولم يقع الكلام في أصل الجواب على برقيّة السيّد الإمام﵀، فإنّ ذلك كان مقرّراً منذ البدء، وإنّما الحديث كان حول مسألة أنّه هل نبدأ مرحلة المواجهة مع السلطة؟ وهل ستتجاوب الأُمّة بالقدر المطلوب الذي يضمن نجاح المواجهة والوصول إلى وضع مطلوب يشكّل منعطفاً كبيراً في التحرّك الإسلامي في العراق.

وأخيراً استقرّ الرأي في تلك الجلسة على بدء الخطوة الجديدة..

ما هي هذه الخطوة؟

كان السيّد الشهيد﵀ يعلم أنّ قطّاعات كبيرة من أبناء الشعب قد استمعت لبرقيّة الإمام السيّد الخميني (رضوان الله عليه)، وقد أقلقها أن يغادر الشهيد﵀ العراق، ويترك الجماهير من دون قائد يرعاهم وهم في أمسّ الحاجة إليه، وفي أخطر

وأهمّ مرحلة من مراحل التحرّك الإسلامي وكانت أعداد كبيرة من المؤمنين تتوافد إلى النجف، تسأل عن هذا الأمر، وهل حقّاً سيغادر السيّد الشهيد‌ العراق؟

من هنا بدأت فكرة مجيء وفود البيعة تبرز إلى السطح وتتبلور في ذلك الاجتماع وهل هو عمل يناسب هذه المرحلة أم لا؟ فكان الرأي قد انتهى إلى أن نبدأ بهذه الخطوة مهما كانت النتائج. وكان هدف السيّد الشهيد‌ أن يبدأ مرحلة جديدة من المواجهة مع السلطة، ويضع من خلال ذلك الشعب العراقي في طريق الصراع المباشر مع النظام، ومواصلة الطريق حتّى تحقيق الهدف المنشود بإقامة حكم الإسلام في العراق، حتّى لو كان الثمن هو دم السيّد الشهيد نفسه.

وكنت قلقاً جدّاً من نتائج ذلك الاجتماع، ومتوجّساً من العواقب التي سينتهي إليها التحرّك، لأنّي أعلم أنّ السلطة العميلة لا تتحمّل أقلّ من هذا العمل لو صدر من السيّد الشهيد. فكيف لو حدث أن جاءت وفود كبيرة، وقد قلت للسيّد الشهيد‌ بعد أن انفضّ الاجتماع: إنّ هذا يعني أنّكم قد صمّمتم على الاستشهاد في سبيل الله تعالى في وقت تكون الأُمّة فيه بأمسّ الحاجة إليكم؟ فقال: هل تريد إقامة حكومة إسلاميّة في العراق؟ قلت: نعم، فقال:

> «إنّي أرى أنّ طريقها هذا. أن أستشهد لتستثمر الجماهير دمي. المهمّ أن أعمل ما أعتقد أنّه يخدم الإسلام حتّى لو كان ثمنه حياتي ولا أُفكّر بنصرٍ سريع».

وفود البيعة:

تقاطرت وفود البيعة، وهي تضمّ قطّاعات واسعة وكبيرة من أبناء الأُمّة، وخاصّة الشباب المثقّف منهم، يطالبون السيّد الشهيد‌ بالبقاء معهم، وعدم مغادرة العراق.

وكان السيّد الشهيد ﵀ يستقبل الوفود طوال النهار وشطراً من الليل، بروحٍ من التفاعل والتجاوب، وبخلقٍ محمّدي رفيع رغم المشاكل الصحّية التي كان يعاني منها.

ولأجل أن يكون تقييمنا صحيحاً للنتائج التي تترتّب على مجيء الوفود يجب أن نشير إلى أهمّ ما كان يميّزها، وما اتّسمت به من خصائص.

أوّلاً: كان طابع الشمول من أهمّ ما يميّز تلك الوفود، فمن الناحية الجغرافيّة كانت معظم مدن العراق قد شاركت فيها مشاركة شاملة وواسعة، ومن ناحية الكيف فإنّ مختلف شرائح الأُمّة وطبقاتها شاركت في تلك الوفود، فترى الكهل والشاب والمرأة، وترى الطبيب، والمهندس، والمدرّس والطالب، والكاسب في صفّ واحد، وهذا الأمر يدلّ على الأُفق الكبير لمرجعيّة السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) وامتداده العميق في أوساط الأمّة، وهذا ما كانت تخشاه السلطة وتحسب له ألف حساب.

ثانياً: الكثافة الكبيرة من حيث الكمّ، فلقد ضاق سوق العمارة والأزقّة القريبة من منزل السيّد الشهيد ﵀، وامتلأت شوارع النجف الأشرف بالوفود القادمة من كلّ مكان، حتّى أثار ذلك استغراب النجفيين أنفسهم، وأستطيع القول: إنّ النجف لم تشهد في تاريخها المنظور تحرّكاً جماهيريّاً بهذا الحجم والكيف، باستثناء تشييع جنازة المرحوم الإمام الحكيم ﵀. وكان هذا الكم الكبير هو الذي جعل السلطة تتريّث في استعمال القوّة لقمع الوفود في حينها، واكتفت بالتقاط الصور، وتسجيل الأسماء فقط.

ثالثاً: تحوّلت الوفود ـ وفي فترة زمنيّة قصيرة ـ من وفود للمطالبة ببقاء السيّد الشهيد في العراق إلى وفود لمبايعته، ومبايعة الإمام الخميني ﵀، وكانت

معظم شعارات الوفود وهتافاتهم من مثل: «باسم الخميني والصدر الإسلام دومه[١] منتصر»، «عاش عاش الصدر والدين دومه منتصر»، وأمثالهما.

رابعاً: مشاركة أعداد من إخواننا أهل السنة في وفود البيعة، وتعتبر هذه الظاهرة فريدة من نوعها، فقد أثبتت أنّ الحواجز النفسيّة سرعان ما تنهار حينما تتوفّر البيئة المناسبة، والقيادة الواعية.

وكان لهذا التكاتف والتوحّد في الموقف دوره الكبير في إعطاء التحرّك الإسلامي بُعداً كبيراً يصعب على السلطة تحدّيه بسهولة.

خامساً: مشاركة المرأة العراقيّة في تلك الوفود مشاركة فعّالة جدّاً، وكانت معظم الوفود النسائيّة تلتقي بشهيدنا الصدر في منزل العائلة، إلّا وفداً كانت تقوده المجاهدة الشهيدة سلوى البحراني (رحمهاالله)، فقد التقين بالسيّد الشهيد في البراني الخاص بالرجال، وطالبن بالبيعة، كما كان في زمن رسول الله ﷺ، فأحضرنا إناءاً كبيراً مملوءاً بالماء، فوضع السيد الشهيد يده فيه، ثمّ قامت كلّ واحدة منهنّ بوضع يدها فيه، وبايعنه على الشهادة.

وقد ألقى (رضوان الله عليه) فيهنّ كلمة قيّمة نحتفظ بتسجيلها على شريط الكاسيت هذا نصّها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

المشاعر التي أحسّ بها في قلبي اتّجاهكم، اتّجاه البنات من أمثالكم، مشاعر لا حدّ لها، إحساس بمسؤوليتكنّ في العصر الحاضر كبير جدّاً.

يا بنات فاطمة الزهراء..

أنتن المثل الأعلى لمرأة اليوم..

اليوم أنتم تقدّمون المثل الأعلى للمرأة التي تحمل بإحدى يديها إسلامها،

١ ـ كلمة عاميّة تعني دائماً.

ودينها وقيمها، ومُثلها وحجابها، وإصرارها على شخصيّتها الأصيلة القويّة الشريفة النظيفة التي حفظها الإسلام لها، وتحمل بيدها الأُخرى العلم والثقافة.لكن لا هذه الثقافة التي أرادها المستعمرون لنا منذ أن دخل المستعمرون عالمنا الإسلامي قبل ستين سنة، أرادوا أن يقنعوا شبابنا وشابّاتنا بأنّ الثقافة عبارة عن لون من المجون.. عبارة عن ألوان السفور والاختلاط.. عبارة عن السعي وراء الشهوات والنزوات.. عبارة عن الابتعاد عن المسجد، وعن الإسلام، وعن المرجع، وعن الصلاة..

قالوا لشبابنا وشابّاتنا بأنّ الإنسان التقدّمي، والإنسانة التقدّميّة المثقّفة هي من تقطع صلتها بهذه الأُمور، وتنغمس إلى رأسها في الشهوات والملذّات..

هكذا أراد المستعمرون منذ ستّين سنة أن يسرّبوا إلى نفوس بناتنا الطاهرات، وفي نفوس شبابنا الزاكين هذا المفهوم الخاطئ للتقدّميّة وللثقافة.

أنتنّ يا بنات الزهراء تقع عليكنّ مسؤوليّة أن تعرّفوا العالم أنّ الثقافة والعلم الحقيقي يحمل مع الإيمان، يحمل مع الدين، يحمل مع رسالة السماء كما حملتها فاطمة الزهراء.

أُمّكنّ العظيمة فاطمة الزهراء كانت مثلاً أعلى في الإسلام، في الجهاد عن الإسلام.. في الصبر على محن الإسلام.. كانت مع أبيها في كلّ شدائده، في كلّ محنه.. كانت تخرج معه في الحروب، كانت تواسي جروحه، كانت تلملم محنه، كانت دائماً إلى جنبه، كان يستمدّ منها سلوة في اللحظات العصيبة، كان يستمدّ منها طاقة في لحظات صعبة جدّاً، كانت إمرأة مسلمة مجاهدة بكلّ معنى.

هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ فاطمة الزهراء كانت إمرأة عالمة، وكانت المثل الأعلى في العلم والثقافة، لكن لا هذه الثقافة التي أرادها المستعرون لنا، لاثقافة المجون والسفور، لا ثقافة الاختلاط والتميّع، لا ثقافة التحلّل، وإنّما الثقافة الحقيقة.

انطلقت فاطمة الزهراء..

انطلقت إلى مسجد أبيها حينما اقتضى منها الواجب أن تخرج إلى مسجد أبيها، وخطبت تلك الخطبة العظيمة التي لا يقدر عليها الكبار من العلماء.. كانت البلاغة والفصاحة والحكمة تتدفّق من كلماتها كما يتدفّق السيل من البحر، وكان عمرها الشريف أقلّ من عشرين سنة، لكنّها علّمت العلماء علّمت الحكماء، ضربت المثل الأعلى الذي لم تصل إليه حتّى الآن المرأة الأُوروبيّة.

هذه فاطمة الزهراء التي استطاعت أن تثبت في تاريخ الإسلام أنّ العلم يجتمع مع الدين، وأنّ الثقافة توأم مع الإيمان بالله، ومع التمسّك بالحجاب، ومع التمسّك بشعائر الدين.

أنتنّ حملتنّ رسالة فاطمة الزهراء..

أنتنّ مَنْ سوف يعرفُ العالم عن طريقكنّ أنّ العلم يجب أن يكون إلى جانب الإيمان، وأنّه ليس من العلم في شيء السفور، وليس من الثقافة في شيء الاختلاط والتحلّل.

إنّ المرأة يمكن أن تصل إلى أعلى مدارج الكمال والرقي في كلّ الميادين، من دون أن تتنازل عن قيمة من قيمها الإسلاميّة، وعن شيء من تراثها، ومن رسالة ربّها ربّ العالمين.

الأُوربيون حاولوا أن يثنوكم، وعليكم أنتم أن تُفهّموا العالم كلّه أنّهم على خطأ، وأنّكم على حقّ.

نسأل الله أن يوفّقكم جميعاً إن شاء الله ويرعاكم بعينه»[١]

إنّ مشاركة المرأة العراقيّة في عملٍ اجتماعي سياسي كهذا كان خطوة كبيرة في تلك المرحلة، وتحدّياً لكلّ العقبات التي كانت تحول بينها وبين ممارسة دورها في خدمة الإسلام، وهذا الأمر أقلق السلطة قلقاً بالغاً، ويكفينا دليلاً على ذلك الشهيدة السعيدة سلوى البحراني التي أُعدمت بالسم بعد أيّام قليلة من أيّام البيعة.

١ ـ من شريط مسجّل بصوت السيّد الشهيد.

لقد كان السيّد الشهيد ﵀ سعيداً بما تحقّق من تحدٍّ للسلطة من قبل وفود البيعة، إذ اعتقد أنّ ما حدث أثبت للسلطة أنّ الإسلام حيّ باقٍ، وأنّ المرجعيّة الدينيّة رغم التطويق الشديد لها لازالت أمل العراقيين، وهي أيضاً من يملك مفتاح تحريك الجماهير.

لقد رأى السيّد الشهيد أنّ الجماهير ورغم الجهود الكبيرة التي بذلتها السلطة لمسخ هويّتها وإرادتها وكرامتها لازالت حيّة تستجيب لنداء الحقّ، متى ما وجدت القيادة الرشيدة والواعية، وهذا هو الذي زرع الأمل في قلبه، وقد سمعته يقول:

«من كان يظنّ أنّ الجماهير ستستجيب إلى هذا الحدّ، وتتوافد إلى النجف الأشرف تطلب منّي أن أبقى معها، أو تعلن عن بيعتها على الموت في سبيل الله تعالى، في مثل هذه الظروف الأمنيّة القاسية؟ إنّ هؤلاء جميعاً يعلمون أنّ ثمن مجيئهم الإعدام، أو السجن على أحسن التقادير ومع ذلك فقد تحدّوا الموت وجاءوا، إنّ هذا هو النصر المبين».

وحقّاً إنّ ما حدث كان شيئاً عظيماً، بل كان ثورة جماهيريّة عارمة، وقد قال مدير أمن النجف في أوّل لقاء له بالسيّد الشهيد ﵀ في فترة الحجز: «سيدنا، إنّ ما حدث كان ثورة كادت أن تنجح لولا حزم القيادة!».

كما أنّ السيد علي بدر الدين أخبر السيّد الشهيد أنّ أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ـ لا أتذكّر اسمه ـ قال له: «إنّ السيّد محمّد باقر الصدر قاد ثورة ضدّنا، ومن الآن سوف نتعامل معه على هذا الأساس»، وأخبره أيضاً: أنّ القيادة السياسيّة والعسكريّة كانت مجتمعة ومتأهّبة طيلة تلك الفترة، وهي في حالة إنذار قصوى.

وكانت السلطة قد استدعت معظم كوادرها الأمنيّة والحزبيّة من مختلف المدن إلى النجف لمراقبة الأوضاع فيها، أو السيطرة عليها، في حال تطوّر الأوضاع إلى حدّ المواجهة المسلّحة.

كتابة البيان الاوّل:

في هذا الجو الحماسي الثوري كتب السيّد الشهيد البيان الأوّل الذي وجّهه إلى الشعب العراقي، وهذا نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله الطاهرين، وصحبه الميامين.

أيّها الشعب العراقي المسلم..

إنّي أُخاطبك أيّها الشعب الأبيّ وأنا أشدّ الناس إيماناً بك، وبروحك الكبيرة، وبتاريخك المجيد، وأكثرهم اعتزازاً بما طفحت به قلوب أبنائك البررة من مشاعر الحبّ والولاء، والبنوّة للمرجعيّة، إذ تدفّقوا إلى أبيهم يؤكّدون ولاءهم للإسلام بنفوس ملؤها الغيرة والحمية والتقوى، يطلبون منّي أن أظلّ إلى جانبهم أُواسيهم، وأعيش آلامهم عن قرب لأنّها آلامي.

وإنّي أودّ أن أُأكّد لك ـ يا شعب آبائي وأجدادي ـ أنّي معك، وفي أعماقك، ولن أتخلّى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك.

وأودّ أن أُأكّد للمسؤولين: أنّ هذا الكبت الذي فرض بقوّة الحديد والنار على الشعب العراقي فحرمه من أبسط حقوقه وحرّياته في ممارسة شعائره الدينيّة لا يمكن أن يستمرّ، ولا يمكن أن يُعالج دائماً بالقوّة والقمع.

إنّ القوّة لو كانت علاجاً حاسماً دائماً لبقي الفراعنة والجبابرة.

أسقطوا الأذان من الإذاعة فصبرنا..

وأسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا..

وطوّقوا شعائر الإمام الحسين عليه‌السلام ومنعوا القسم الأعظم منها فصبرنا..

وحاصروا المساجد وملأوها (أمناً) وعيوناً فصبرنا، وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلى حزبهم فصبرنا، وقالوا إنّها فترة انتقال يجب تجنيد الشعب

فيها فصبرنا، ولكن إلى متى؟ إلى متى تستمرّ فترة الانتقال؟ إذا كانت فترة عشرة سنين من الحكم لا تكفي لإيجاد الجوّ المناسب لكي يختار الشعب العراقي طريقه، فأيّ فترة تنتظرون لذلك؟

وإذا كانت فترة عشر سنين من الحكم المطلق لم تتح لكم ـ أيّها المسؤولون ـ إقناع الناس بالانتماء إلى حزبكم إلّا عن طريق الإكراه، فماذا تأملون؟

وإذا كانت السلطة تريد أن تعرف الوجه الحقيقي للشعب العراقي فلتجمّد أجهزتها القمعيّة أُسبوعاً واحداً فقط، ولتسمح للناس بأن يعبّروا خلال أُسبوع عمّا يريدون.

إنّي أُطالب باسمكم جميعاً.. أُطالب بإطلاق حرّية الشعائر الدينيّة، وشعائر الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وأُطالب باسمكم جميعاً بإعادة الأذان وصلاة الجمعة، والشعائر الإسلاميّة إلى الإذاعة.

وأُطالب باسمكم جميعاً بإيقاف حملات الإكراه على الانتساب إلى حزب البعث على كلّ المستويات.

وأُطالب باسم كرامة الإنسان بالإفراج عن المعتقلين بصورة تعسّفية، وإيقاف الاعتقال الكيفي الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء.

وأخيراً أُطالب باسمكم جميعاً باسم القيم التي تمثّلونها بفسح المجال للشعب ليمارس بصورة حقيقيّة حقّه في تسيير شؤون البلاد، وذلك عن طريق إجراء انتخاب حرّ ينبثق عنه مجلس يمثّل الأُمّة تمثيلاً صادقا.

وإنّي أعلم أنّ هذه الطلبات سوف تكلّفني غالياً، وقد تكلّفني حياتي.. ولكن هذه الطلبات ليست طلب فرد لتموت بموته، وإنّما هذه الطلبات هي مشاعر اُمّة وإرادة اُمّة، ولا يمكن أن تموت أُمة تعيش في أعماقها روح محمّد، وعلي والصفوة من آل محمّد وأصحابه.

وإذا لم تستجب السلطة لهذه الطلبات، فإنّي أدعو أبناء الشعب العراقي

الأبيّ إلى المواصلة في حمل هذه الطلبات مهما كلّفه ذلك من ثمن، لأنّ هذا دفاع عن النفس، وعن الكرامة، وعن الإسلام، رسالة الله الخالدة، والله وليّ التوفيق.

٢٠ رجب ١٣٩٩هـ [= ١٩٧٩م]
محمّد باقر الصدر»[١]

وكان لإصدار هذا البيان مبرّراته ودواعيه، إذ أنّ السيّد الشهيد ﷺ كان يعتقد أنّ درجة احتمال استشهاده عالية جدّاً، ولا يمكن للسلطة أن تتجاوز هذا التحدّي الكبير من دون أن تنتقم بمستوى الفعل، فكان لابدّ من موقف أو عمل يعطي رؤية واضحة للجماهير، لتستثمر مناسبة استشهاده.

ومن الواضح أنّ هذا البيان التاريخي تضمّن مطالب مختلفة، بدأت بالمطالبة بإعادة الأذان، وصلاة الجمعة إلى الإذاعة، وانتهت بالمطالبة بأن يمارس الشعب العراقي إدارة شؤون البلاد. وعلى هذا الأساس لو أنّ السيّد الشهيد ﷺ نال الشهادة في تلك الفترة، فإنّ الجماهير العراقيّة سوف تحمل نفس المطالب وتجاهد في سبيل تحقيقها، فهو (رضوان الله عليه) قد أعطى مبرّرات مواصلة الجهاد والهدف الذي يجب أن تتّجه إليه المسيرة.

وهذا بخلاف ما لو كان قد استشهد من دون أهداف واضحة، ومطالب معيّنة، فإنّ غاية ما يمكن أن يحدث عبارة عن ردود فعل آنيّة، ستنتهي بعد حين، ولهذا أكّد ﷺ في بيانه على أنّ «هذه المطالب ليست مطالب فرد لتموت بموته وإنّما هذه المطالب هي مشاعر أُمّة وإرادة أُمّة».

وأكّد أيضاً على ضرورة الاستمرار في مواصلة الطريق، ودعا الجماهير إلى

١ ـ هذا البيان مسجل بصوته ﷺ.

التضحية في سبيل تحقيق هذه المطالب مهما كان الثمن.

وكنت قد سمعت من السيّد الشهيد ﷺ أنّه أراد أن يخلق قضيّة واضحة المعالم بالنسبة للمؤمنين والمجاهدين، ومعقّدة جدّاً بالنسبة للسلطة. فالسلطة سوف لن تستجيب لمعظم مطالب البيان، وإن فُرض أنّها ستستجيب، فإنّ ذلك يعني زوالها وسقوطها في فترة زمنيّة قصيرة.

وكان قد طلب أن يذاع هذا البيان فور اعتقاله لأنّه كان يعتقد أنّ الاعتقال سيكون النهاية الحتميّة لحياته.

ومن الحقائق التي يجب أن أُشير إليها هي أنّ السيّد الشهيد ﷺ لم يستهدف النصر السريع في كلّ تحرّكه، لأنّه يعتقد أنّ الظروف لاتساعد عليه، وإنّما كان هدفه التضحية الهادفة المدروسة التي تمهّد لذلك النصر المطلوب، ولهذا السبب فإنّ بياناته الثلاثة كانت تدعو إلى مواصلة الجهاد، ولا تشير إلى النصر، إلّا بإشارات بسيطة جدّاً.

توقّف الوفود:

لاحظ السيّد الشهيد ﷺ أنّ هذا القدر من التحرّك كان كافياً لتحقيق الهدف المقصود في تلك الفترة، فأوعز إلى بعض وكلائه ومحبّيه أن يدعو الناس إلى الكفّ عن مواصلة مجيء الوفود إلى النجف حيث لا ضرورة تقتضي ذلك.

وكان وراء اتّخاذ هذا القرار عدّة أُمور، أُشير إلى بعضها:

أوّلاً: أنّ السلطة أخضعت معظم الوفود لمراقبة شديدة، ففضلاً عن التقاط صورة فتوغرافيّة لهم، كانت مفارزها الأمنيّة في كافّة الطرق المؤدّية إلى النجف تضبط أسماءهم بدقّة، وكانت هذه الإجراءات قد اتّخذت تمهيداً لاعتقالهم فيما بعد.

ولم يكن السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) يجد ضرورة للتضحية بهذا الكمّ الهائل من الناس، وإنّما أراد لهم أن يستغلّوا تضحيته هو ﷺ فيما بعد.

وثانياً: حرص ﷺ على عدم كشف القطّاعات الأُخرى من المؤمنين الذين كانوا يعتزمون المجيء إلى النجف، وكان يقول:

«إنّ أُولئك ذخيرة العمل المستقبلي، ويمكن أن نُفاجئ بهم السلطة في المستقبل إذا تسنّى لنا تصعيد المواجهة معها».

وثالثاً: وجد السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) في تجاوب أبناء الشعب العراقي واستعدادهم الكبير في انتفاضة رجب الفرصة المناسبة للسعي الجادّ نحو إقامة حكومة إسلاميّة في العراق، وكان همّه الكبير في البحث للاستفادة من القوى الجماهيرية في هذا المجال، وقد قال لي في بداية الحجز: «إنّ الحجز سيحقّق لنا الفرصة المناسبة لبحث هذا الأمر» ولكن بمرور الزمن بدأت آماله تتضائل في أن يتمكّن من تحقيق ذلك لا لأنّ الشعب العراقي غير مستعد أو متجاوب بل لأنّه أحسّ بعدم اهتمام أو تجاوب من كان يعتمد عليه في هذا المجال، واستمرّت الأحداث تجري بسرعة ووجد ﷺ أنّ الاستشهاد الهادف وإراقة دمه هو السبيل الوحيد الذي يمكنه خدمة الإسلام من خلاله بعد أن استنفدت الوسائل الأُخرىٰ مفعولها، وهكذا فعل. والحديث في هذا المجال واسع لا أرى ضرورة لخوض تفاصيله في هذا الكتاب المختصر عن السيّد الشهيد ﷺ.

أهمّ الأحداث في مدّة الحجز

بداية الحجز:

كان هدف السلطة من اعتقال السيّد الشهيد ﷺ في يوم (١٧) رجب هو تنفيذ حكم الإعدام فيه، ولمّا فشلت في تحقيق ذلك اضطرّت إلى اتّخاذ إجراء آخر تمثّل بفرض الإقامة الجبريّة (الحجز) عليه، فبعد ساعات قليلة من عودة السيّد الشهيد إلى النجف، اتّصل المجرم مدير الأمن العام ومدير الشعبة الخامسة المعروف بزهير ـ أبو أسماء ـ ليبلّغ بقرار الحجز، وقال: لا يحقّ للسيّد الصدر الخروج من المنزل، ولا يحقّ لأحدٍ الدخول عليه.

تطويق المنزل:

ثمّ طوّقت أجهزة الأمن منزل السيّد الشهيد من كلّ الجهات، ومنعت الناس من المرور من الزقاق الذي يقع فيه، وضيّقوا الخناق على المنطقة كلّها، كما وضعوا جهازاً للمراقبة فوق بناية مطلّة على منزل السيّد الشهيد والمنطقة لتصوير ما قد يحدث، وكانت تعمل ليل نهار.

وهكذا بدأ الحجز الذي استمرّ تسعة أشهر، وانتهى بالشهادة.

وممّا يجب أن نشير إليه: أنّ السلطة العميلة كانت مضطرّة لفرض الإقامة الجبريّة على السيّد الشهيد (رضوان الله عليه)، إذ كانت تعتقد أنّ الأحداث سوف تكون خطيرة جدّاً لو تُرك السيّد الشهيد حرّاً[١].

١ ـ أخبرنا بذلك المرحوم السيد علي بدر الدين خلال فترة الاحتجاز.

وكان الاعتقاد السائد أنّ ردوداً من الفعل ستحصل من خارج العراق، وخاصّة من قبل العراقيين المتواجدين هناك او من غيرهم ستساهم في تحقيق فرصة أُخرى تتيح للسيّد الشهيد تحرّكاً أكثر خطورة وأهميّة.

قطع الماء والكهرباء والهاتف:

ثمّ قامت السلطة بقطع الماء والكهرباء والهاتف واستمرّ ذلك ما يقرب من خمسة عشر يوماً، ولولا وجود خزّانات المياه لقتلنا العطش حتماً. ويبدو أنّ السلطة كانت تستهدف ذلك.

منع الخادم من دخول البيت:

ورافق ذلك أنّ السلطة منعت الحاج عباس ـ خادم السيّد الشهيد ﷺ ـ من دخول المنزل، وهو الذي كان يوفّر ما تحتاجه عائلة السيّد الشهيد من مواد غذائيّة قبل الحجز، وكان الهدف من ذلك هو قتل السيّد الشهيد وعائلته جوعاً.

وبسبب هذه المحاصرة الجائرة اضطررنا إلى الاستفادة من الخبز اليابس الذي لا يصلح للأكل، وكنت يوماً أتغدّى مع السيّد الشهيد ﷺ من هذا الطعام، فلمح في وجهي علامات التأثّر، وكنت في نفسي أقول: سبحان الله إنّ نائب المعصوم يأكل من هذا الفتات بينما يأكل الطغاة ما لذّ وطاب! فقال لي:

«إنّ هذا الطعام ألذّ طعام ذقته في حياتي؛ لأنّه في سبيل الله ومن أجل الله».

وكلّما مرّت الأيّام كانت تشتدّ المحنة على السيّد الشهيد سيّما من الناحية العاطفيّة، فإنّه كان يحسّ بحرج كبير وهو يرى أطفاله جياعاً، وأُمّه المريضة المقعدة تطلب الدواء ولادواء، وكان يقول لي:

«سيموت هؤلاء جوعاً بسببي، ولكن ما دام ذلك يخدم الإسلام فأنا سعيد به، ومستعدّ لما هو أعظم منه».

كان أوّل عمليّة اقتحام لفكّ الحصار الغذائي قام بها سماحة العلّامة السيّد مير حسن أبو طبيخ (حفظه الله)، وكان موقفاً شجاعاً وبارّاً. فقد هيّأ كمّية من المواد الغذائيّة، وجاء إلى الزقاق الذي يقع فيه منزل السيّد الشهيد ﵁ ـ بعد أن سمحت السلطة للناس بالمرور عبره ـ متظاهراً بالمرور منه إلى جهة شارع الإمام زين العابدين ﵇، ولمّا وصل إلى الباب طرقه فهرعت الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) لتعرف ماذا حدث، فسمعت السيد مير حسن أبو طبيخ يقول لقوّات الأمن التي حاولت منعه:

«الآن أذهب معكم إلى حيث تريدون، هل تريدون قتل الأطفال جوعاً وعطشاً؟».

وعندها فتحت الشهيدة الباب لأنّها كانت تعرف صوته، فألقى زنبيلين من المواد الغذائية، وأغلق الباب.

ولم تنجح خطّة الحصار الغذائي بعد أن انتشر خبرها، وشاع بين الناس، فقد واجهت السلطة ضغطاً لا من المرجعيّة، ولا من الحوزة، بل من الشباب وعامّة المؤمنين الذين ملأوا الجدران بالشعارات، وبالمنشورات التي توزّع بسريّة، وتندّد بالحصار الغذائي ممّا اضطرّ السلطة إلى فكّ الحصار، فسمحت للحاج عباس بإيصال الغذاء يوميّاً ولكن في ظلّ رقابتها، وكان شرطي الأمن يرافقه كظلّه في السوق، ولا يسمح له بالكلام مع عائلة السيّد الشهيد، فكان يستلم ورقة صغيرة كُتبت عليها احتياجات العائلة من المواد الغذائيّة فيقوم بشرائها تحت إشراف الأمن، وهكذا استمرّ الحال لفترة طويلة.

الأمن يبحث عنّي:

في الشهر الأول من الحجز شكّت السلطة بوجودي في منزل السيّد

الشهيد ﷺ، فجاء مساعد مدير أمن النجف، وطلب من الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) حضوري إلى دائرة الجنسيّة والإقامة لمدّة خمس دقائق فقط، لأنّي كنت قد كفلت سماحة الشيخ المسلمي ـ وهو أحد طلّاب السيّد الشهيد ـ وقد صدر الأمر بتسفيره إلى إيران، فكان يجب عليّ أن أفي بما التزمت به لدائرة الإقامة، وأقوم بإحضاره.

نفت الشهيدة وجودي في البيت، وقالت لهم: فتّشوا عنه في غير هذا المكان، ولم يكن أحد يعلم بوجودي في البيت إلّا السيّد الشهيد وأُخته الشهيدة (رحمها الله) وكان ذلك في بداية الأحداث.

وبعد ثلاثة أيّام جاء أحد ضبّاط الجنسيّة وطلب من الشهيدة حضوري إلى دائرة الجنسيّة لنفس السبب، فواجه نفس الجواب، واستمرّ الحال على هذا المنوال مدّة شهر تقريباً.

وكان لابدّ من حلّ، فاتّفقت مع السيّد الشهيد على تضليل السلطة بتقديم دليل قاطع على عدم وجودي في منزل السيّد الشهيد، وذلك بأن أخرج من البيت بطريقةٍ ما، ثمّ أتّصل هاتفيّاً بالسيّد الشهيد، وأُعرّفه نفسي وأستفسر عن صحّته وأحواله، وبما أنّ الهاتف مراقب، والمكالمات تسجّل، فإنّ السلطة ستعتقد أنّي خارج المنزل قطعاً، بل ستطمئن أنّي في خارج العراق حسب بعض فقرات المكالمة الهاتفيّة التي سأتحدّث بها مع السيّد الشهيد.

وهكذا كان، وبعدها انقطع السؤال عنّي تماماً وعدت إلى البيت، وبقيت مع السيّد الشهيد ﷺ إلى آخر يوم من حياته، والحمد لله ربّ العالمين على ذلك.

العزلة التامّة:

من اليوم الثامن عشر من رجب (١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م) تقريباً وحتّى اليوم

الأخير من شهر شعبان كنّا في عزلة كاملة عن العالم، فلا أخبار الناس تصل إلينا، ولا أخبارنا تصل إليهم، وكأنّنا أحياء دُفِنّا في قبر كبير.

كان يؤنسنا المذياع، نستمع إلى أخباره، وكانت تسرّنا أبواق السيارات، فنسعد بها؛ لأنّنا نشعر بأنّنا قرب العالم، وكان صوت أمّ تنادي ولدها أو صراخ طفل يصل إلى مسامعنا يؤنسنا غاية الأُنس، وكان دويّ المخبز الملاصق للمنزل أحلى من أيّ لحن. هكذا يشعر الإنسان إذا وضع في قفص خانق.

بداية الاتّصال:

وبدأت لنا أوّل صلة بخارج البيت في اليوم الأخير من شهر شعبان حينما صعدت إلى سطح المنزل، ووقفت في زاوية منه بحيث لا تراني أجهزة المراقبة ولا عيون الأمن مترقّباً هلال شهر رمضان المبارك، فرأيت سماحة الأخ حجّة الإسلام والمسلمين السيّد عبد العزيز الحكيم (حفظه الله)(١)، وكان هو أيضاً قد صعد إلى السطح مترصّداً الهلال.

وبما أنّ المسافة بعيدة ـ نسبيّاً ـ بين دار السيّد الشهيد وداره، كان تفاهمنا عبارة عن إشارات باليد، بعضها كانت مفهومة والأُخرى غير مفهومة، ولكنّ الشيء الذي اتّفقنا عليه من خلال الإشارات أن نلتقي في اليوم التالي في نفس الوقت.

وهكذا بدأت لنا أوّل صلة بالعالم من خلال هذا الطريق بعد عزلة تامّة استمرّت ما يقرب من خمسين يوماً.

وفي اليوم الثاني صعدت إلى السطح، فرأيته من بعيد يشير إليّ بإشارات،

---

١ ـ كان لسماحته دور بطولي وفدائي في خدمة السيد الشهيد؛ فمن اليوم الأخير من شهر شعبان وحتّى نهاية الحجز كان أهمّ حلقة توصل السيّد بخارج البيت. والمنفّذ الحكيم لكلّ ما كان يطلبه السيّد الشهيد، رغم احتمال أن يؤدّي به الأمر إلى أن يضحّي بنفسه وعائلته في أيّ لحظة.

وأنا أيضاً أقابله بإشارات مماثلة حاولت من خلالها أن أفهم ما يقول وأُفهمه بما أُريد، ولكن من دون نتيجة تذكر، حيث لم يفهم بعضنا مراد البعض عبر الإشارات فاتّفقنا على موعد آخر.

وفي اليوم الذي بعده كتب عبارات على قطعة من الكارتون، استطعت أن أقرأ بعضها، وعجزت عن قراءة البعض الآخر، وكانت هذه المحاولة بداية التوصّل إلى الأُسلوب المناسب للتخاطب. فبعد ذلك كنت أكتب ما يريده السيّد الشهيد؛ على (صينيّة الطعام) بخط كبير ـ وقد يستدعي ذلك عدّة صواني وأقوم بعرضها الواحدة بعد الأُخرى على حسب تسلسل كلمات الجملة، فأُقدّم الأُولى ثمّ الثانية وهكذا حتّى تنمّة الجملة، وهو يقرأها بواسطة الناظور المقرّب (الدوربين) ويفهم ما نريد إيصاله إليه، وهكذا نحن نقرأ ما كان يكتبه لنا، ويتمّ التفاهم بيننا بهذا الأُسلوب.

وكنّا فيما بعد نتّفق على أكثر من موعد في اليوم حسب ما تقتضيه الظروف، وقد يحدث أن يتمّ الاتّصال من دون موعد في بعض الأحيان.

وبهذه الطريقة استطاعالسيّد الشهيد﴿ أن يكون على اطّلاع كامل على الأوضاع، ومن خلاله كانت توجيهاته وتعليماته إلى المجاهدين والمؤمنين.

السلطة تبعث طبيباً:

بعثت السلطة الدكتور ضياء العبيدي من دون طلب سابق بحجّة إجراء فحوصات للسيّد الشهيد، والكشف عن وضعه الصحّي، فقالت له الشهيدة بنت الهدى: إنّ صحّة السيّد بخير، ولا يحتاج إلى طبيب، فأصرّ على السيّدة الشهيدة وقال: إنّ السلطة سمحت لي بذلك. وهي أيضاً أصرّت على عدم وجود ضرورة لذلك، ولم تسمح له بدخول البيت، ولا ندري ما هو الهدف الحقيقي من هذه

المبادرة!!

وإذا كان لنا الحقّ في أن نشكّ في كلّ أعمال السلطة على ضوء ما نعرف عنها من خبث وحقد، فإنّ ما حدث قد يكون محاولة لاغتيال السيّد الشهيد ﵀.

السلطة تبعث بجاسوسة:

وعلى الرغم من وجود أجهزة التجسّس الالكترونيّة المنصوبة في داخل البيت فإنّ السلطة كانت قلقة من الأوضاع في داخل منزل السيّد الشهيد ﵀، فبعثت إحدى النساء لمعرفة ما يجري في داخله.

طرقت الباب، ففتحت لها الشهيدة بنت الهدى الباب، ومن دون استئذان دخلت وقالت: إنّي أرغب بزيارتكم.

فقالت لها الشهيدة: وكيف حصلت على الإذن من السلطة بزيارتنا؟

فقالت: لا يحتاج ذلك إلى الإذن.

الشهيدة: ورجال الأمن الذين يطوّقون بيتنا لم يمنعوك من ذلك؟!

قالت: كلّا.

كان الانطباع الأوّلي أن تكون المرأة كغيرها من النساء أو الرجال الذين لم يكونوا على اطّلاع كامل عن الأوضاع فجاءوا لزيارة السيّد الشهيد أو عائلته وهم في الحجز فأُلقي القبض عليهم، إلّا أنّ السيّدة الشهيدة لاحظت أنّ هذا الوجه غريب، بل لم تكن المرأة هذه تعرف مَنْ المتحدّثة معها أيضاً، هل هي بنت الهدى أو أمّ جعفر، ثمّ إنّ هذه التضحية الكبيرة ـ وهي الزيارة العلنيّة في هذا الظرف العصيب ـ التي لم يجرأ عليها أقرب المقرّبين من السيّد الشهيد أو الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) باعثة على الاستفهام والاستغراب.. وما هي إلّا دقائق معدودة حتّى كشفت هذه المجرمة عن هويّتها من خلال الأسئلة التي كانت تطرحها.

واستمرّت هذه المجرمة تتردّد على منزل السيّد الشهيد بين الحين والآخر حتّى نهاية الحجز.

مجيء سفير الجمهوريّة الإسلاميّة:

وفي تلك الفترة حاول سماحة حجّة الإسلام والمسلمين السيّد محمود دعائي (حفظه الله) سفير جمهوريّة إيران الإسلاميّة في بغداد زيارة السيّد الشهيد ﷺ وهو في الحجز.

حدث ذلك حينما كنت أنظر إلى الزقاق من فتحة أحدثها كسر صغير في زجاجة النافذة التي تطلّ عليه، فشاهدت السيّد الدعائي يقترب من منزل السيّد الشهيد ﷺ، فذهبت بسرعة ووقفت خلف الباب لأستمع للحديث الذي سيدور بينه وبين قوّات الأمن التي تطوّق المنزل.

حاول سماحته أن يدقّ الجرس، فقال له أحدهم: سيّدنا، إنّ السيّد الصدر غير موجود.

السيّد الدعائي: أنا أعلم أنّ السيّد في بيته.

(الأمن): السيد ذهب إلى الكاظميّة، أو سامراء للزيارة ـ والترديد منّي ـ.

وجرى بينهم حديث آخر يدور حول نفس الموضوع، كان بعضه يصل إلى مسامعي، والبعض الآخر لا يصل، ولم يتمكّن من زيارة السيّد الشهيد ﷺ.

بعد محاولة سماحة السيّد الدعائي زيارة السيّد الشهيد شدّدت السلطة من إجراءاتها الأمنيّة، ومراقبتها للمنزل وللزقاق. وكان بعض أفراد الأمن المجرمين يصيح بصوت عالٍ ليُسمع السيّد الشهيد، أو عائلته عبارات مثل (عملاء إيران مصيرهم الإعدام)، أو (انكشفت الحقائق، وتبيّنت العمالة) وأمثال ذلك.

كتابة البيان الثاني:

وكتب السيّد الشهيد ﷺ البيان الثاني وهذا نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقي العزيز..

يا جماهير العراق المسلمة التي غضبت لدينها وكرامتها ولحرّيتها وعزّتها، ولكلّ ما آمنت به من قيم ومُثل..

أيّها الشعب العظيم:

إنّك تتعرّض اليوم لمحنة هائلة، على يد السفّاكين والجزّارين الذين هالهم غضب الشعب، وتململ الجماهير، بعد أن قيّدوها بسلاسل من الحديد، ومن الرعب والإرهاب، وخيّل للسفّاكين أنّهم بذلك انتزعوا من الجماهير شعورها بالعزّة والكرامة، وجرّدوها من صلتها بعقيدتها وبدينها، وبمحمّدها العظيم، لكي يحوّلوا هذه الملايين الشجاعة المؤمنة من أبناء العراق الأبي إلى دمى وآلات يحرّكونها كيف يشاؤون، ويزقّونه ولاء عفلق وأمثاله من عملاء التبشير والاستعمار، بدلاً من ولاء محمّد وعلي صلوات الله عليهما.

ولكنّ الجماهير دائماً هي أقوى من الطغاة مهما تفرعن الطغاة، وقد تصبر ولكنّها لا تستسلم، هكذا فوجئ الطغاة بأنّ الشعب لايزال ينبض بالحياة، ولاتزال له القدرة على أن يقول كلمته، وهذا هو الذي جعلهم يبادرون إلى القيام بهذه الحملات الهائلة على عشرات الآلاف من المؤمنين والشرفاء من أبناء هذا البلد الكريم، حملات السجن والاعتقال والتعذيب والإعدام، وفي طليعتهم العلماء المجاهدون، الذي يبلغني أنّهم يستشهدون الواحد بعد الآخر تحت سياط التعذيب.

وإنّي في الوقت الذي أُدرك فيه عمق هذه المحنة التي تمرّ بك يا شعبي، يا

شعب آبائي وأجدادي أُؤمن بأنّ استشهاد هؤلاء العلماء، واستشهاد خيرة شبابك الطاهرين، وأبنائك الغيارى تحت سياط العفالقة لن يزيدك إلّا صموداً وتصميماً على المضي في هذا الطريق، حتّى الشهادة أو النصر.

وأنا أُعلن لكم ـ يا أبنائي ـ أنّي صمّمت على الشهادة، ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه منّي، وإنّ أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء، حتّى يكتب الله لكم النصر.

وما ألذّ الشهادة التي قال عنها رسول الله ﷺإنّها حسنة لا تضرّ معها سيّئة، والشهيد بشهادته يغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت.

فعلى كلّ مسلم في العراق، وعلى كلّ عراقي في خارج العراق، أن يعمل كلّ ما بوسعه ـ ولو كلّفه ذلك حياته ـ من أجل إدامة الجهاد والنضال، لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب، وتحريره من العصابة اللاإنسانيّة، وتوفير حكم صالح فذّ شريف، يقوم على أساس الإسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٠ شعبان ١٣٩٩ هـ[= ١٩٧٩م]

محمّد باقر الصدر»[١]

زيارة مدير أمن النجف:

عندما تسلّم صدّام السلطة قام بدعوة إفطار لمجموعة من العلماء أكثرهم من علماء اخواننا السنة وبعض الأفراد من علماء الشيعة منهم سماحة السيد حسين السيّد إسماعيل الصدر (حفظه الله) وقد رفض الاستجابة لهذه الدعوة فاعتقل، وفي مديرية الأمن صعدوا به إلى مقصلة الإعدام إن لم يستجب لحضور

١ ـ هذا البيان مسجّل بصوته ﷺ.

دعوة الإفطار، فاضطرّ لقبول ذلك، وفي هذه الدعوة سلّم صدّام على السيد حسين وسأله عن السيد الصدر سؤالاً عابراً، وكان سلام وسؤال عزّت الدوري أوسع، وهناك طلبوا منه أن يتدخّل لفكّ الحصار وتسوية الصراع، ولم يكن من خيار أمامه إلّا القبول، وكان النظام قد أطلق سراح بعض السجناء، وهم أكثر من مائتين كإبداء لحسن النيّة في عهد الطاغية الأسود، وعلى أثر ذلك وبعد عيد الفطر المبارك اتّصل مدير أمن النجف وطلب من الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) الإذن لزيارة السيّد الشهيد ﵀، فقالت له: إنّ السيّد نائم، ولا يمكن أن أتحدّث معه، فقال لها: سوف اتّصل بكم بعد ساعة.

وخلال هذه الساعة جرى حديث بيننا حول الموقف المناسب تجاه هذا الطلب، وكان موقف السيّد الشهيد الرفض أوّلاً على أساس أنّ الزيارة قد تمتصّ همم وغضب العاملين، أو من كان يُعتقد أنّه مهتم بأمر احتجاز السيّد الشهيد، وكان يريد أن يجعل عمليّة الاحتجاز قضيّة كبيرة تؤجّج الروح الثوريّة لدى الناس، وتدفعهم إلى مواصلة الجهاد، ومن ناحية ثانية كان السيّد الشهيد بحاجة إلى معرفة المستجدّات في موقف السلطة، ليتمكّن على ضوء ذلك من معرفة ما يجب أن يفعله. وبما أنّ زيارة مدير الأمن ستكون شبه سرّية، ولن تنعكس إلّا على نطاق محدود من الناس، فقد وافق على أن تتمّ بعد الظهر، حيث يقلّ تردّد الناس في زقاق المنزل إلى حدّ كبير.

وبعد ساعة اتّصل مدير أمن النجف فقالت له الشهيدة (رحمهاالله): لا مانع من ذلك على أن تكون الزيارة بعد الظهر.

وبعد الظهر جاء مدير أمن النجف، والتقى بالسيّد الشهيد (رضوان الله عليه)، وجرى بينهما الحوار التالي:

مدير الأمن: سيّدنا أنا آسف على أن أزوركم في هذه الظروف، وكنّا نرغب

في أن لا يحدث هذا الوضع.

السيّد الشهيد: أيّ وضع؟

مدير الأمن: الاحتجاز.

السيّد الشهيد: أنا راضٍ بهذا الوضع، ولست متضايقاً منه.

مدير الأمن: نحن غير راضين به، ونتمنّى أن ينتهي بسرعة، وتعود الحياة إلى طبيعتها.

السيّد الشهيد: إذا كان هذا الوضع غير طبيعي، فأنتم سببه.

مدير الأمن: سيّدنا أنت لا تعلم بما حدث ـ في رجب ـ لقد كانت ثورة حقيقيّة كادت أن تنجح لولا حزم القيادة. إنّنا لم نواجه حدثاً كهذا منذ ثورة ١٧ تموز وحتّى ذلك اليوم، إنّ الأوضاع كانت خطيرة جدّاً، وإلى الآن توزّع المنشورات، وتكتب الشعارات على الجدران التي تحرّض الناس علينا.

ثمّ قال: نحن نعلم أنّ ظروفكم غير طبيعيّة، وقد تكون بحاجة إلى المال، نحن بخدمتكم لأي مقدار تحتاجون إليه.

السيّد الشهيد: لست محتاجاً إلى المال.

مدير الأمن: هل من خدمة أُقدّمها لكم؟

السيّد الشهيد: أطلقوا سراح المعتقلين، فإنّ هؤلاء لاذنب لهم.

مدير الأمن: سأنقل طلبكم إلى الجهات المختصّة.

هذا بعض ما جرى في تلك الزيارة.

ومن المؤكّد أنّ السيّد الشهيد ﵀ قد حصل على كلّ ماكان يريد، وتأكّد له أنّ الحجز يمكن أن يكون قضيّة كبيرة تُستثمر لخدمة الإسلام، وعلى هذا الأساس تشدّد في اللقاءات الأُخرى في موقفه من فكّ الحجز.

موفد آخر للسلطة:

وبعد مضيّ شهر واحد تقريباً من لقاء مدير أمن النجف بالسيّد الشهيد ﵀ بعثت السلطة الشيخ عيسى الخاقاني بمهمّة خاصّة.

وقبل أن نعرف طبيعة هذه المهمّة يجب أن نشير إلى حقيقة مهمّة، وهي أنّ الشيخ الخاقاني لا يرتبط بأيّ شكل من العلاقات بالسيّد الشهيد ﵀، فليس هو من تلاميذه، ولا من وكلائه، كما أنّ الشيخ المذكور يعتبر من أعداء الثورة الإسلاميّة في إيران، وكان له دور كبير في تأجيج الفتن في المنطقة العربية من خوزستان.

والحقيقة أنّ السيّد الشهيد ﵀ استغرب كثيراً حينما اتّصل الشيخ الخاقاني هاتفيّاً، وطلب الإذن بزيارته ﵀، وكان الاحتمال الأقرب الذي تبادر إلى أذهاننا قبل أن يلتقي بالسيّد الشهيد هو أنّ ضغطاً حصل من قبل الشيعة في دول الخليج على السلطة البعثيّة ممّا أجبرها على السماح لممثّل لهم يزور السيّد الشهيد ليطمئن على صحّته وسلامته، أمّا أن يأتي على أساس أنّه ممثّل أو مبعوث للسلطة، فهو أمر لم يكن محتملاً لدينا.

التقى الشيخ الخاقاني بالسيّد الشهيد، وكان يرافقه شخص آخر، لم نعرفه بشكل دقيق ومن المحتمل أن يكون من أقاربه.

وبدأ الخاقاني حديثه مخاطباً السيّد الشهيد بخجل مفتعل، فقال: لقد جئت إلى خدمتكم لأجل حلّ هذه المشكلة، وإعادة الأُمور إلى طبيعتها.

السيّد الشهيد: ومن كلّفك بهذه المهمّة؟

الخاقاني: القيادة.

السيّد الشهيد: ماذا تقصد بالقيادة؟

الخاقاني: رئيس الجمهوريّة والمسؤولين.

السيّد الشهيد: الأزمة سبّبتها الدولة، إنّها لاتتحمّل مجيء وفود لم يرفعوا شعاراً ضدّها، ولم يهدّدوا الأمن، إنّ كلّ وفد منها كان يأتي ويجلس معي عشرة دقائق يطلب منّي أن لا أغادر العراق، ثمّ يعود بكلّ هدوء إلى بلده، هل هذا العمل يعتبر جريمة أو تهديداً للسلطة؟

الخاقاني: كلّا، فالحكومة لا تعتبر ذلك جريمة، وإنّي أودّ أن أُطلعكم بأنّ المسؤولين قالوا لي: أبلغ السيّد الصدر أنّ بإمكانه أن يفتح بابه، ويستقبل أيّ أحد يرغب بزيارته، أو يخرج إلى أيّ مكان شاء، ويمارس حياته الطبيعيّة.

السيّد الشهيد: إنّ حياتي طبيعيّة، وأنا سعيد للوضع الذي أنا فيه، ولا حاجة إلى ذلك كلّه.

بعد ذلك كشف الشيخ عيسى الخاقاني عن المهمّة الحقيقيّة التي بعثوه من أجلها، فقال: سيّدنا، تعلمون أنّ الحوزة العلميّة بحاجة إلى تغيير وبناء جديد، وبحاجة إلى دعم وإسناد.

السيّد الشهيد: نعم، إنّها بحاجة إلى ذلك.

الخاقاني: وخاصّة الحوزة العلميّة العربيّة، إنّها بحاجة إلى بناء جديد، ولا أحد يستطيع أن يفعل ذلك غيركم، وأنا مستعد لتنفيذ كلّ أوامركم بهذا الشأن.

السيّد الشهيد: الحوزة العلميّة في النجف الأشرف كيان واحد لا يتجزّأ، ليس لدينا حوزة عربيّة وأُخرى فارسيّة، وثالثة أفغانيّة، بل لدينا حوزة فيها العربيّ، والفارسيّ، والأفغاني، والباكستانيّ، ومن مختلف القوميّات.

الخاقاني: ولكن يا سيدي سيطر العجم على الحوزة، فمعظم المراجع منهم.

السيّد الشهيد: الأجواء في الحوزة العلمية حرّة، وكلّ من يثبت لياقة وجدارة يتقدّم، ولا يمنعه من ذلك أحد.

الخاقاني: هل تعلم ـ يا سيّدي ـ ماذا فعل العجم بالعرب في خوزستان، لقد

قتلوا شبابهم، وهتكوا أعراضهم، وسلبوا أموالهم. لقد وقف الخميني ضدّ العرب، أذلّهم وسحق كرامتهم.

السيّد الشهيد: أنا لا أسمح لك أن تتكلّم بهذا، إنّ السيّد الخميني مرجع عادل لا يفرّق بين عربيّ وأعجميّ، كان هنا في النجف يمنح المرتّب الشهري للعرب والعجم، لا يفرّق بين أحد منهم. وإذا كان الغرض من مجيئك إلى هنا هو هذا فلست مستعدّاً لمواصلة الحديث.

الخاقاني: معذرة، لم يكن الهدف هذا، وإنّما كان الهدف تطوير الحوزة، وفي أثناء ذلك أحببت أن أُخبركم بأنّ أحداثاً مؤلمةً وقعت لعرب خوزستان.

السيّد الشهيد: عرب خوزستان يعيشون في ظلّ دولة إسلاميّة، لهم ما لغيرهم، وعليهم ما على غيرهم، ولا أُحبّ أن يتكرّر هذا الكلام مرّة أُخرى.

انتهى هذا اللقاء، ومن الواضح أنّ هدف السلطة كان تحريك الحسّ القومي، واستغلاله لإيجاد فاصلة كبيرة بين النجف والثورة الإسلاميّة.

إنّ الشيخ عيسى الخاقاني يعيش في دولة من دول الخليج لا في النجف، وهو يعلم أنّ السيّد الشهيد محتجز لا تسمح السلطة بالاتصال به، فكيف استطاع تجاوز هذه الحدود، وبادر إلى تحمّل مسؤوليّة بناء الحوزة العلميّة العربية في النجف!! بل ولماذا في هذا الوقت بالذات؟!

إنّ التفسير الأقرب لما حدث هو أنّ السلطة استهدفت ـ عن غباء ـ أن تجعل من السيّد الشهيد ﵀ منافساً قويّاً لقيادة السيّد الخميني ﵀، وتجعل من النجف منافساً قويّاً لحوزة قم، وتقوم بتأجيج الصراع بينهم. وهذا لو حدث فإنّه يحقّق لها من الآمال ما لم تكن تحلم به.

ولا أدري كيف خطر في ذهن القيادة البعثيّة هذا وهي ترى السيّد الشهيد ﵀ وقد ألقى بكلّ ثقله لتأييد الثورة الإسلاميّة وقائدها الإمام الخميني ﵀.

وعاد الخاقاني مرّة اُخرى:

وبعد فترة قصيرة جاء الشيخ عيسى الخاقاني مرّة أُخرى، وقال للسيّد الشهيد (رضوان الله عليه): إنّ هذه هي الفرصة الوحيدة التي يمكن أن تستفيدوا منها لحلّ هذه الأزمة، إنّنا بحاجة إلى حوزة ومرجعيّة عربيّة، والسلطة مستعدّة لتقديم كافّة المساعدات، كالرواتب للطلبة، والإعفاء من الخدمة العسكريّة، وقد بحثت مع المسؤولين كافّة التفاصيل.

فأجابه السيّد الشهيد ﵀: بأن الحوزة والمرجعيّة ليست بحاجة إلى مساعدة أحد، الحوزة قائمة بنفسها، وإمام العصر يرعاها، وأنا لست مستعدّاً لقبول أي عرض ممّا تقول.

وخابت مؤامرة السلطة التي حاولت تنفيذها بواسطة الشيخ عيسى الخاقاني، أمام صمود ووعي وحكمة السيّد الشهيد، وتضحيته في سبيل مبادئه.

وساطة السيّد علي بدر الدين:

ومن المحاولات التي جرت أثناء فترة الحجز محاولة قام بها المرحوم السيّد علي بدر الدين، فمن خلال علاقاته الواسعة بالمسؤولين في السلطة، وخاصّة القياديّين منهم طلب أن يتوسّط لديهم لحلّ الأزمة بينهم وبين السيّد الشهيد، وكان يتصوّر أنّ بإمكانه ذلك.

وحينما علم السيّد الشهيد ﵀ أن السيّد علي بدر الدين سوف يأتي لهذه المهمّة استرّ لذلك؛ لأنّه يعلم أنّ السيّد بدر الدين على اطّلاع كبير بما يجري خلف الكواليس، ولن يتردّد في الكشف عن كلّ مخطّطات السلطة تجاه هذه القضيّة، وأنّ ما سوف يكشف عنه علي بدر الدين سيكون له تأثير كبير على تخطيط السيّد الشهيد ﵀.

وبعد مكالمة هاتفيّة استأذن فيها لزيارة السيّد الشهيد؛ جاء وجلس في الغرفة الخاصّة باستقبال الضيوف لوحده، وكنت في مكان بحيث يمكنني أن أستمع لما يجري فيها من حديث، فسمعته يقول: إلهي بحقّ محمّد وآل محمّد وفّقني لحلّ هذه المشكلة وإنقاذ السيّد الصدر من القتل.

بعد ذلك حضر السيّد الشهيد؛ فسأله عن موقف السلطة، وبماذا تفكّر؟

فقال: لقد سمعت منهم كلاماً خطيراً، وأنا قلق جدّاً من ذلك، إنّ ما يستفزّهم جدّاً ويغيظهم ويثير فيهم الحقد عليكم هو تأييدكم للثورة الإسلاميّة في إيران، لابدّ من إيجاد حلّ لهذه القضيّة.

السيّد الشهيد: وماذا يريدون؟

السيد بدر الدين: يريدون شيئاً من التأييد لهم، أو التراجع عن موقفكم من تأييد الثورة الإسلاميّة في إيران بشكل مناسب.

السيّد الشهيد: وإذا لم أفعل؟

السيّد بدر الدين: والله ـ يا سيّدي ـ إنّهم يفكّرون بإعدامكم، والتخلّص منكم، لا حديث لهم إلّا هذا، ولا همّ لهم إلّا التفكير في كيفيّة تنفيذه، إنّ هؤلاء قُساة لا رحمة في قلوبهم.. إنّي أرجوك ـ يا سيّدي ـ أن تفكّر ولو بقليل من التنازل لإنقاذ حياتك، إنّ استشهادك خسارة كبيرة.

السيّد الشهيد: كيف ينظرون لما حدث في رجب، وما أعقبه من أحداث؟

السيّد بدر الدين: إنّهم في قلق وخوف دائمين، إنّهم يخشون من تصاعد الأحداث وتطوّرها، إنّهم يعتبرون ما حدث في رجب ثورة لم تنجح، وخوفهم من تكرّر ذلك.

السيّد الشهيد: لا أتنازل أبداً، وموقفي ثابت، وإذا كان هؤلاء يفكّرون بإعدامي، فأنا مستعدّ لذلك.

السيّد بدر الدين: سيّدي، هل من أمل ولو ضعيف؟

السيّد الشهيد: أبداً.

وبكى السيّد علي بدر الدين بكاءاً شديداً، ثمّ قال: إنّني سأترك العراق، وأسافر إلى لبنان، أنا لا أُريد أن أبقى هنا وأُشاهد جنازتكم.

وكان هذا آخر لقاء له بالسيّد الشهيد ، وبعدها غادر إلى لبنان، وبعد مضيّ فترة من الزمن قامت المخابرات العراقيّة باغتياله هناك.

وعلى ضوء المعلومات التي أدلى بها السيّد علي بدر الدين، وكذلك الانطباعات التي حصلت بعد زيارة مدير أمن النجف للسيّد الشهيد تأكّد أنّ الحجز رغم ما فيه من صعاب وآلام يعتبر مشكلة كبيرة للسلطة، كما أنّه يمكن أن يكون قضيّة تستثير الجماهير، وتحرّضها على مواصلة الجهاد.

وكانت الأدلّة تتوارد، ففي كلّ يوم تقع أحداث تؤكّد صحّة هذه الرؤية، فكانت أعمال الاغتيال والتفجير، والمواجهات المسلّحة، وكتابة المنشورات [1]

---

١ ـ وبرع المجاهدون الأبرار في توزيع المنشورات، وكانت بعض أساليبهم في غاية الطرافة، فمثلاً قام أحد المجاهدين بكتابة شعارات على قصاصات ورقيّة صغيرة، ثمّ غلّف بها قطع الحلوى (الجكليت) وأعاد تغليفها مرّة أُخرى بورقها الأصلي وأعطاها لأحد عملاء السلطة الذين يخدمون في الحرم الشريف، وقال له: انثر هذه الحلوى في الصحن على الزوّار ـ وهذا العمل من الأعمال المتعارفة على أنّه وفاء لنذر أو عهد، فقام بنثره على رؤوس الزوّار، وكان ممّن أخذ من تلك الحلوى بعض رجال قوات الأمن المرابطين في الصحن، فلمّا فتحوها وجدوا الأوراق التي تحمل شعارات تندّد بالسلطة، فألقوا القبض على عميلهم، وانهالوا عليه بالضرب داخل الصحن الشريف، ثم أخذوه إلى مديرية أمن النجف و ضاع من ذلك اليوم شخصه وخبره.

وكانت معظم الملابس الجاهزة المعروضة للبيع في شركة (اورزدي باك) ملغمة بالمنشورات ففي جيب كلّ بدلة أكثر من منشور ممّا جعل أكثر الناس يتجنّبون الاقتراب منها.

وتجد في معظم المصاحف وكتب الأدعية عدّة منشورات تندّد بالسلطة، وتطالب بالإفراج عن السيّد الشهيد .

وتوزيعها، وكتابة الشعارات على الجدران من الأحداث اليوميّة التي أصبحت وكأنّها طبيعيّة، وكان السيّد الشهيد يسمع بنفسه أصوات إطلاق النار في بعض الليالي أثناء المواجهات المسلّحة بين المؤمنين وقوّات السلطة، فكان شعوره بصحّة هذه الرؤية يقوى يوماً بعد آخر.

الإشاعة الكاذبة:

وفي هذه الفترة أشاع البعض ـ غفر الله لهم! ـ أنّ السيّد الصدر لايقبل بالأعمال الجهاديّة والفدائيّة، ويرفض أيّ محاولة من هذا القبيل. وكان الهدف هو تثبيط عزم المجاهدين والمؤمنين وقد كتب عن هذه القضيّة الأخ المجاهد الشيخ عبد الحليم الزهيري ما يلي:

«في سنة ١٩٧٩م عندما كان السيّد الشهيد الصدر في منزله محتجزاً من قبل السلطة وكان المجاهدون ينفّذون عمليّاتهم العسكريّة، اتصل بيّ بعض المجاهدين يسألون عن صحّة الإشاعة التي وردت إلى أسماعهم من أنّ السيّد الشهيد يرفض القيام بالعمليّات العسكريّة لأنّها تؤثّر على خطة شاملة لديه تنقذه من الحجز.

طبعاً كان لهذه الإشاعة أثر في تثبيط المجاهدين لأنّ مثل هذه الإشاعة قد تصدَّق ولو بدرجة ضعيفة إذ أنّ كثيراً من العمليّات قد لا ينجح، أو أنّه يؤدّي إلى كشف بعض المؤمنين واعتقالهم. إضافة إلى الخسائر والصعوبات الأُخرىٰ الناجمة من العمليّات العسكريّة خصوصاً وأنّ المجاهدين في بداية الطريق وكانوا يحرصون على سلامة السيّد الصدر، وأنّ أيّ احتمال يؤدّي إلى الإضرار به يعتبر خسارة كبيرة، وعاملاً من عوامل التثبيط.

أوصلنا الخبر إلى الشهيد الصدر بصعوبة حيث كان محتجزاً، وفوجئت بعد أيّام بوصول رسالة من الشهيد الصدر كان قد بعثها لنا مع المرحوم السيّد

محمد صادق الصدر ﷺ والد الشهيد المرجع الديني السيّد محمد الصدر حيث كان مسموحاً له أن يزور الشهيد الصدر بين فترة وأُخرىٰ، وكان قد أخفىٰ هذه الورقة في عمامته لأنّه كان يتعرّض إلى التفتيش عند الدخول والخروج وكان مع الرسالة مبلغ مقداره (١/٠٢٥) ديناراً عراقيّاً دون أن يذكر عنوان وجهة صرف المبلغ. أمّا الرسالة فكانت عبارة عن سؤال بخط سائل وكان فيما أتذكر:

سماحة آية الله الصدر دام ظله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أفتونا مأجورين: ما هو رأيكم في صحة الإشاعة التي وردت عنكم في حرمة إقامة صلاة الجمعة؟

الجواب: (وكان بخط السيّد الشهيد الصدر)

لاصحة لهذه الإشاعة التي وردت عنا وصلاة الجمعة واجبة وأحكامه موجودة في باب الصلاة فراجع.

محمد باقر الصدر

وقد فوجئنا بالإجابة إذ أنّها كانت تحمل عدة معاني:

١ ـ اهتمام السيّد الشهيد في متابعة العمل الإسلامي ودعمه بالمال، ورد الشبهات حول العمل العسكري.[1]

٢ ـ الإصرار على مواصلة الخط والوصول إلى الهدف، وكان هذا الاستفتاء والجواب مخاطرة بالنسبة إلى وضع السيّد حيث كان من المحتمل أن يُكشف هذا أو يتمّ الاعتراف على السيّد بأنّه لازال يواصل العمل، رغم كونه محاصرا ومراقباً ومتابعاً، وكان النظام يرصد كلّ حركة منه لتكون ذريعة لسجنه وإعدامه ولذلك كان السيّد الصدر ﷺ قد احتاط بطريقة الاستفتاء ولم يذكر تاريخه. وعندما التقيت فيما بعد بالشيخ الفاضل محمد رضا النعماني الذي كان مع الشهيد الصدر في منزله طيلة فترة الاحتجاز قال لي: إن الاستفتاء كان بخطّي

١ ـ حيث كان التعبير بصلاة الجمعة في الاستفتاء المذكور رمزاً عن العمل العسكري.

وكان الجواب بخطّ الشهيد الصدر وكان الاقتراح من الشهيد الصدر أن يجاب علىٰ موضوعنا بهذه الطريقة»[١]

عظمة المأساة وعدم استثمارها!:

إنّ السيّد الشهيد ﷺ قدّم كلّ ما يملك وفعل كلّ ما يمكن، ولا شيء أكبر من أن يستعدّ لقبول الاحتجاز له ولعائلته وأطفاله في سبيل ضمان مستقبل التحرّك الجهادي لإسقاط السلطة، وإقامة حكومة إسلاميّة ربّانيّة على أرض العراق، تحكم بما أنزل الله، وتحقّق للشعب حرّيته وكرامته وحقوقه.

قد لا أستطيع أن أعبّر بشكلٍ دقيق عن واقع الحجز، إنّه في الحقيقة مأساة مروّعة عاشتها عائلته كاملة، ولولا وصيّة السيّد الشهيد ﷺ لي بكتمان بعض تلك المأساة لذكرت من الأحداث ما يشيب له الرضيع [٢].

فأيّ أبٍ يحبّ أن يرى أبناءه جياعاً وهو لا يعرف إلى متى ستستمرّ هذه الحالة؟

وأيّ أبٍ يتحمّل أن يرى مشهداً لطفلةٍ له تتلوّى من ألم الأسنان وهو لا يستطيع أن يوفّر لها قرصاً مسكّناً؟

وأيّ ابن يتحمّل أن يرى أمّه العجوز التي أنهكتها مصائب الدنيا تختنق من شدّة السعال وهو يعجز عن توفير الدواء لها؟

وأيّ أبٍ يتحمّل أن يرى عائلته وأطفاله يعيشون عدّة أشهر في بيت لا يعلم في أيّ لحظة سينهار بهم جميعاً.. ولا منجاة لهم منه؟!

---

١ ـ من مذكّرات سماحة الشيخ عبد الحليم الزهيري (خطّية) محفوظة عندي.

٢ ـ ذكرت بعض ذلك لسماحة آية الله السيّد الحائري حرصاً على حفظه وعدم ضياعه، وهو غير صالح للنشر.

وإنّي على يقين أنّ تلك المشاهد العاطفيّة، وغيرها من اللحظات المثيرة وما هو مشعر بالخطر منها كانت تأخذ من قلبه مأخذاً كبيراً لدرجة جعلته يتمنّى الموت أحياناً، ولكنّه كان يقول: «إنّ ذلك بعين الله تعالى، إنّ الناس سبقونا إلى ما هو أعظم ممّا نحن فيه»، وكان يهوّن ممّا ألمّ به ذكر الشهيد السعيد السيّد قاسم شبّر ﷺ ويقول:

«إنّه يعاني من التعذيب ما لم نعانِ نحن بمقدار عشره...».

ويذكر حصار الرسول ﷺ وجميع آل هاشم في شعب أبي طالب لا يظلّهم من أشعة الشمس شيء، وهم يفقدون الماء والغذاء، فيقول:

«كان ذلك من أجل الإسلام، فلنكن امتداداً لهم، وعلى خطّهم وهدفهم».

إنّ أحداً من أهله لم يشتكِ من المأساة ولم يتململ يوماً من الأيام، ولكن ما طفح كان من مشاعر الأُبوّة والعطوفة الحانية التي يعنيها أمر أُسرتها وأبنائها، ويهولها ما يحدق بها من مخاطر، ويحوطها من محن، فيؤلمه ما يؤلمها، ويسرّه ما يسرّها.

ومع ذلك كلّه صمّم على أن يستمرّ ـ هو ومن معه ـ على تحمّل هذه المأساة وتحويلها إلى قضيّة تحقّق للإسلام وللعمل الإسلامي أكبر قدر ممكن من الانتصار، ومراراً سمعته يقول:

«إنّني مستعد لأن أبقى مع عائلتي محتجزاً مدى العمر، أو أُضحّي بنفسي وبهم، إذا كان ذلك يحقّق للإسلام نصراً في العراق».

كان السيّد الشهيد ﷺ يعتقد أنّ قضيّة الاحتجاز سوف تُستثمر من قِبَل المهتمّين بأمر العمل الإسلامي، وكان يتوقّع أن يسمع أخباراً تسرّه، فليس منطقيّاً أن يتقدّم القائد إلى الأمام ويبقى المقاتلون في مواضعهم ينظرون إلى أشلائه تُقطّع بأيدي أعدائه، وليس من المتوقّع أن يُحتجز السيّد الشهيد ﷺ وفي خارج العراق

الكثير من فرص العمل الإعلاميّة، والسياسيّة، والجهادية التي يمكن أن تُسخَّر لخدمة القضيّة.

كنّا نتابع الإعلام ليلاً ونهاراً عسى أن نستمع لحدث، أو قضيّة تخصّ قضيّتنا، وكنّا نقول: هل يُعقل أنّ أحداً لم يفعل شيئاً من شأنه إلفات نظر العالم إلى هذه القضيّة الكبيرة مثلاً؟ إنّ ذلك غير محتمل على الإطلاق.

إلّا أنّ السيّد الشهيد ﵀ فوجئ بأنّه وبدلاً من أن يستمع لأخبار من هذا القبيل أخذ يُطالب من خلال الهاتف المراقب وهو في الحجز بأن يُجيب على برقيّات لبعض العلماء الأعلام ممّا زاد من غضب السلطة وحقدها عليه بسبب ذلك! كما أنّه لم يحدث شيء ممّا كان يتوقّعه. فلا طائرة تُختطف، ولا سفارة تُقتحم، بل برقيات وأخبار لا طائل من ورائها غير إلحاق الأذى بالسيّد الشهيد ﵀.

وحاول (رضوان الله عليه) أن يطّلع على الحقيقة كاملة، فأرسل رسالة إلى أحد الأشخاص في خارج العراق وكان قد كتبها على شكل أسئلة لتكون الإجابة دقيقة، وركّز في معظم أسئلتها على مثل هذه القضايا.

ولمّا جاء الجواب ـ على بعض الأسئلة ـ أُصيب بخيبة الأمل، وبدأ بتغيير تصوّراته وخططه في العمل، وقال في حينها:

«إنّه لو قدّر للسلطة أن ترفع الحجز عنّي من دون قيد أو شرط، وأعود إلى حياتي ووضعي الطبيعي، فسوف أعتمد في العمل على أمثال (أصحاب الرسالة)[١]، إنّ هؤلاء أسخى لله تعالى بدمائهم من أجل الإسلام والقيادة الإسلاميّة، وسأبذل معظم الحقوق الشرعيّة على تربيتهم، إنّ الإسلام اليوم

١ ـ المقصود بأصحاب الرسالة أصحاب الرسالة التي مضى ذكرها في القسم الأوّل من الكتاب ضمن فصل (أخلاقه و سيرته الذاتيّة) تحت عنوان (مواقف أخلاقية أخرى) فراجع.

بحاجة إلى المضحّين الفدائيين، إنّ واحداً من هؤلاء يستطيع بعملٍ تضحويٍّ ما أن يغيّر وضعاً قائماً كان يبدو من المستحيل تغييره، ولا يستعدّ أن يفعل بعض ذلك مَنْ بذلنا الكثير من أجله»[١].

وعلى هذا الأساس فكّر بإعادة النظر في كلّ الأُمور، وقد كتب بعض ذلك بخطّه.

وقد أدّت هذه الرؤية إلى تعزيز فكرة الاستشهاد، وأحسّ أنّ فكّ الحجز حتّى لو حصل من دون ثمن يذكر فإنّه لا يجدي بالنسبة له كقائد. وحديث هذه القضيّة طويل لا أجد ضرورة إلى ذكره.

أمّا في الداخل، فإنّ الأوضاع كانت على أفضل حال قياساً إلى الإمكانات المتوفّرة، وفقدان القيادات الميدانيّة التي تنظّم الأعمال الجهاديّة، بالرغم من إرهاب السلطة وبطشها.

ومن نافلة القول أن أتحدّث عن هذا بعد أن أشاد السيّد الشهيد؛ في بياناته بالشعب العراقي ومواقفه الشجاعة والبطوليّة في مقارعة السلطة البعثيّة العميلة، وكان ممتنّاً من العراقيين في داخل العراق، وقد أشار إلى ذلك في موارد كثيرة.

وأعتقد أنّ الخطأ الكبير الذي وقع في مجمل حركة السيّد الشهيد الصدر تعليقه بعض الآمال على الإمكانات الموجودة في خارج العراق والتي لم تفعل شيئاً، وكان إدخالها في الحساب قد شوّش الرؤية الصحيحة لما كان ينبغي أن يقع.

١ ـ من المؤسف أنّ أحدهم كان يتكلّم في مجالس النجف فيقول: إنّ السيّد الصدر جاءني يبكي فقال لي: ماذا يمكن أن أفعل للخلاص من هذه الورطة؟!! فقلت له: سيّدنا إنّك تناطح جبلاً ـ يعني السلطة ـ فهل يمكن أن تؤثّر فيه، وكان المفروض أن لا تفعل ذلك منذ البدء. هذا في الوقت الذي كان فيه السيد الشهيد محتجزاً في منزله ولا يمكنه مغادرته فكيف تسنّى له الاتصال بهذا الرجل الخائر خوفاً ورعباً من السلطة!!

الزيارة الثانية لمدير أمن النجف:

وجاء مدير أمن النجف مرّة أُخرى، وكانت مهمّته تتلخّص بما يلي:

١ ـ محاولة الحصول على شيء بسيط من التنازل، فقد قال للسيّد الشهيد ﷺ: إنّ السلطة تشعر أنّ كرامتها أُهينت، وأنّ أبسط تجاوب منكم سوف يُنهي الأزمة.

ورفض (رضوان الله عليه) أن يتجاوب مع هذا المقترح، وقال له: لم يصدر منّي شيء من هذا القبيل، إنّ هذه افتراضات تفترضونها، وأنا على كلّ حال لا أشعر بالضيق من الوضع الحالي.

٢ ـ أخبره بأنّ السلطات تسمح للعائلة بالخروج من البيت وللأطفال بالذهاب إلى المدارس، كما تسمح بزيارة بعض الأرحام لكم.

هذا أهمّ فقرات تلك الزيارة.

وكان السماح بالخروج من البيت أهمّ فرصة للشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) للعمل رغم مراقبة قوّات الأمن لها، من لحظة خروجها وحتىٰ عودتها، وقد تحدّثنا عن ذلك فيما سبق.

رفع الحجز لمدّة قصيرة:

وممّا لا شكّ فيه أنّ السلطة واجهت ضغطاً جهاديّاً وجماهيريّاً أجبرها على رفع الحجز ـ صوريّاً ـ عن السيّد الشهيد ﷺ، وهو أيضاً كان بحاجة إلى فرصة مناسبة وكافية يستطيع استثمارها، وينفّذ خططه الجديدة على ضوء التجربة المرّة التي عاشها في الحجز، والتي كشفت له عن عدم صحّة بعض المتبنّيات الخاصّة في أساليب العمل والعاملين.

وعلى كلّ حال فقد اتّصل فاضل البرّاك مدير الأمن العام، وأبلغ الشهيدة بنت الهدى أنّ القيادة قرّرت رفع الحجز عن السيّد الشهيد، وأنّ بإمكانه العودة إلى حياته الطبيعيّة.

وفي الوقت نفسه رفعت السلطة جميع مظاهر الاحتجاز التي كانت تطوّق بها المنزل والزقاق الذي يقع فيه، وأبقت نقطة مراقبة ثابتة في مقبرة (آل زيني) التي تشرف على الزقاق.

ولم تكن تخفى على السيّد الشهيد حقيقة هذه المبادرة، فهو يعرف أنّ السلطة في العراق لا تتعامل بمنطق المرونة والحرّية مع عدوّ لدود لها، إلّا إذا بلغت إلى مرحلة الاضطرار والقهر تجبرها على اتّخاذ موقف يخالف طبيعتها الإرهابيّة والإجراميّة، كما أنّه ليس من الطبيعي أن ترفع الحجز من دون ثمن يحفظ لها هيبتها وموقعها كدولة وسلطة حاكمة إن لم تكن مضطرّة إلى ذلك، أو تنوي شيئاً من السوء.

وتعامل (رضوان الله عليه) بالمزيد من الحذر والاحتياط تجاه هذه المبادرة وقد قال لي في حينها:

«يجب أن نجعل رفع الحجز أمراً واقعاً لا يمكن للسلطة تحدّيه، ونجعل تردّد أصناف من الناس أمراً طبيعياً لنتمكّن من خلال ذلك اقتناص الفرص لتنظيم التحرّك الجهادي في العراق، فليس منطقيّاً أن تستمرّ عمليّة الجهاد دون قيادة ميدانيّة تمتلك رؤية واضحة عن تفاصيل العمل، وكيفيّة تطويره، وجعله كياناً قويّاً متراصّاً دائم الحركة والتواصل».

إنّ الهدف الحقيقي للسيّد الشهيد ﷺ من الاستجابة المحدودة لمبادرة رفع الحجز كان هو ما أشرت إليه، ولهذا السبب منع مجيء الشباب وتردّدهم عليه في تلك الفترة، وكان يقول:

«إنّ هؤلاء هم الطاقة الحقيقيّة، والقوّة الضاربة، فيجب أن لا نعرّضهم للخطر في الوقت الحاضر».

كما أنّ السيّد الشهيد ﷺ بقي من الناحية العمليّة محتجزاً فلم يخرج من بيته مطلقاً، وكان يقصد بذلك أن تستمرّ الحالة اللّاطبيعيّة في أذهان الناس

والمجاهدين، ويُحبط أيضاً محاولة السلطة التي استهدفت امتصاص نقمة الجماهير وغضبهم برفع الحجز عن السيّد الشهيد (رضوان الله عليه).

وقد شاع خبر فكّ الحجز بين الناس، واستعدّ الكثيرون للمجيء على شكل وفود كبيرة، كما حدث في رجب الحرام، إلّا أنّه رفض ذلك، وكانت رغبته أن يقتصر التردّد على كبار السن، والعلماء والطلبة في المرحلة الأُولى، وبعد ذلك يكون لكلّ حادث حديث.

وكان من الممكن أن يتحقّق ذلك، ويصبح رفع الحجز أمراً واقعاً يصعب على السلطة تحدّيه أو إعادة النظر فيه لو أنّ المرجعيّة العامّة والحوزة العلميّة وقفتا مع السيّد الشهيد ﷺ موقفاً ينسجم مع المسؤوليّة الشرعيّة والواجب الديني.

وكانت خيبة الأمل الكبيرة حينما أحجمت المرجعيّة العامّة من الاستجابة لطلب عدد كبير من العلماء وأبناء الأُمّة لزيارة السيّد الشهيد ﷺ، واكتفت بتمثيل شخصيّة تنوب عنها في ذلك، وكان لهذا الموقف أهمّية خاصّة من وجهة نظر السلطة؛ لأنّه يكشف عن أنّ ردّ فعل المرجعيّة في حال اتّخاذ السلطة لإجراء انتقامي ضدّ الشهيد الصدر ﷺ سوف لا يكون بالمستوى الذي يولّد للسلطة أزمة، وهو ما حدث بالضبط بعد استشهاده ﷺ إذ لم يحدث من ردّ فعل حتّى على مستوى الحداد الصامت، أو الاحتجاج غير المعلن ولو بحجّة التمارض مثلاً، ولم يكن يوم استشهاد السيّد الصدر ﷺ إلّا مثل اليوم الذي سبقه.

كان المرجع الوحيد الذي بادر لزيارة السيّد الشهيد هو المرحوم آية الله العظمى السيّد عبد الأعلى السبزواري ﷺ، فقد جاء متحدّياً السلطة، ومحيّياً بطولة السيّد الشهيد وصبره وتضحيته، فكان موقفه موقفاً مشكوراً، عبّر من خلاله عن موقف العالم الربّاني الذي لا يخشى في الله لومة لائم، وعندما خرج من بيت السيّد الشهيد ألقت قوّات الأمن القبض عليه، وحاولت اقتياده إلى مديريّة أمن

النجف، فقال لهم: إنّ واجبي أن أزور السيّد الصدر، وأنا مستعدّ لتحمّل مسؤوليّة ذلك، اذهبوا بي إلى حيث تشاؤون.

وبادر أيضاً الكثير من العلماء والطلبة إلى زيارة السيّد الشهيد ﴿ﷺ﴾، وامتنع الأكثر، ومع ذلك أوشكت الأُمور أن تعود إلى حالتها الطبيعيّة، ويصبح رفع الحجز حقيقة واقعة بمعنى الكلمة، وتعجز السلطة حينها عن اتّخاذ أيّ ردّ فعل ضدّ السيّد الشهيد ﴿ﷺ﴾ ولحقّقت المرجعيّة والحوزة ـ أيضاً ـ قوّة ومكانة، ولما تعرّضت للذلّ والهوان فيما بعد.

إعادة الحجز:

بعد تلك المؤشّرات قال لي (رضوان الله عليه):

«إنّ السلطة ستعود إلى فرض الحجز».

وهكذا كان، فبعد أيّام قليلة أعادت كلّ الإجراءات الإرهابيّة، وفرضت الإقامة الجبريّة بشدّة بالغة، ووحشيّة لا نظير لها إلى درجة اضطرّ خادم السيّد الشيهد الحاج عباس إلى ترك العمل، والانقطاع عنّا، وعادت حالة الفاقة من جديد بشدّة، وأوشكنا على مجاعة حقيقيّة، لولا أن بادر بعض الأُخوة إلى إقناع الحاج عباس بالعودة إلى العمل مرّة أُخرى فعادت الأُمور إلى ما كانت عليه وكان السيّد الشهيد ﴿ﷺ﴾ يقول:

«ليس من حقّنا أن نكلّف الحاج عباس أكثر من طاقته، إنّ الرجل كان يتحمّل مسؤوليّة خدمة الضيوف وشراء احتياجات المنزل، أمّا أن يشاركنا المحنة إلى هذا الحدّ فهو أمر فوق طاقته، وخارج عن واجبه، ونحن لا نتوقّع ذلك منه».

وكان الحاج عباس إذا حضر صباحاً لشراء احتياجات العائلة يرافقه أحد أفراد الأمن، ويتجوّل معه في السوق، وهو معه كظلّه لا يفارقه لحظة، وقد يسأله

لمن هذه الحاجة، ومَنْ يأكل هذا؟ ولِمَ اشتريت هذه؟ فإذا أكمل مهمّته وعاد بما اشترى إلى البيت، وسلّمه إلى العائلة يرافقه الأمن إلى بيته عند عودته إليه. وكان في بعض الأحيان يتعرّض لتفتيش غير متوقّع، وكان السبب في ذلك أنّ أحد عملاء السلطة واسمه (باسم)، وكان بيته قريباً من بيت السيّد الشهيد ﵀ قد حرّض قوّات الأمن على ذلك، وكنت قد سمعته يتحدّث معهم حول هذا الموضوع، وأخبرهم أنّ بعض المؤمنين يبعثون رسائل إلى السيّد الشهيد بواسطة الحاج عباس. وكان بعضهم يستعمل معه الحرب النفسيّة ويهدّده بالإعدام، وكانت الأجواء تساعد على تصديق ذلك. فشكّلت هذه الأُمور وغيرها ضغطاً نفسيّاً عليه اضطرّته إلى ترك العمل فترة معيّنة.

وعلى كلّ حال فإنّ السلطة استهدفت من إعادة الحجز أحد أمرين:

الأوّل: أن يتنازل السيّد الشهيد للسلطة، ويخضع لها خضوعاً كاملاً.

الثاني: التمهيد لعمليّة إعدامه، أو اغتياله حسب طبيعة الظروف الآتية.

وكنت قد تحدّثت مع السيّد الشهيد ﵀ عن فكرة الخروج من العراق، وطُرُق تنفيذ ذلك، وكان الأخ السيّد عبد العزيز الحكيم يخطّط أيضاً لتنفيذ هذه الفكرة مع عدد آخر من المؤمنين.

وكانت رغبتنا قويّة في تحقيق ذلك، خاصّة وأنّني تمكّنت من الخروج من البيت أكثر من مرّة بسبب ضرورات ومسائل مهمّة كان لابدّ لي من تنفيذها حسب أوامر السيّد الشهيد، وكما يقال، فإنّ الوقوع دليل الإمكان، فلماذا إذن لا نحقّق ذلك للسيّد الشهيد، وننقذه من مخالب الطغاة المجرمين؟

وكان بعض المؤمنين قد خطّط لعمليّات إنقاذ أُخرى، منها أنّه فكّر بحفر نفق يتّصل بمنزل السيّد الشهيد ﵀ وإنقاذه من خلاله.

كما أنّ سماحة السيّد محمود دعائي (حفظه الله) كان قد هيّأ للسيّد جوازاً

للسفر، وآخر لي على أمل أن يستفيد ﷺ من فكّ الحجز المؤقّت للخروج من العراق بواسطة الجواز.

إلّا أنّ السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) كان قليل الاهتمام بهذه الخطوات، وكان يعتقد أنّ خياره الوحيد هو الاستشهاد، فلم يتجاوب مع هذه المبادرات، وحينما كنت أطرح عليه هذا الموضوع يسعى جهد الإمكان إلى طرح موضوع آخر.

وكانت الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) تشاركنا في بعض الأحيان تلك الجلسات، وقد قالت له يوماً:

أخي، إذا كنّا نحن المانع لك من ذلك فنحن والله لا نبالي، ولا تفكّر بنا، فنحن على استعداد لأن نموت من أجلك، إنّ هذا طريقنا.

فقال لها: أو بعد ما استشهد السيّد قاسم شبّر وأمثاله من المؤمنين أُفكّر بالحياة والأمن؟! إنّ هذا اليوم يوم التضحية، إنّ لديّ رؤية واضحة، إنّ خياري هو الشهادة، فهو آخر ما يمكن أن أخدم به الإسلام [١].

كتابة البيان الثالث:

وكتب (رضوان الله عليه) البيان الثالث والأخير، وهذا نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقي العزيز..

أيّها الشعب العظيم..

إنّي أُخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك، وحياتك الجهاديّة، بكلّ

١ ـ الشهيدة بنت الهدى سيرتها ومسيرتها. للمؤلف.

فئاتك وطوائفك، بعربك وأكرادك، بسنّتك وشيعتك، لأنّ المحنة لا تخصّ مذهباً دون آخر، ولا قوميّة دون أُخرى، وكما أنّ المحنة هي محنة كلّ الشعب العراقي، فيجب أن يكون الموقف الجهادي، والردّ البطولي، والتلاحم النضالي هو واقع كلّ الشعب العراقي.

وإنّي منذ عرفت وجودي ومسؤوليّتي في هذه الأُمّة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسنّي على السواء، ومن أجل العربي والكردي على السواء، حين دافعت عن الرسالة التي توحّدهم جميعاً، وعن العقيدة التي تضمّهم جميعاً، ولم أعش بفكري وكياني إلّا للإسلام طريق الخلاص، وهدف الجميع.

فأنا معك يا أخي وولدي السنّي بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام، وبقدر ماتحملون من هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من كابوس التسلّط والذلّ والاضطهاد.

إنّ الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنّة: أنّ المسألة مسألة شيعة وسنّة، ليفصلوا السنّة عن معركتهم الحقيقيّة ضدّ العدوّ المشترك.

وأُريد أن أقولها لكم ـ يا أبناء علي والحسين وأبناء أبي بكر وعمر: إنّ المعركة ليست بين الشيعة والحكم السنّي، إنّ الحكم السنّي الذي مثّله الخلفاء الراشدون، والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل، حمل علي السيف للدفاع عنه، إذ حارب جنديّاً في حروب الردّة تحت لواء الخليفة الأوّل (أبي بكر) وكلّنا نحارب عن راية الإسلام، وتحت راية الإسلام مهما كان لونها المذهبي.

إنّ الحكم السنّي الذي كان يحمل راية الإسلام، قد أفتى علماء الشيعة ـ قبل نصف قرن ـ بوجوب الجهاد من أجله، وخرج مئات الآلاف من الشيعة، وبذلوا دمهم رخيصاً من أجل الحفاظ على راية الاسلام ومن أجل حماية الحكم السنّي الذي كان يقوم على أساس الإسلام.

إنّ الحكم الواقع اليوم ليس حكماً سنّياً، وإن كانت الفئة المتسلّطة تنتسب تاريخيّاً إلى التسنّن. إنّ الحكم السنّي لا يعني حكم شخص ولد من أبوين سنّيين، بل يعني حكم أبي بكر وعمر، الذي تحدّاه طواغيت الحكم في العراق في كلّ تصرّفاته. فهم ينتهكون حرمة الإسلام، وحرمة علي وعمر معاً في كلّ يوم، وفي كلّ خطوة من خطواتهم الإجراميّة.

ألا ترون يا أولادي وإخواني أنّهم أسقطوا الشعائر الدينيّة التي دافع عنها علي وعمر معاً.

ألا ترون أنّهم ملؤوا البلاد بالخمور وحقول الخنازير، وكلّ وسائل المجون والفساد التي حاربها علي وعمر معاً.

ألا ترون أنّهم يمارسون أشدّ ألوان الظلم والطغيان تجاه كلّ فئات الشعب، ويزدادون يوماً بعد يوم حقداً على الشعب، وتفنّناً في امتهان كرامته، والانفصال عنه، والاعتصام ضدّه في مقاصيرهم المحاطة بقوى الأمن والمخابرات. بينما كان علي وعمر يعيشان مع الناس، وللناس، وفي وسط الناس، ومع آلامهم وآمالهم.

ألا ترون إلى احتكار هؤلاء للسلطة احتكاراً عسكريّاً عشائريّاً، يسبغون عليه طابع الحزب زوراً وبهتاناً، وسدّ هؤلاء أبواب التقدّم أمام كلّ جماهير الشعب سوى أُولئك الذين رضوا لأنفسهم بالذلّ والخنوع، وباعوا كرامتهم وتحوّلوا إلى عبيد أذلّاء.

إنّ هؤلاء المتسلّطين قد امتهنوا حتّى كرامة حزب البعث العربي الاشتراكي، حيث عملوا من أجل تحويله من حزب عقائدي إلى عصابة تطلب الانضمام إليها والانتساب لها بالقوّة والإكراه، وإلّا فأيّ حزب حقيقي يحترم نفسه في العالم يفرض الانتساب إليه بالقوّة؟!

إنّهم أحسّوا بالخوف حتّى من الحزب العربي الاشتراكي نفسه الذي يدّعون تمثيله، أحسّوا بالخوف منه إذا بقي حزباً حقيقيّاً له قواعده التي تبنيه، ولهذا

أرادوا أن يهدموا قواعده لتحويله إلى تجميع يقوم على أساس الإكراه والتعذيب، ليفقد أيّ مضمون حقيقي له.

يا إخوتي وأبنائي من أبناء الموصل والبصرة، من أبناء بغداد وكربلاء والنجف، من أبناء سامرّاء والكاظميّة، من أبناء العمارة والكوت والسليمانيّة من أبناء العراق في كلّ مكان، إنّي أُعاهدكم بأنّي لكم جميعاً، ومن أجلكم جميعاً، وأنّكم جميعاً هدفي في الحاضر والمستقبل، فلتتوحّد كلمتكم، ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام، ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلّطة، وبناء عراق حرّ كريم، تغمره عدالة الإسلام، وتسوده كرامة الإنسان، ويشعر فيه المواطنون جميعاً على اختلاف قوميّاتهم ومذاهبهم بأنّهم إخوة، يساهمون جميعاً في قيادة بلدهم وبناء وطنهم، وتحقيق مُثلهم الإسلاميّة العليا المستمدّة من رسالتنا الإسلاميّة، وفجر تاريخنا العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمّد باقر الصدر

النجف الأشرف»[١]

القيادة النائبة:

وفي الفترة الأخيرة من أيّام الحجز كان السيّد الشهيد ﷺ مهتّماً بقضيّة ملء الفراغ الذي سيحدث بعد استشهاده، فمن سيواصل المسيرة؟ ومن سيقود الثورة؟ ومن يستثمر دمه الطاهر لخدمة الإسلام؟

ولم تكن الخيارات المتاحة له (رضوان الله عليه) كثيرة؛ وذلك لأنّ التجربة المرّة أثبتت أنّ الساحة تفتقر إلى القيادة الرشيدة التي ستستثمر دمه وتواصل المسيرة

١ ـ هذا البيان مسجّل بصوته.

بحكمة وشجاعة، وخاصّة ساحة المرجعيّة والحوزة التي لم تكن مهتمّة إلّا بحياتها الروتينيّة وأعرافها وأوضاعها الخاصّة. وما تجربة الحجز إلّا شاهد حيّ على صحّة تلك الرؤية إذ لم يتحرّك أحد ممّن كان يُفترض أنّه سيتحرّك. وهكذا فليس متوقّعاً أن تستثمر المرجعيّة أو الحوزة دمه الزكي في حال استشهاده، فكان لابدّ من عمل ما يكفل قيادة الثورة من ناحية، والاستفادة من دم السيّد الشهيد ﷺ إلى أقصى حدّ في خدمة القضيّة الإسلاميّة من ناحية أُخرى.

وعلى هذا الأساس جاءت فكرة القيادة النائبة كخيار اضطراري لابدّ منه، وكان تخطيطه أن تواصل القيادة النائبة قيادة الثورة وبيدها أعظم محفّز لتحريك الجماهير واستثارتهم، وهو دم السيّد الشهيد ﷺ.

وكانت الخطوط العامّة لفكرة القيادة النائبة كما يلي:

١ ـ اختار السيّد الشهيد ـ مبدأيّاً ـ أربعة أشخاص من أجلّة العلماء، ليكونوا القيادة النائبة التي كان من المفروض أن يُعلن عن أسمائهم للأُمّة.

٢ ـ وضع ﷺ قائمة بأسماء أشخاص آخرين ـ لعلّ عددهم أكثر من عشرة ـ يكون من حقّ القيادة الرباعيّة انتخاب من تشاء منهم، للانضمام إليها فيما إذا اقتضت المصلحة ذلك، أو اقتضى توسّع العمل إضافة أشخاص آخرين لها، حسب نظام كان قد كتبه.

٣ ـ أن يكتب السيّد الشهيد ﷺ رسالة مفصّلة إلى الإمام الراحل السيّد الخميني؛ يشرح له فيها فكرة القيادة النائبة، ويبيّن له تفاصيلها، ويطلب منه الاهتمام بالقيادة النائبة، وإسنادها بكلّ ما يمكن.

٤ ـ تسجيل بيان بصوت السيّد الشهيد ﷺ موجّه إلى الشعب العراقي يوصيه فيه بوجوب الالتفاف حول القيادة وإسنادها، وإطاعتها، والعمل بتوجيهاتها.

٥ ـ كتابة بيان مفصّل حول نفس الموضوع موقّع من قِبلِه.

٦ ـ أن يخرج السيّد الشهيد ﷺ إلى الصحن الشريف في الوقت الذي يكون فيه مملوءاً بالناس، وهو الفترة الواقعة بين صلاة المغرب والعشاء، وهناك يلقي خطاباً على المصلّين، يعلن فيه عن أسماء أعضاء القيادة النائبة، ويطلب من الناس إطاعتهم، والسير تحت رايتهم.

وقال لي (رضوان الله عليه):

«سوف أظلّ أتكلّم وأتهجّم على السلطة، وأُندّد بجرائمها، وأدعو الناس إلى الثورة عليها، إلى أن تضطرّ قوّات الأمن إلى قتلي في الصحن الشريف أمام الناس، وأرجو أن يكون هذا الحادث محفّزاً لكلّ مؤمن وزائر يدخل الصحن الشريف، لأنّه سيرى المكان الذي سوف أُقتل فيه فيقول: (ها هنا قتل الصدر)، وهو أثر لا تستطيع السلطة المجرمة محوه من ذاكرة العراقيين».

وكان (رضوان الله عليه) قد أمرني أن أخرج من البيت، وأشتري قطعة سلاح ـ وهي المرّة الثانية التي خرجت فيها ـ وتمكّنت بمساعدة أحد الإخوة الطلبة أن أُوفّر له ذلك، وآتي به إلى البيت.

ثمّ قال لي: «هل أنت مستعدّ لتشاركني الشهادة؟»

فقلت: نعم إن شاء الله.

فقال: إذاً نخرج معاً، فإذا حاولت قوّات الأمن منعي من الذهاب إلى الصحن فحاول إطلاق النار عليهم، لكي يتاح لي الوصول إليه.

وكان المفروض ـ كشرط ضروري لتنفيذ الفكرة وضمان نجاحها ـ أن يكون كافّة أعضاء القيادة الرباعيّة في خارج العراق، لأنّ الإعلان عن أسماءهم وهم في داخله يعني ـ على أقل الاحتمالات ـ قيام السلطة باعتقالهم إن لم يكن إعدامهم.

وعلى هذا الأساس عرض (رضوان الله عليه) فكرة مشروع القيادة النائبة على

سماحة آية الله السيّد محمد باقر الحكيم حفظه الله، وبعد نقاش للموضوع ودراسة لم يقتنع بإمكانيّة تطبيق الفكرة. وفي لقاء معه أجرته صحيفة (المبلّغ) ذكر الأسباب التي أدّت إلى اتخاذ هذا الموقف، وأنا انقل نصّ ما نقلته الصحيفة عن سماحته فيما يتعلّق بهذا الموضوع:

«المبلغ الرسالي: نودّ من سماحتكم التفضّل ببيان نظريّة القيادة النائبة التي طرحها السيّد الشهيد الصدر ؟

سماحة آية الله السيّد الحكيم:

بسم الله الرحمن الرحيم، عندما نريد أن نتحدّث عن القيادة النائبة التي طرحها آية الله العظمىٰ الشهيد الصدر ـ رضوان الله عليه ـ في أواخر أيّامه الشريفة نجد أمامنا بعدين لهذا الموضوع:

البعد الأوّل: يرتبط بالجانب النظري للقيادة النائبة.

والبعد الثاني: يرتبط بالجانب التطبيقي والعملي. في البعد الأوّل نجد أنّ الشهيد الصدر ـ (رضوان الله عليه) ـ عندما واجه الحصار والحجز من قبل النظام المجرم الحاكم في بغداد وقطعت العلاقات بينه وبين اُمّته، ومن كان يعتمد عليهم في ساحته الإسلاميّة العراقيّة رأىٰ من الضروري اتخاذ قيادة نائبة عنه في إدارة شؤون التحرّك الاسلامي والنهضة في وجه الظلم والطغيان. كان يرى في مثل هذه الظروف يمكن أن تقوم جماعة من الذين تتجمّع فيهم الشروط المطلوبة بالنيابة عن القيادة الاصليّة المتمثّلة بالمجتهد العادل الجامع للشروط من الشجاعة والخبرة والقدرة السياسيّة في إدارة الاُمور والتي كانت متمثّلة فيه حينذاك.

ولابدّ في هذه القيادة النائبة أن تكون واجدة لمجموع الشروط للقيادة الأصليّة وإن لم تكن بمستواها ولذلك فقد يكون الذين يرشّحون للقيادة النائبة ليسوا واجدين لهذه الشرائط ولكن بمجموعهم المركب تجتمع فيهم، وهذه الفكرة النظريّة التي طرحها الشهيد الصدر كان لها دور كبير في ساحتنا

الإسلاميّة العراقيّة. فقد كتبت في هذا الموضوع مقالاً قبل أكثر من عشر سنوات أُوضح فيه أنّ ما جرى في ساحتنا من وجود القيادة التي تقوم بإدارة شؤون هذه الساحة إنّما هو انطلاقاً من هذه الفكرة فتأسيس جماعة العلماء أوّلاً، ومن ثمّ تطويرها إلى مكتب الثورة الإسلاميّة في العراق، ثمّ التطوّر الذي حصل في هذا التأسيس فولد من ذلك المجلس الأعلىٰ للثورة الإسلاميّة في العراق إنّما هو تجسيد لهذه الفكرة.

وفي البعد الثاني فإنّ الشهيد الصدر كان قد رشّح لهذه القيادة أربعة أشخاص هم العلّامة السيّد مرتضىٰ العسكري، والعلّامة الشهيد السيّد محمّد مهدي الحكيم، والحجّة السيّد محمود الهاشمي، والمتحدّث، وكان على هؤلاء أن يكونوا في موقع يتمكّنوا به من أن يقوموا بدور القيادة النائبة، ففي هؤلاء الأشخاص أكثر من مجتهد، كما توجد فيهم، الخبرة السياسيّة والقدرة علىٰ إدارة الأُمور وتمييزها من خلال التجربة الطويلة لهم، وفيهم العمق الشعبي والجماهيري من خلال الأعمال والنشاطات التي قاموا بها في تاريخهم، وهذا من الشروط المهمّة التي كان يعتقد بها الشهيد الصدر حيث أنّ القيادة لا يمكن أن تفرض فرضاً علىٰ الأُمّة وإنّما لابدّ من أن تكون القيادة منتخبة من قبلها، إما بالانتخاب عن طريق صناديق الاقتراع فيما لو تيسّرت الظروف وامّا أن يكون انتخاباً طبيعيّاً من خلال حركة الأشخاص في الأُمّة والتفاف أبناءها حولهم تدريجيا كما حصل للإمام الخميني (رضوان الله عليه) وشهيدنا الصدر (رضوان الله عليه) ومن جملة هذه الشروط التي لاحظها الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) هو أن يكون هؤلاء الأشخاص مستقلّي الإرادة بحيث يكونوا في تفكيرهم وتحليلهم ورؤيتهم للأشياء واتخاذهم للقرار غير واقعين تحت تأثير جهة إلّا الله سبحانه وتعالى والمصلحة الإسلاميّة العليا.

إلّا أنّ هذا الاقتراح الذي تقدّم به الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) لم يأخذ طريقه إلى التطبيق العملي فعندما طرح هذا الموضوع كفكرة عليّ أبديت بعض

الملاحظات حوله، منها: أنّ بعض هؤلاء كانت لديهم مشكلات حقيقيّة في الساحة الإسلاميّة الإيرانيّة، وكان يراد لهذه القيادة أن تتحرّك هنا في الجمهورية الإسلاميّة، وفي ذلك الوقت كانت الأجهزة المسؤولة عن هذه الأعمال والنشاطات لها موقف سلبي تجاه بعض هؤلاء الأشخاص، ومن ثمّ كان تقديري أنّ هذه القيادة لا يمكن أن تؤدّي وظيفتها وتقوم بواجباتها بالشكل المناسب الذي يُراد لها أن تقوم به، وقد طرحت هذه الملاحظة وبعض الملاحظات الأُخرىٰ، الأمر الذي أدّىٰ إلى أنّ الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) ومن خلال رؤيته لتطوّرات الأحداث والواقع أن يسحب اقتراحه. وإن كان الشهيد الصدر (رضوان الله عليه) من الناحية النظريّة ورؤيته لمستقبل الأُمور في العراق كان يرىٰ من المهمّ جدّاً أن تكون هناك قيادة في الساحة الإسلاميّة العراقيّة تقوم بدورها المناسب في إدارة شؤون الحركة والمواجهة، إذ لا يمكن لأيّ جماعة وأُمّة أن تحقّق النصر وتصل إلى أهدافها ما لم يتوفّر فيها مثل هذا الشرط..»[1].

هذا نصّ ما ذكرته صحيفة (المبلغ).

وفَشَلَ مشروع القيادة النائبة، وأصابت السيّد الشهيد الصدر خيبة أمل قاتلة، وهمٌّ دائم، وتدهورت صحّته، وأُصيب بضعف شديد، حتّىٰ كان لا يقوىٰ على صعود السُلّم إلّا بالاستعانة بي، وظهرت على وجهه علامات وحالات لا أعرف كيف أُعبّر عنها:

قلت لسماحته: سيّدي لماذا هذا الهمّ والحزن والاضطراب؟

فقال: «لقد تبدّدت كلّ التضحيات والآمال، أنت تعرف أنّني سوف لن أتنازل للعفالقة وسوف أُقتل.. أنا لا أُريد أن أُقتل في الزنزانات ـ وإن كان ذلك

١ ـ صحيفة المبلّغ الرسالي العدد / ١٢٩ / الصادر في ١٥ ذو الحجة ١٤١٨هـ ١٣ نيسان ١٩٩٨م. السنة السابعة.

شهادة مقدّسة في سبيل الله ـ بل أُريد أن أُقتل أمام الناس ليحرّكهم مشهد قتلي، ويستثيرهم دمي. هل تراني أملك شيئاً غير سلاح الدم، وها أناذا قد فقدته، إن قتلني هؤلاء فسوف لن يفلحوا بعدي، ولن ينتصروا..».

وبعد أيام طلب مني أن أخرج من البيت وقال لي:

«قد أتعبتك وقد وفيت لي، ولا أجد فائدة في استشهادك معي حاول أن تنجو بنفسك» فرفضت الخروج وقلت له: «سأبقىٰ معك مهما كان الثمن».

وحاول عدّة مرات، وبأشكال مختلفة أن أخرج من البيت وأتركه وحده، فرفضت فقال لي:

لقد وفيت لي، وصبرت معي، فهل من طلب تطلبه؟

فقلت: نعم.

فقال: وما هو؟

فقلت: تعاهدني على أن لا تدخل الجنّة إلّا وأنا معك.

فقال (رضوان الله عليه):

«عهد الله عليَّ أن لا أدخل الجنّة إلّا وأنت معي إن شاء الله».

ولا أعتزّ بشيء في حياتي بمثل هذا العهد.

اللّهمّ أسألك بدم أبي جعفر، وآلامه، وما جرى عليه من أجلك إلّا ما جعلتني معه كما عاهدني، يا وفيُّ يا كريم..

هذه هي فكرة القيادة النائبة ملخّصة، وقد أعرضت عن ذكر تفاصيلها حيث لا أجد ضرورة تستدعي ذلك.

حياته السياسيّة والجهاديّة

٥

المفاوضات الأخيرة

و

الاستشهاد

- المفاوضات الأخيرة.
- الرؤيا والوصيّة.
- إرهاصات ما قبل الإعدام.
- انقطاع كامل لله تعالى.
- اليوم الأسود.
- وقوع الجريمة والتكتّم عليها.
- بيان الإمام الخميني ﷺ.

المفاوضات الأخيرة:

لقد حدثت مفاوضات متعدّدة في الفترة الأخيرة التي سبقت استشهاده (رضوان الله عليه)، وكانت كلّها عقيمة، لأنّ موقفه ﷺ كان ثابتاً فيها جميعاً، ولم تنجح أساليب الترهيب والترغيب في زعزعة موقفه أبداً.

وإذا كانت الظروف والأوضاع لا تسمح لي بذكر كلّ التفاصيل الدقيقة، فلا حرج من ذكر ما يجوز منها على سبيل الاختصار، والإيجاز.

إنّ آخر المفاوضات التي جرت، والتي استشهد (رضوان الله عليه) بعدها بأيّام قليلة كانت بينه وبين مبعوث خاصّ ومفوّض من قبل القصر الجمهوري، وقد طال كلّ لقاء من هذه اللقاءات أكثر من ثلاث ساعات، وهنا أسعى لحذف التفاصيل، وأقتصر على البعض المهم من فقراتها موكلاً التفصيل إلى وقت آخر.

بدأت المفاوضات الأخيرة بهذا الشكل: اتّصل فاضل البرّاك مدير الأمن العام بالسيّد الصدر ﷺ، وقال له: إنّ القيادة ستبعث لكم اليوم ممثّلاً لها ليبحث معكم كافّة القضايا، وأرجو أن تكون النتائج طيّبة وإيجابيّة.

وبعد ساعة واحدة جاء (المبعوث) محاطاً بعدد من قوّات الحماية، وطلب من الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله) الإذن بلقاء السيّد الشهيد (رضوان الله عليه)، وكان مؤدّباً حسن المعاملة والتصرّف قياساً بغيره من المسؤولين.

دخل إلى البيت بعد أن طلب من حمايته البقاء خارج المنزل، ومنعت قوّات الأمن التي تطوّق منزل السيّد الشهيد المرور من الزقاق، بما في ذلك السكّان الذين تقع دورهم فيه.

التقى هذا الشخص بالسيّد الشهيد، وعرّف نفسه بأنّه مبعوث خاص من قبل رئاسة الجمهوريّة، ومخوّل من قبلها، وكنّى نفسه بأبي علي.

وبدأ خطوته بمجاملة حارّة! وقال: يصعب على السيّد الرئيس وعلينا هذا الوضع الذي لم نكن نرغب فيه، ولم نكن نتمنّى لكم هذا الوضع، وأرجو أن نتوفّق لحلّ هذه المشكلة، فأنت عربي منّا، ومفكّر إسلامي كبير.

السيّد الشهيد: إذا كنت تقصد الحجز فأنا لست متضايقاً منه.

المبعوث: لا أعني الحجز وحده، بل الحالة غير الطبيعيّة بيننا.. ثمّ قال: سيّدنا، إنّني مخوّل من قبل القيادة لبحث كلّ القضايا والمشاكل، وإن شاء الله سنتوصّل إلى حلّ لها فى هذا اليوم يرضي الطرفين، وتعود الأُمور إلى طبيعتها، بل وتحدث بيننا محبّة وصداقة.

السيّد الشهيد: تفضّل.

المبعوث: سيّدنا، إنّ ما حدث ـ في رجب ـ كان تحدّياً للدولة، وقد أُهينت كرامتها، وهُتكت حرمتها إنّ مسؤوليّة ذلك تقع عليكم. وأُحبّ أن أُخبركم أنّ القيادة لم تتسامح مع أحد ـ بما في ذلك رفاق قياديّين في حزب البعث ـ كما تسامحت معكم، إنّ من أصعب الأُمور بالنسبة لنا هو كيفيّة التعامل معكم، إنّ هذا من الأُمور المعقّدة بالنسبة للقيادة، إنّ ما صدر منكم ممّا لا يمكن للقيادة تحمّله.

السيّد الشهيد: وما الذي صدر منّي؟

المبعوث: أشياء كثيرة، العلاقة بإيران، وفود المعارضة للسلطة، تحريم الانتماء لحزب البعث..

السيّد الشهيد: علاقتي بإيران لا تتجاوز علاقتي بالسيّد الخميني، وهي علاقة العالِم بالعالِم، وأمّا تأييد الثورة الإسلاميّة فهو موقف ينسجم مع موقف السلطة، فأنتم أيضاً أيّدتم الثورة الإسلاميّة.

المبعوث: ولكن يجب أن يكون ذلك بموافقتنا، ومشورتنا، وما سوى ذلك يعتبر تحدّياً لنا، وليس من حقّ أيّ مواطن أن يقيم علاقة بدولة، إنّنا نعتبر ذلك عمالة للأجنبي، وعلى كلّ حال فلأجل حلّ هذه المشاكل وضعت القيادة شروطاً، فإن استجبتم لها فسوف تنتهي هذه الأزمة وتعيش معزّزاً مكرّماً.

السيّد الشهيد: وما هي الشروط؟

المبعوث:

١ ـ عدم تأييد الثورة الإسلاميّة في إيران، والاعتذار عمّا صدر منكم من مواقف بهذا الخصوص من خلال بيان يصدر منكم.

٢ ـ وأن يتضمّن البيان شجباً صريحاً للوفود التي جاءت لتأييدكم في رجب.

٣ ـ أن تُصدر فتوى خطّية تعلن فيها حرمة الانتماء لحزب الدعوة.

٤ ـ التخلّي عن فتواكم حول حرمة الانتماء لحزب البعث.

٥ ـ إصدار بيان تؤيّد فيه السلطة ولو في بعض منجزاتها كتأميم النفط، أو منح الأكراد الحكم الذاتي، أو محو الأُمّية.

السيّد الشهيد: وإذا لم أستجب لهذه المطالب؟

المبعوث: الإعدام.

السيّد الشهيد: تفضّل، أنا الآن مستعدّ للذهاب معك إلى بغداد لتنفيذ حكم الإعدام.

قال لي السيد الشهيد (رضوان الله عليه) حينما سمع جوابي بقي متحيّراً مذهولاً،

تارةً ينظر إليّ، وتارةً يطرق برأسه إلى الأرض، وتغيّر لونه وكأنّه تفاجأ بالجواب، ثمّ التفت إليّ وقال: هل هذا هو الجواب الأخير؟

السيّد الشهيد: نعم لا جواب آخر عندي.

المبعوث: ألا تفكّر بالأمر؟

السيّد الشهيد: لا فائدة.

وانتهى اللّقاء، ولكنّه جاء في يوم آخر بمشروع جديد، كان يعتقد أنّ السيّد الشهيد ﵀ سيقبل به لما يحمل من إغراءات كبيرة، فقال المبعوث: سيّدنا، إنّ السيّد الرئيس يعدكم في حال قبولكم بهذه الشروط بما يلي:

١ ـ سيقوم بزيارتكم، وتغطّى الزيارة من خلال وسائل الإعلام، ومنها التلفزيون.

٢ ـ في خلال الزيارة سيقدّم السيّد الرئيس صدّام حسين سيّارته الشخصيّة هديةً لكم، وهذا أعلى مراتب التكريم والحفاوة، ولكي تطمئنّوا إلى صحّة نوايانا فسوف لا نطلب منكم نشر البيان قبل أن تشاهدوا ذلك من التلفزيون.

٣ ـ تكون أوامركم وطلباتكم نافذة في دوائر الدولة، وبهذا نكون قد بدأنا صفحة جديدة من الصداقة والمحبّة، لأنّنا أقرب إليك من الخميني، وأنت أقرب إلينا منه.

السيّد الشهيد: موقفي هو الموقف السابق.

المبعوث: نحن لاندري ماذا تريد، والله (بشرفي) إنّ القيادة لم تتنازل لأحد بهذا المقدار، والله لقد نفّذنا الإعدام بأشخاص عارضونا أقلّ من هذا، وكان منهم رفاق في الحزب فلماذا هذا الإصرار؟ ماذا تريد أن نفعل؟

السيد الشهيد: أنا لم أطلب منكم شيئاً، وكما قلت لكم إذا كان الحلّ لهذه الأزمة هو الإعدام فأنا مستعدّ لذلك، ولا كلام آخر عندي.

ظلّ هذا المبعوث ساكتاً، ولم يتكلّم بشيء، وبعد فترة عاد إلى الحديث، ففاوض السيّد الشهيد ﷺ على الشروط متنازلاً عنها الواحد تلو الآخر، والسيّد الشهيد مصرٌّ على موقفه، بعدها قال المبعوث: سيّدنا، بقي شيء لابدّ منه، كما أنّه ليس من حقّي أن أتنازل عنه مطلقاً.

السيّد الشهيد: ما هو؟

المبعوث: أن توافق على إجراء مقابلة مع صحيفة أجنبية، وإن شئت أن تكتب الأسئلة بنفسك فلا مانع ـ حتّى لو كانت فقهيّة ـ ولكن بشرط أن تؤكّد في المقابلة أن لا عداء بينكم وبين السلطة أو تشيد ببعض إنجازاتنا كمحو الأُمّية، أو تأميم النفط، أو منح الأكراد الحكم الذاتي، وفي مقابل ذلك نتعهّد بتنفيذ كلّ التعهّدات السابقة.

السيّد الشهيد: وإذا لم أفعل؟

المبعوث: الإعدام، بشرفي لا حلّ غيره.

السيّد الشهيد: أنا مستعدّ، ولا كلام آخر عندي.

وتحيّر المبعوث، وظلّ ساكتاً فترة طويلة، ثمّ قام وودّع السيّد الشهيد، وجرت دموعه على وجهه، وقال بلهجته العامّية: «حيف مثلك تأكله الگاع ـ أي الأرض ـ حيف، والله حيف».

وكانت هذه المفاوضات قد جرت في آخر شهر من أشهر الحجز.

بعد أن انتهى هذا اللقاء قلت للسيّد الشهيد ﷺ وكانت أُخته الشهيدة بنت الهدى حاضرة: إنّ الشرط الأخير لا يعتبر مهمّاً، ولا يُفسّر قبولكم به على أنّه تنازل، ثمّ مَنْ لا يعذركم وأنتم تعيشون هذه الظروف القاسية وقد تخلّى عنكم الجميع. إنّ حياتكم أهمّ للإسلام وللعمل الإسلامي في العراق، وإذا كان الحجز قد كشف لكم عن حقائق هامّة، وغيّر من تصوّراتكم عن بعض القضايا، فمن سيستفيد

من هذه التجربة إن أنتم استشهدتم، إنّني أرى أن نستفيد من هذه الفرصة ونهيّئ أنفسنا للفرار من العراق، وإذا كنتم لاترغبون بالخروج من العراق فلنذهب إلى منطقة آمنة في شمال العراق، فمن هناك يمكن أن تقودوا العمل بشكلٍ أفضل ممّا هو في الحجز.

لقد تحدّثت معه (رضوان الله عليه) كثيراً حول هذا الموضوع، وتحدّثتُ معه أيضاً الشهيدة بنت الهدى، ولكن دون جدوى، فقد أجابني بأنْ رفع رأسه إلى السماء وقال:

«اللّهم إنّي أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد أن ترزقني الشهادة وأنت راضٍ عنّي، اللّهمّ أنت تعلم أنّي ما فعلت ذلك طلباً للدنيا، وإنّما أردتُ به رضاك، وخدمة دينك، اللّهم ألحقني بالنبيّين والأئمة والصدّيقين والشهداء، وأرحني من عناء الدنيا».

ثمّ كفكف دموعه، وغسل وجهه، وكان يحرص قدر المستطاع أن لايدخل الحزن على قلوب عائلته وأطفاله، فأمر الشهيدة بنت الهدى أن لا تخبر أحداً بنتيجة هذا اللقاء.

وكنت أُحسّ منه بعد تلك المفاوضات أنّه كان ينظر إلى أُطفاله برقّة وعطف، إذ كانت تعلو وجهه ابتسامة يشوبها الحزن كلّما نظر إلى أحدهم، وهذه الحالة لم أكن أعهدها منه قبل هذه الفترة، وكأنّه قد أيقن أنّ أجله قد حان.

الرؤيا والوصيّة:

وبعد فجر ذلك اليوم جاء (رضوان الله عليه) فأيقظني للصلاة، فقمت وصلّيت الفجر، ثمّ قال لي: إنّي أُبشّر نفسي بالشهادة إن شاء الله.

قلت: خيراً إن شاء الله.

فقال:

«رأيت في عالم الرؤيا أنّ خالي المرحوم الشيخ مرتضى آل ياسين وأخي المرحوم السيّد إسماعيل الصدر قد جلس كلّ واحد منهم على كرسيّ، وتركوا كرسيّاً لي بينهما، وهما ينتظران قدومي إليهما، ومعهم ملايين البشر ينتظروني أيضاً».

ووصف لي النعيم وما هما فيه من سعادة لا تتصوّر.

فقلت: لعلّ هذه الرؤيا تدلّ على الفرج والنصر إن شاء الله.

فقال: إنّ الشهادة أعظم نصر إن شاء الله.

وقد كتب في نفس اليوم وصيّته، أو لعلّ الصحيح أنّه أعاد كتابة وصيّته وضمّنها أشياء جديدة، وكان قد أطلعني على بعضها شفهاً، وبما أنّ المقدار الذي أطلعني عليه خاصّ بي فلا أجد ضرورة لذكره.

وكان (رضوان الله عليه) قد بعث في أوّل فرصة أتيحت له في فترة الحجز بكلّ ما يملك من أموال إلى خارج العراق لكي لا تقع هذه الأموال بيد السلطة في حال استشهاده وفيها حقوق شرعيّة، وأيضاً بعث بما لديه من أمانات كأموال العبادات إلى الإمام الخوئي بواسطة المرحوم السيّد محمّد صادق الصدر، ولم يُبقِ شيئاً في ذمّته.

إرهاصات ما قبل الإعدام:

بعد فشل كافّة المفاوضات والمحاولات مع السيّد الشهيد ﷺ للحصول ولو على أبسط قدر من التنازل للسلطة لأجل حفظ ماء الوجه ـ حسب تعبيرهم ـ قرّروا تنفيذ حكم الإعدام بشهيدنا المظلوم، ومفجّر ثورتنا العظيم.

وقد مهّدت السلطة لذلك باتّخاذ عدّة إجراءات وخطوات، كان أهمّها ما

يلي:

١ ـ أعلن الحزب العميل لكوادره عن عزم السلطة على تنفيذ هذه الجريمة، وطلب منهم الإعلان عن ذلك على نحو الاحتمال لا اليقين، تمهيداً لتهيئة الأرضيّة ولمعرفة ردود الفعل الجماهيريّة على تلك الجريمة لو حدثت.

وأتذكّر أنّ الحاج عباس ـ خادم السيّد ـ جاء بعد ظهر يوم من تلك الأيام مضطرباً خائفاً وهو يبكي، فأخبر السيّد الشهيد ﵀ بأنّ إشاعة قويّة انتشرت بين الناس مؤدّاها: أنّ السلطة ستنفّذ حكم الإعدام بالسيّد الصدر في المستقبل القريب.

فقال له (رضوان الله عليه): «لقد بشّرتني، بشّرك الله بكلّ خير».

٢ ـ عرض تلفزيون السلطة مقابلة مع أحد المعارضين ـ ولست أعرف مضمون هذه المقابلة ولا الشخص المتّهم ـ ذكر فيها اسم السيّد الشهيد الصدر استطراقاً خلال حديثه عن حزب الدعوة الإسلاميّة.

٣ ـ ثمّ جاء حادث المستنصريّة المعروف الذي استهدف اغتيال طارق عزيز وما تلاه من ضرب المشيّعين الذين كانوا في موكب تشييع من قتل في ذلك الحادث. ومن خلال شاشة التلفزيون أعلن صدّام التكريتي أنّه سينتقم لتلك الدماء، فقال: «والله..والله..والله.. إنّ هذه الدماء التي جرت على أرض المستنصريّة لن تذهب سدى».

وأثناء زيارته للجرحى في المستشفى قالت له إحدى الجريحات: سيّدي سفّر الإيرانيين، فقال لها: نعم، سنفعل ذلك.

وكان ذلك قبل أن تثبت التحقيقات أنّ منفّذ العمليّة من أصل إيراني. وما هي إلّا ساعات قليلة حتّى شنّت السلطة حملة هائلة لتهجير حتّى العراقيين الذين يحملون شهادات الجنسيّة من الدرجة الأُولى! فأحدث ذلك رعباً عظيماً بين

الناس.

ورافق حملة التهجير عمليات اعتقال كبيرة للشباب المؤمنين الذين كانت السلطة تعتقد أنّ ردّ الفعل سيصدر منهم في حال إعدام السيّد الشهيد ﵁.

وبعد أيّام قليلة من علم السيّد الشهيد بتلك المؤشّرات أمرني بالخروج من البيت، وقال لي:

«إنْ قَتَلَك هؤلاء فسوف يضيع تاريخ هذه الفترة من حياتي».

وكان من الطبيعي أن لا أستجيب، وقلت له: هل يجوز أن أتخلّى عنك وأنت في هذه الظروف؟! لا والله، لا يكون ذلك أبداً. فقال لي:

«إذا حدث، وجاء هؤلاء الطغاة لاعتقالي، فلا تخرج معي، إنّي أُحرّم عليك ذلك».

ثمّ طلبت منه مسبحة كانت بيده، وقلت له: أُريدها أن تبقى ذكرى، فقال: «هاك خذها»، وهي عندي مازلت أحتفظ بها.

انقطاع كامل لله تعالى:

وفي هذه الفترة انقطع (رضوان الله عليه) إلى ربّه (تعالى) انقطاعاً كاملاً، فكان بين تال للقرآن، أو مسبّح حامد، وكان أكثر ذكره (سبحان الله، والحمدلله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر) وكان صائماً في الأيّام الأخيرة من الحجز، ولم يكن له من همّ إلّا العبادة، وكنت في بعض الأحيان أُثير أمامه بعض المواضيع التي تتعلّق بالعمل الإسلامي فلا يجيب بشيء، ويكتفي بابتسامة بسيطة، وكأنّه لا يريد أن يتحدّث عن شيء من هذه الأمور، إذ لا فائدة ولا أمل في ذلك.

كان الهمّ والحزن ينخر في قلبه حتّى أصبح كأنّه هيكل عظمي من الضعف، وأعتقد أنّ البعض لو رآه لظنّه شخصاً آخر، وما كان ذلك والله خوفاً من القتل، ولا

حرصاً على الحياة، ولا حبّاً للدنيا، وما حياته المادّية تستحقّ ذلك، إذ كانت بلا رفاه ورغدٍ، فلا قصور منيفة، ولا سيّارات فارهة، استشهد وهو لا يملك من الأرض شبراً واحداً، ولا وضع حجراً على حجر، وما كان همّه في يوم من الأيّام السعي وراء زخارف الدنيا وزينتها.

لقد قضى حياته بين مخالب السلطة العفلقيّة وأنيابها، لاهمّ لها إلّا اعتقاله ومضايقته والتجسّس عليه، وقد قال لي يوماً:

«إنّي ـ والله ـ أخشى أن أُقبّل أطفالي خشية أن تسترق أجهزة الصوت الموضوعة في البيت ذلك، وتسخّرها السلطة لأغراض دعائيّة ضدّي، وتصوّرها للناس بشكل آخر».

وإنّي ـ والله ـ لولا خوفي من الاتّهام بالمبالغة والتطرّف لذكرت أشياء تدمي القلب، وتحزّ الفؤاد، فلله صبرك يا سيّدي يا أبا جعفر.

اليوم الأسود:

في اليوم الخامس من شهر نيسان الأسود عام (١٩٨٠م) وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر جاء المجرم مدير أمن النجف ومعه مساعده الخبيث (أبو شيماء)، فالتقى بالسيّد الشهيد (رضوان الله عليه) وقال له: إنّ المسؤولين يودّون لقاءك في بغداد.

فقال السيّد: إذا أمروك باعتقالي فنعم، أذهب معك إلى حيث تشاء.

مدير الأمن: نعم، هو اعتقال.

السيّد الشهيد: انتظرني دقائق حتّى أُودّع أهلي.

مدير الأمن: لا حاجة لذلك ففي نفس هذا اليوم أو غدٍ ستعود.

السيّد الشهيد: وهل يضرّكم أن أُودّع أطفالي وأهلي؟

مدير الأمن: لا، ولكن لا حاجة لذلك. ومع ذلك فافعل ما تشاء.

فقام (رضوان الله عليه) وودّع أهله وأطفاله. وهذه هي المرّة الوحيدة التي أراه يودّعهم من بين الاعتقالات التي تعرّض لها.

ثمّ عاد والابتسامة تعلو وجهه، فقال لمدير أمن النجف: هيّا بنا نذهب إلى بغداد.

وذهب السيّد الشهيد ﷺ إلى بغداد لينال الشهادة، ويفي لشعبه بوعده حينما خاطبه قائلاً:

«وأنا أعلن لكم يا أبنائي أنّي صمّمت على الشهادة، ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه منّي، وإنّ أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء، حتّى يكتب الله لكم النصر، وما ألذّ الشهادة التي قال عنها رسول الله ﷺ: إنّها حسنة لا تضرّ معها سيّئة، والشهيد بشهادته يغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت..»[1].

كانت أُولى بوادر الشؤم أنّ السلطة قامت بسحب كافّة قوّاتها من الزقاق، وذهبت الشهيدة بنت الهدى تستطلع الأمر فلم تجد أحداً منهم، فعلمنا أنّ هذا الاعتقال نذير شؤم.

وذهبت الشهيدة (رضوان الله عليها) إلى غرفتها، فأبدلت ملابسها بأُخرى وربطت كمّي ثوبها على معصميها ظنّاً منها بأنّها ستسترها حين التعذيب، وقالت لي: أترى أنّ هذا يسترني؟ فقلت لها: سوف لا تتعرّضين للاعتقال إن شاء الله، وجرى حديث آخر بيني وبينها لا أجد ضرورة لذكره.

وجاء الليل، وأيّ ليلة كانت، فلقد خيّم فيها الحزن على قلوبٍ طاهرة، عانت من العذاب والحرمان أكثر من تسعة أشهر لينفجر صباحها عن تطويق جديد

١ ـ مضى ذلك ضمن البيان الثاني من البيانات الثلاثة التي أصدرها السيّد الشهيد ﷺ قبل استشهاده.

لمنزل السيّد الشهيد، فهل جاء هؤلاء لأنّ السيّد الشهيد سيعود من بغداد سالماً ويُحتَجز مرّة أخرى؟ كنّا نقول: يا ليت ذلك، إنّها نعمة ما أعظمها.

أمّا الشهيدة بنت الهدى، فقد قالت: كلّا، إنّ هؤلاء جاءوا لاعتقالي؟ فاستعدّت، وتهيّأت، وكانت والله كأنّها زينب أُخت الحسين عليه السلام في صبرها، ورباطة جأشها، وشجاعتها.

وفي اليوم السادس من نيسان الأسود جاء المجرم الخبيث مساعد مدير أمن النجف المعروف بـ(أبي شيماء) ولم تسمح له السيّدة الشهيدة بالدخول إلى الدار، فقال لها: علوية، إنّ السيّد طلب حضورك إلى بغداد.

فقالت: نعم، سمعاً وطاعةً لأخي إن كان قد طلبني، ولا تظنّ أنّي خائفة من الإعدام، والله إنّي سعيدة بذلك، إنّ هذا طريق آبائي وأجدادي.

ضابط الأمن: لا علوية، بشرفي إنّ السيّد طلب حضورك.

أجابته الشهيدة مستهزئة: صدقت، بدليل أنّ قوّاتكم طوّقت بيتنا من جديد.

ثمّ قالت له: دعني قليلاً، وسوف أعود إليك، ولا تخف، فأنا لن أهرب، وأغلقت الباب بوجهه.

ثمّ جاءتني وقالت لي:

«أخي أبا علي، لقد أدّى أخي ما عليه، وأنا ذاهبة لكي أُؤدّي ما عليّ، إنّ عاقبتنا على خير.. أُوصيك بأُمّي وأولاد أخي، لم يبقَ لهم أحد غيرك، إنّ جزاءك على أُمّي فاطمة الزهراء، والسلام عليك..».

قلت لها: لا تذهبي معهم.

فقالت: لا والله حتّى أُشارك أخي في كلّ شيء حتّى الشهادة[1].

وشهد الله، لقد صُعقت وأنا أستمع إليها، وتحيّرت ماذا سأقول لهذا الجبل

١ ـ الشهيدة بنت الهدى سيرتها ومسيرتها للمؤلف.

الشامخ من الإيمان، والفداء، والشجاعة، وهي تهزأ بالموت والتعذيب من أجل الله تعالى.

وقوع الجريمة والتكتّم عليها:

وفي مساء اليوم التاسع من نيسان ١٩٨٠م، وفي حدود الساعة التاسعة أو العاشرة مساءاً قطعت السلطة التيّار الكهربائي عن مدينة النجف الأشرف. وفي ظلام الليل الدامس تسلّلت مجموعة من قوّات الأمن إلى دار المرحوم الحجّة السيّد محمّد صادق الصدر ﵀، وطلبوا منه الحضور معهم إلى بناية محافظة النجف، وكان بانتظاره هناك المجرم مدير أمن النجف (أبو سعد)، فقال له: هذه جنازة الصدر وأُخته، قد تمّ إعدامهما، وطلب منه أن يذهب معهم لدفنهما.

فقال المرحوم السيّد محمّد صادق الصدر: لابدّ لي من تغسيلهما.

فقال له مدير الأمن: قد تمّ تغسيلهما وتكفينهما.

فقال: لابدّ من الصلاة عليهما.

فقال مدير الأمن: نعم، صلِّ عليهما.

وبعد أن انتهى من الصلاة قال له مدير الأمن: هل تحبّ أن تراهما؟

فقال: نعم.

فأمر الجلاوزة بفتح التابوت، فشاهد السيّد الشهيد (رضوان الله عليه) مضرّجاً بدمائه، وآثار التعذيب على كلّ مكان من وجهه، وكذلك كان حال الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله).

ثمّ قال له: لك أن تُخبر عن إعدام السيّد الصدر، ولكن إيّاك أن تُخبر عن إعدام بنت الهدى، إنّ جزاءك سيكون الإعدام.

ولمّا حانت وفاة المرحوم السيّد محمّد صادق الصدرﷺ أخبر عن شهادة بنت الهدى.

وقد دفن السيّد الشهيد في مقبرة وادي السلام في النجف الأشرف وإلى جانبه أُخته الطاهرة بنت الهدى في مكان أعرفه على نحو الإجمال.

وضربت السلطة العفلقيّة المجرمة طوقاً من التعتيم على جريمتها النكراء، فلم يعلم بالحادث إلّا القليل من أبناء النجف الذين تسرّب إليهم الخبر عن طريق بعض (الدفّانة) الذي يعملون في مقبرة النجف المسمّاة بـ(وادي السلام).

وكانت السلطة تنفي في بعض الأحيان وقوع الجريمة، وفي أحيان أُخرى تثبتها، وكان النفي والإثبات يتمّ عن طريق كوادر حزب البعث العميل، فوقع الناس في حيرة شديدة، ولا أحد يستطيع أن يشخّص الموقف العملي المناسب تجاه هذه الجريمة الكبرى. وكانت الأسماع في تلك الفترة متّجهة إلى إذاعة الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران ـ القسم العربي ـ فكان أملهم أن تنجلي الحيرة بما سوف يُذاع عن هذا الأمر الخطير من خلالها. ويظهر أنّ خبر استشهاد السيّد الصدرﷺ وصلهم بعد وقوع الجريمة بعدّة أيّام، فأعلن الإمام الراحل السيّد الخمينيﷺ نبأ الاستشهاد من خلال بيان تأبيني مهم، ومنه عرف الناس بوقوع الجريمة الكبرى.

وهكذا خسر العالم الإسلامي والشعب العراقي خسارة لن تُعوّض، وفقدا علماً خفّاقاً في سماء الإيمان والعلم والمعرفة..

واغتالته يد الطاغية الجبّار، المولع بدماء المؤمنين الأبرار المجرم صدّام حسين التكريتي. فويل لكلّ جبّار أثيم «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون».

بيان الإمام الخميني ﷺ:

وقد أصدر الإمام الراحل السيّد الخميني (رضوان الله عليه) بياناً تاريخياً أعلن فيه عن استشهاد الإمام السيّد الصدر وأُخته المظلومة بنت الهدى، هذا نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

تبيّن ـ ببالغ الأسف ـ من خلال تقرير السيّد وزير الشؤون الخارجيّة، والذي تمّ التوصّل إليه عن طريق مصادر متعدّدة وجهات مختصّة في الدول الإسلاميّة، وحسب ما ذكرته التقارير الواردة من مصادر أُخرى: أنّ المرحوم آية الله الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر وشقيقته المكرّمة المظلومة، والتي كانت من أساتذة العلم والأخلاق ومفاخر العلم والأدب، قد نالا درجة الشهادة الرفيعة على أيدي النظام البعثي العراقي المنحطّ، وذلك بصورة مفجعة!.

فالشهادة تراثٌ ناله أمثال هذه الشخصيات العظمية من أوليائهم، والجريمة والظلم أيضاً تراثٌ ناله أمثال هؤلاء ـ جناة التاريخ ـ من أسلافهم الظلمة.

فلا عجب لشهادة هؤلاء العظماء الذين أمضوا عمراً من الجهاد في سبيل الأهداف الإسلاميّة، على أيدي أشخاص جناة قضوا حياتهم بامتصاص الدماء والظلم، وإنّما العجب هو أن يموت مجاهدو طريق الحقّ في الفراش دون أن يلطّخ الجناة أيديهم الخبيثة بدمائهم!.

ولا عجب أن ينال الشهادة المرحوم الصدر وشقيقته المظلومة، وإنّما العجب أن تمر الشعوب الإسلاميّة، وخاصّة الشعب العراقي النبيل، وعشائر دجلة والفرات، وشباب الجامعات الغيارى، وغيرهم من الشبّان الأعزّاء في العراق، على هذه المصائب الكبرى التي تحلّ بالإسلام وأهل بيت رسول الله ﷺ دون أن تأبه لذلك، وتفسح المجال لحزب البعث اللعين لكي يقتل مفاخرهم ظلماً الواحد تلو الآخر.

والأعجب من ذلك هو أن يكون الجيش العراقيّ وسائر القوى النظاميّة آلة

بيد هؤلاء المجرمين، يساعدونهم على هدم الإسلام والقرآن الكريم.

إنّني يائس من كبار القادة العسكريين، ولكنّني لست يائساً من الضبّاط والمراتب والجنود، وما أتوخّاه منهم هو: إمّا أن يثوروا أبطالاً وينقضّوا على أساس الظلم، كما حدث في إيران، وإمّا أن يفرّوا من معسكراتهم وثكناتهم، وألّا يتحمّلوا عار مظالم حزب البعث.

فأنا غير يائس من العمال وموظّفي حكومة البعث المغتصبة، وآمل أن يضعوا أيديهم بأيدي الشعب العراقيّ وأن يزيلوا هذا العار عن بلاد العراق.

أرجوه تعالى أن يطوي بساط ظلم هؤلاء الجناة.

وها أنا أُعلن الحداد العامّ لمدّة ثلاثة أيام اعتباراً من يوم الأربعاء الثالث من شهر (أُرديبهشت) الثالث والعشرين من نيسان، كما أُعلن يوم الخميس عطلة عامّة؛ وذلك تكريماً لهذه الشخصيّة العلميّة، ولهذا المجاهد الذي كان من مفاخر الحوزات العلميّة، ومن مراجع الدين ومفكّري المسلمين.

وأرجو الخالق تعالى أن يعوّضنا عن هذه الخسارة الكبرى والعظيمة على الإسلام والمسلمين.

والسلام على عباد الله الصالحين.

الثاني من شهر أُرديبهشت ١٣٥٩

روح الله الموسوي الخمينيّ»

فهرس الموضوعات

القسم الثاني
حياته السياسيّة والجهاديّة
(٧ ـ ٢١٤)

استرتيجيّته السياسيّة والجهاديّة
(٩ ـ ٥٢)

الصراع بينه وبين السلطة الحاكمة

(٥٣ ـ ٦٦)

المواقف المعاديَة له من قبل السلطة

(٦٧ ـ ١١٨)

مَواقفه الجهاديّة والقياديّة

(١١٩ ـ ١٩٦)

المفاوضات الأخيرة والاستشهاد

(١٩٧ ـ ٢١٤)